قراءات فى تاريخ مصر الإسلامية

من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى

دكتور
محمد نصر عبد الرحمن

دكتور
سند أحمد عبد الفتاح

الناشر
دار النهضة العربية
القاهرة ٢٠٠٨

قراءات في تاريخ مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلي نهاية العصر الفاطمي

دكتور
محمد نصر عبد الرحمن

دكتور
سند أحمد عبد الفتاح

الناشر
دار النهضة العربية
القاهرة 2008

© د. محمد نصر عبد الرحمن   د. سند أحمد عبد الفتاح

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف ، ولا يجوز الاقتباس أو التصوير
بالآلات الحديثة أو النسخ أو الطبع إلا بإذن كتابى من المؤلف
الطبعة الأولى 2008م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٧٧٩٦ / ٢٠٠٨

دار الفردوس للطباعة
ت : ٠١٠٥٤٢٠٨٠١

لم يكن دخول العرب إلى مصر حدثاً عادياً فى تاريخها ، بل كـان نقلة كبرى تركت تأثيرها على كافة المســتويات السياســية والاجتماعيــة والأيدلوجية ؛ فمن ولاية رومانية إلى ولاية إسلامية تطورت لتصبح مركزاً لعدد من الدول الإسلامية المستقلة نهاية باحتضانها الخلافة الفاطمية. ومن عقيدة مسيحية غالبة إلى انتشار واسع للدين الإسلامى ولغته العربيــة .. تطورات متلاحقة ، شكلت واحدة من أكثر الفترات زخماً فى تاريخ مصـر عبر العصور .. تاريخ مصر الإسلامية ...

وما بين فتح إسلامى غير كثيراً من أحوال مصر ، ومثل مرحلـة جديدة تماماً من تاريخها ، مروراً بالدول المستقلة التى اتخذت من مصـر مقراً لها كالدولتين الطولونية والإخشيدية وما صاحب ذلك من تطور مركز مصر فى العالم الإسلامى من مجرد ولاية تابعة للخلافة إلى دولة صـاحبة كيان فى العالم الإسلامى ، ثم تطور الوضع كلية بمقدم الفـاطميين ومـا صاحبه من تقلب مذهبى وتنافس سياسى بين العباسيين والفاطميين ، هذا الوضع الذى جعل من مصر مركزاً هاماً من مراكز صنع القرار فى العـالم الإسلامى.

ولا شك أن حقبة بهذا الزخم تجذبنا حثيثاً نحو دراستها ، والتبحر فى ربوعها ، فى محاولة لرسم فضاء جلى لأهم أحداث هذه الحقبة علـى الجانبين السياسى والحضارى ، وتنقسم دراستنا إلي عدة فصول ؛يتنـاول الأول منها الفتح العربي وأسبابه ، وخصص الفصل الثاني الحـديث عـن الدولة الطولونية التي جعلت من مصر دولة مسـتقلة اسـتقلالاً ذاتيـاً ؛ وتناول الفصل الثالث الدولة الإخشيدية ، وتحدث الفصل الرابع عن الدولة الفاطمية ، أما الفصل الخامس والأخير فقد خصص للحديث عـن بعـض مظاهر النظم والحضارة إبان تلك الفترة .

وفى الختام نرجو أن يكون هذا العمل العلمى المتواضع لبنـــة ذات قيمة فى صرح الدراسات التي تتعلق بتاريخ مصر الإسلامية فى مكتبتنـــا العربية. وبعد، هذا مبلغنا من العمل فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمـــن أنفسنا، والله ولى التوفيق.

المؤلفان

الدولة الطولونية:-

قبل الخوض فى إصلاحات ومشروعات أحمد بن طولون فى مصر، يجب أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى ، والتى كانت سبباً رئيسياً فى محاولة أحمد بن طولون الاستقلال بمصر ، حيث كانت تجرى الامور بما تُمليها روح السلب وروح الاغتنام ، من ظفر غلب ، ومن احتال كسب ، ليس ثمة نظام وليس ثمة حكم يُرعى .

الخلافة العباسية بين ضعف الخلفاء وتسلط الأتراك :

حدث تطور كبير فى السياسة العامة للخلافة العباسية فى بداية القرن الثالث الهجرى ، حيث أن النزاعات الدائمة بين العرب والفرس أدت إلي تخلى الخلفاء عنهما جميعاً فى الوظائف الإدارية والجيش ، وعهدت بها إلي عنصر جديد بدأ يظهر على ساحة الأحداث فى تلك الفترة ، ألا وهو العنصر التركى .

وإذا أردنا أن نعرف أصل هؤلاء الأتراك ، نجد أن الرواه والإخباريين استعملوا اصطلاح (ترك) ليشمل سكان الأقاليم الشرقية خارج حدود الدولة الساسانية التى قضى عليها العرب ، وشمل هذا الأصطلاح الترك وغيرهم من الشعوب الأخرى ، ثم جاء المؤرخون الأوائل فى العصر العباسى فاختلفوا فى موقفهم من هؤلاء الترك ، فذهب نفر منهم إلي اعتبارهم برابرة وأعاجم ، بينما أطلق البعض الآخر على كل الذين أستقدمتهم الخلافة العباسية من الشرق بالخراسانية [(1)] .

---

(1) فاروق عمر فوزى ، التاريخ الإسلامى وفكر القرن العشرين ، بيروت 1980 ، ص 250.

ويعد أول من أدخل الأتراك فى الحياة السياسية بشـكل تـام هـو الخليفة المعتصم [1] لكنه لم يكن الأول فى ذلك حيث سبقة الخليفة المأمون [2] ، وقام المعتصم بجلب جموع من الأتراك من بلاد ما وراء النهر ، لكى يعملوا فى الجيش وإدارة الولايات التابعة له ، ومن أشهر هؤلاء الأتـراك أشناس الذى ولاه المعتصم مصر سنة 219 هـ [3] ، بيد أنـه لـم يكـن للأتراك ما كان للفرس من حضارة عريـقة أصيلة ، حيث كانت حضارتهم فى الأصل حضارة بدوية بدائية [4] .

وربما الذى دفع المعتصم إلي أن يخطوا مثل هذه الخطوة كون أمه ماردة تركية ، مما أدى إلي تعرفه عليهم بشكل كبير ، إلا أن المرجح هو أن الذى دفعه إلي هذه السياسة ، هو أختلال التوازن بين عناصر الدولـة العباسية من الخراسانيين والعرب ، فبعد انتقال الخليفـة المـأمون مـن مـرو، وبعد نكبة بنى سهل ، ظهـرت أسـتحالة التوفيـق بـين آمـال

---

(1) المعتصم : هو محمد بن هارون الرشيد ويكنى أبا إسحاق وأمه ماردة ، يقال لـه الثمانى ؛ حيث ولـد فى الشهر الثامن من سنة 178 هـ ، وهو ثامن الخلفاء ، وفتح ثمانية فتوح ، وكان له ثمانية بنين وثمان بنات ، مات وعمره ثمانية وأربعين سـنة ، وخلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر ويومين ، للمزيد أنظر : البغدادى ، تاريخ مدينـة السلام ، تحقيق : بشار عواد معروف ، بيروت 2001 ، ص 548.

(2) المأمون : هو عبد الله بن هارون الرشيد ، بويع عام 198 هـ ، وكان شـهماً ، بعيد الهمة ، أبى النفس ، وكان نجم ولد العباس فى الحكمة والعلـم ، وكانـت أمـه خراسانية تسمى مراجل ، للمزيد أنظر : الدينورى ، الأخبار الطوال ، تحقيـق : عبـد المنعم عامر ، بغداد 1959 ، ص 400.

(3) الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : على حبيبـة ، القـاهرة 1967 ، ص 416.

(4) نادية حسن صقر ، مطلع العصر العباسى الثانى ، جدة 1983 ، ص 12.

الخراسانيين وبين مصالح العباسيين ، فالتجأ المعتصم إلي هـذا العنصـر الذى يثق به ليجعل منه الركن العسكرى للدولة [1] .

وقد ساعدت تلك السياسة على تقوية حركة نشـر الإسـلام فـى المناطق المتاخمة لإقليم مـا وراء النهر ، حيث كان الخليفة المعتصم ومن قبلة المأمون يرسلان إلي تلك النواحى رسلهم تعرض الإسلام على قـادة الترك وعلى أبناء ملوكهم كما كانت تعرض عليهم الدخول فـى الجنديـة والنزوح إلي أرض الإسلام ، فدخل فى الإسلام وقتئذ خلق كثير ، ولكـن يجب أن نشير إلي أن الدافع لتلك السياسة لم يكن بأى حال من الأحـوال لنشر الإسلام ، وإنما كان الدافع الحقيقى أكتساب التـرك ، حيـث كـان أكتساب قلوبهم أجدى من أتخاذ الحصون وشحنها بالحاميات العسكرية [2].

لذا تزايدت أعداد الأتراك فى عهد المعتصم حتى قيل أنه كان يجمع الغلمان الأتراك قبل أن يصبح خليفة ، وعندما أعتلـى كرسـى الخلافـة تزايدت أعدادهم إلي درجة أن وصلوا إلي سبعين ألف تركى ، ونستشـف ذلك من قول أحد الشعراء قائلاً :

أمامى من له سبعون ألفاً . . . من الأتراك مسرعة السهام [3]

وبذلك أستغنى المعتصم عن جيوش العرب ، حتى أنه أسقطهم من الدواوين ، وتعاظم دور الأتراك الفراغنة والأشروسية ، ولكنهم أثاروا له العديد من المشاكل فى العاصمة بغداد ، لذلك قرر أن يتخلـى عـن هـذه المدينة العريقة ، ويبنى لجنوده مدينة جديدة تستوعب السياسة الجديدة ،

---

(1) عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، بيروت 1997 ، ص 177 ؛ محمـد عبده ، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، القاهرة 1966 ، ص 112.

(2) السيد عبد العزيز سالم ، العصر العباسى الأول ، الجـزء الثالـث ، الإسـكندرية 1993، ص 210.

(3) الأربلى ، خلاصة الذهب المسبوك ، القدس 1885 ، ص 162.

ألا وهى مدينة سامراء (سر من رأى) التى أسسها سنة 221 هـ على الجانب الشرقى من نهر دجلة [1] .

ولكن هذه العناصر التركية أخذت تتحكم فى زمام الأمور بعد الخليفة المعتصم ، حيث أن الخليفة الواثق [2] لم يكن بنفس حزم سلفه من الخلفاء ، مما أدى إلي أستغلال الأتراك الفرصة وأستولوا على أكبر المناصب وصار منهم أكثر الولاة والعمال [3] ، وأصبح أشناس هو المدير الأول والأخير للدولة ، وتلقب بلقب سلطان ، وبدأنا نسمع عن الخلفاء النوادب التى تثير الحزن من ربضته ، وتبعث الوجد من رقدته ، بصوت كترجيع الطير ، وتقطع أنفاس المآتم ، وتترك صدعاً فى القلوب الجلامد [4] .

وعندما جاء الخليفة المتوكل [5] ، حاول أن يتخلص من هؤلاء الأتراك ، فرأى أن يحدث انقلاباً سياسياً فيتحول من سياسة الاعتماد على

---

(1) محمد نصر مهنا ، الفتوحات الإسلامية والعلاقات السياسية فى آسيا ، الإسكندرية 1990 ، ص 170 ؛ قصى حسين من معالم الحضارة العربية الإسلامية ، بيروت 1993 ، ص 19.

(2) الواثق : هو ابو جعفر هارون الواثق بالله ابن المعتصم ، ولد فى شهر شعبان سنة 196 هـ ، تولى الخلافة صبيحة اليوم الذى توفى فيه ابوه سنة 228 هـ ، وكان أبيض إلي الصفرة ، حسن الوجه جسيماً ، توفى بسامراء سنة 232 هـ بسبب مرض الأستسقاء ، للمزيد أنظر : أبن عبد ربه ، العقد الفريد ، الجزء الخامس ، تحقيق : مفيد محمد ، بيروت 1983 ، ص 378.

(3) عصام الدين عبد الرؤوف ، دراسات فى تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة 2001 ، ص 194 ؛ عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، القاهرة 1966 ، ص 6 ؛ محمود شاكر ، التاريخ الإسلامى ، الجزء الخامس ، بيروت 1991 ، ص 49.

(4) صقر ، العصر العباسى الثانى ، ص 59.

(5) المتوكل : هو ابو الفضل جعفر بن المعتصم ، تولى الخلافة سنة 232 هـ ، وقتله ابنه المنتصر سنة 247 هـ لانه بايع اخاه المعتز من دونه ، وكان أسمر نحيفاً ، مليح

الأتراك إلي الاعتماد على العنصر العربى ، فأنشأ فرقة عسكرية عربية وضم إليها المرتزقة والمتطوعة ، ثم رحل إلي دمشق العاصمة الأموية القديمة لتكون مقراً لخلافته ، ولكنه فشل فى محاولة الانقلاب لعدة أسباب منها أن الأتراك دبروا مؤامرة لاغتياله ، أضف إلي ذلك أن العنصر العربى أصبح ضعيفاً بحيث لا يمكن الاعتماد عليه [1] ، كما أن الأتراك ثاروا عليه لنقل عاصمته ، وأجبروه على العودة إلي سامراء ، فرجع متحججاً بحجة أن هواء دمشق لم يعجبه [2] .

ومن هؤلاء القواد الأتراك الذين برزوا فى عهد المتوكل ايتاخ ، ولكن المتوكل لم يكن يطيق خضوعه له ، ورأى التخلص منه ، فأمره بالتوجة إلي بغداد ، وهناك قبض عليه وسجنه ، وكان طعامه رغيفاً واحداً من الخبز وقدحاً من الماء ، فلم يتحمل ايتاخ ذلك فمات وأنطلق بعيداً بغير زاد ، إلي ملك عدل بغير حجة ، ودخل قبراً موحشاً بغير مؤنس [3] .

وبسبب محبة المتوكل لزوجته قبيحة [4] رأى أن يقدم ابنه المعتز منها على أخويه المؤيد والمنتصر ، فلم يرضى بذلك المنتصر ، ودبر مؤامرة مع الأتراك لإغتيال أبيه . ونجحت المؤامرة لأن الأتراك اوجسوا

العينين ، وهو الذى أحيا السنة وأمات التهجم ، وكانت به عيوب فادحة ، منها الأنهماك على الملذات والتبذير ، للمزيد أنظر : الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، الجزء الأول ، تحقيق : ابو هاجر محمد السعيد ، بيروت 1987 ، ص 353.

(1) صقر ، العصر العباسى الثانى ، ص 13.

(2) إبراهيم أيوب ، التاريخ العباسى السياسى والحضارى ، بيروت 1989 ، ص 105.

(3) صقر ، العصر العباسى الثانى ، ص 65.

(4) قبيحة : هى جارية الخليفة المتوكل ، وأم ولده المعتز ، وكان المتوكل سماها قبيحة لفرط حسنها وجمالها وقدها واعتدالها ، ويشير البعض أنها سميت بهذا الأسم لأنها رفضت أن تعطى أبنها الأموال عندما عجز عن دفع المرتبات للجند الترك ، مما أدى إلي أن قتلوه ، فسميت بقبيحة ، للمزيد أنظر : خليل بدوى ، موسوعة شهيرات النساء ، الأردن 1998 ، ص 202.

خيفة من نوايا المتوكل تجاههم ، والتفوا حول بغا الصغير وباغر التركى ، ونفذوا جميعاً ما اتفقوا عليه مع المنتصر فقتلوا المتوكل فى سنة 247 هـ [1] ، ويذكر أبن طباطبا : " واستولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على الخلافة ، فكان الخليفة فى أيديهم كالأسير أن شاءوا أبقوه ، وأن شاءوا خلعوه ، وأن شاءوا قتلوه " [2] .

وما أن نجحت مؤامرة قتل المتوكل التى دبرها الأتراك بالإشتراك مع أبنه محمد المنتصر حتى بويع بالخلافة فى سنة 247 هـ ، ويبدو أنه ندم على تعاطفه مع الأتراك ضد أبيه ، وتكفيراً لفعلته تلك أخذ يسبهم ، ويردد قائلاً : " هؤلاء قتلة الخلفاء " ، وثأراً لأبيه أقدم على قتل الفتح بن خاقان بحجة أنه قتل المتوكل [3] ، ولكن لم تطل حياة المنتصر لينعم أو ليشقى حيث قتل سنة 248 هـ .

وقال أحد الشعراء يصف تلك الحالة :

خليفة مات ، لم يحزن له أحد . . . وآخر قام ، لم يفرح به أحد

فمر ذاك ومر الشؤم يتبعه . . . وقام ذا فقام النحس والنكد [4]

وفى ظل هذه الظروف السيئة التى كانت تمر بها الدولة العباسية ظهر أحمد بن طولون على سطح الأحداث الدولية آنذاك ، والذى قدر له أن يلعب دوراً هاماً وخطيراً فى مجريات الحياة السياسية فى الخلافة العباسية .

---

(1) أيوب ، التاريخ العباسى ، ص 107 ؛ أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى ، الجزء الثالث ، القاهرة 1984 ، ص 195.

(2) الفخرى فى الآداب السلطانية ، تحقيق : محمد عوض إبراهم ، بيروت 1966، ص 220.

(3) أيوب ، التاريخ العباسى ، ص 107.

(4) أحمد علبى ، ثورة الزنج وقائدها على بن محمد ، بيروت 2001 ، ص 60.

ابتداء حال أحمد بن طولون :

أجمع الباحثـــون على أن أحمد بن طولون تركى مستعرب ولد سنة 220 هـ في بغداد [1] ، ولكن ابن خلكان يذكر أنـــه ولد فـــى ســـامراء ، وهذا يشير إلي خلط فى المواقيت والأماكن عند ابن خلكـــان ، حيـــث أن مدينة سامراء بُنيت سنة 221 هـ ، أى بعد ميلاده بعام [2] .

وكان ابوه طولون تركياً من قبيلة تسمى الطغزغز ، حمله نوح بن أسد السامانى [3] حاكم سمرقند [4] إلي الخليفة المأمون ســنة 200 هـــ ضمن جملة الرقيق والجزية التى كان يرسلها سنويا للخلافة ، ولما كـــان طولون مستوفياً لكل ما يلزم رجل الإدارة من عقل وذكاء وكياسة ، فإنـــه شغل مناصب رفيعة فى بغداد وسامراء [5] ، ثم تزوج من هاشم – أو قاسم

(1) خير الدين الزركلى ، الأعلام ، بيروت ، 1980 ، ص 140 ؛ بسام عبد الوهـــاب الجابى ، معجم الأعلام ، دمشق 1986، ص 44 ؛
Bernard Lewis, The Arabs in history, New York 1950, p. 96.

(2) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، الجزء الأول ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت 1968 ، ص 174.

(3) نوح بن أسد السامانى : ينتسب إلي أسرة فارسية عريقة فى المجد يرجع أصـــلها إلي بهرام جوبين ، وأسلم جده سامان على يد أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان، فسمى أبنه أسد تبركاً به ، ثم ظهر أولاد أسد بن سامان فى عهد الخليفـــة المـــأمون ، فولى نوح سمرقند سنة 204 هـ وبقى حاكمها إلي أن توفى سنة 228 هـ ، للمزيـــد أنظر : بدر عبد الرحمن محمد ، الحياة السياسية ومظـــاهر الحضـــارة فـــى العـــراق والمشرق الإسلامى ، القاهرة 1989 ، ص 115.

(4) سمرقند : تقع على بعد مائة وخمسين ميلا شـــرقى بخـــارى ، للمزيـــد أنظـــر : لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس ، بغداد 1954 ، ص 506 .

(5) أحمد السعيد سليمان ، تـــاريخ الدول الإسلامية ، القاهرة 1969 ، ص 128 ؛ بكر محمد إبراهيم ، الـــدولة العباسية ، القاهرة 2002 ، ص 222.

- التى أنجب منها أحمد ، ويذهب البعض إلي أنه تبناه [1] ، وأنه كان ابن يلبخ التركى - أو مليح التركى - ولكن هذا الـرأى خـاطئ ، حيـث أن الموفق لما لعنه نسبه إلي طولون ولم ينسبه إلي يلبخ ، كما أن يلبخ كان شاعراً يتغنى بالشعر التركى ، وكان مضحاك يسُـخر منـه ، وطولـون معروف بالستر [2] .

نشأ أحمد بن طولون نشوءاً جميلاً غير نشوء بقية الأتراك ، حيث كـان بعيد الهمة ، وحسن الدين ، يتميز بالذهاب بالنفس عما كانت تسف إليه طبقته ، وطلب الحديـث وحـب الجهاد ، وكان حسن الصوت ومحباً لقراءة القرآن الكـريم ، وكان دائماً يعيب على أولاد الترك ما يرتكبونـه من محرمات [3] .

ويقال أن أحمد كان ماراً فى إحدى المرات فى دهاليز قصر أبيه ، فوجد حظية من حظايا أبيه وهى على فاحشة مع أحد الخدم ، فمـر ولـم يذكر لأبيه شئ ، فخافت الحظية أن يكون أحمد سبقها إلي أبيه ليخبره بما حدث ، فذهبت إلي طولون وقالت له أن أبنه أحمد قد راودها عن نفسها ، فوقع فى نفسه صدقها ، فاستدعى أحمد وكتب معه كتاباً ، وختمـه إلـى بعض الأمراء ، ولم يواجه أحمد بشئ مما قالت الحظية ، وكان فى الكتاب " أن ساعة وصول حامل هذا الكتاب إليك تضرب عنقـه وابعـث برأسـه سريعاً إلي " فذهب أحمد بالكتاب وهو لا يدرى ما فيه . فمر بطريقه بتلك الحظية فاستدعته إليها ، فقال : "إنى مشغول بهذا الكتاب لأوصـله إلـى

(1) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، الجزء السادس ، تحقيق : س . ديدرينغ . بيـروت 1992 ، ص 431.

(2) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقـاهرة ، الجـزء الثالـث ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، بيروت 1992 ، ص 5.

(3) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق : محمد كرد على ، القاهرة 1988 ، ص 34.

بعض الأمراء " ، قالت : " هلم ، فلى إليك حاجة " ، حيث أنهـا أرادت أن تتحقق مما قاله لأبيه ، فحبسته عندها ، ليكتب لها كتابا ، ثم سرقت مـن أحمد الكتاب الذى أمره طولون أن يوصله ، وأعطته للخادم الذى كان معها على الفاحشة حيث ظنت أن به جائزة ، فذهب بالكتاب إلي ذلك الأميـر ، فلما قرأه أمر بضرب عنق ذلك الخادم ، وأرسل برأسـه إلـي طولـون ، فتعجب طولون من ذلك وقال : " أين أحمد ؟ " فقال له : " ويحك ، أخبرنى كيف صنعت ، منذ خرجت من عندى ؟ " فأخبره بما جرى من الأمر ولمـا سمعت تلك الحظية ، بأن رأس الخادم قد أتى بها إلي طولون ، توهمت أن طولون قد تحقق الحال ، فذهبت إليه تعتذر ، وتستغفر ، مما وقع منها مع الخادم ، واعترفت بالحق ، وبرأت أحمد ، مما نسبته إليه ، فزادت مكانته عند أبيه [1] .

مضى ابن طولون فى حياته تلك إ،فبعد أن اكتمل شبابه كانت قـد أكتملت خصاله ووضحت صفاته ، وتدرب على فنون القتال وشجاعة فـى الحرب واللقاء ثم ثقافة دينية عميقة ، ثم دهاء وبعد نظـر ، وهـو أمـر غريب عن سنه وبيئته وطبقته [2] .

وتوفى أبيه طولون سنة 240 هـ ، فانتقل أحمد إلي رعاية رفقاء أبيه ، حتى ثبتت مرتبته وتصرف فى خدمة السلطان ، فانتشـرت أخبـار حسن خلقه وشدة تدينه ، مما زاد شأنه فى قلوب الأولياء حتى كان محله عندهم محل من يؤتمن على الأسرار والأموال والفروج [3] .

(1) ابن كثير ، البداية والنهاية ، الجزء الحادى عشـر ، تحقيـق : أحمـد شـعبان ، القاهرة 2003 ، ص 39.

(2) حسن أحمد محمود ، حضارة مصر الإسلامية فى العصـر الطولـونى ، القـاهرة 1990 ، ص 24.

(3) ابن سعيد الأندلسى ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق : زكى حسـن ، القـاهرة 1953 ، ص 74.

وكان أحمد يكره الترك كره شديد ، ويستصغر عقولهم وآدابهم ، وكان يرى أنهم أغتصبوا ما لا يستحقون ، وأن حرمة الدين بهم مهتوكة ، وفرائضه معطلة ، ففضل أن يترك كل هذا ، وعرض على صديقه أحمد بن محمد بن خاقان أن يطلبا من الوزير عبيد الله بن خاقان أن يعين لهم رزقاً فى طرسوس [1] ، وبالفعل وافق الوزير ، وذهبا إلي طرسوس فأصبحوا فى ثواب دائم عن طريق جهاد العدو ، وعن طريق إتصاله بمن فيها من محدثين وعلماء [2] .

نعود مرة أخرى للحديث عن الخلفاء الضعاف ، فكما مر بنا من قبل أن الخليفة المنتصر خلف أبيه المتوكل فى الخلافة بعد أن دبر مقتله مع الأتراك ، وأنه ثار على الأتراك وكان يردد " هؤلاء قتلة الخلفاء " ، ويجب أن نشير إلي أنهم أغروا به طبيبه ابن طيفور ، ودفعوا له مبلغاً كبيراً من المال ، ففصده بريشة مسمومة ، فمات بعد أن حكم ستة أشهر من خلافته [3] .

وأعتلى المستعين [4] كرسى الخلافة المضطرب ، الذى شاءت الأقدار أن يتقرب أحمد بن طولون منه ، حيث أن أحمد قرر أن يترك طرسوس ويعود إلي سامراء ، لأن أمه كانت تبكى عليه ، وتوهمت أنه

---

(1) طرسوس : طرسوس كلمة عجمية رومية ، وهى مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم ، طول طرسوس ثمان وخمسون درجة ونصف ، وعرضها ست وثلاثون درجة وربع ، للمزيد أنظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت 1957 ، ص 28.

(2) ابن سعيد ، المُغرب ، ص 74.

(3) أحمد مختار العبادى ، التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت 1992 ، ص 124.

(4) المستعين : هو أحمد بن محمد بن المعتصم ، ويكنى أبا عبد الله ، وكانت أمه تسمى مخارق ، بويع فى اليوم الذى توفى فيه المنتصر ، وكان ضعيفاً لا يقوى على مواجهة الأتراك ، وكان مسمناً ، حسن الوجة أسود اللحية ، لين الجانب ، للمزيد أنظر: المسعودى ، التنبية والإشراف ، بيروت 1993 ، ص 331.

هلك في طرسوس ، كما أن الفقهاء أقروا له أنه لا يصح له أن يبقى إذا كان له أهل قد تركهم ، أضف إلي ذلك إلحاح صديقه أحمد بن محمد بن خاقان على العودة [1] ، ولكن المرجح أنه رجع عقب مقتل المنتصر ليكون على مقربة من الأحداث .

وفي طريق عودة أحمد بن طولون إلي سامراء ، التقى بقافلة راجعة من بلاد الروم محملة بالهدايا والأموال للخليفة ، فانضم أحمد ومن معه إليها وكان عددهم حوالى 500 رجل ، ولكن جماعة من الأعراب هاجمت تلك القافلة وحاولت الاستيلاء عليها ، ولكن أحمد كان لهم بالمرصاد ، فوضع السيف فيهم حتى فروا جميعاً ، ووصلت القافلة بسلام إلي سامراء [2] .

أعُجب الخليفة المستعين بأحمد بن طولون ، وأرسل إليه بألف دينار سراً ، تقديراً لشجاعته ، وأخبره أنه لولا خوفه عليه من حسد أقرانه لقربه إلي جواره ، ورغم هذا فقد توالت على أحمد صلات المستعين وعطاياه التى كان من بينها جارية تدعى مياس رزق منها بأبنه خمارويه ثانى أبناءه بعد العباس ، الذى رزق به من خاتون أبنة أحد قواد الأتراك ويدعى يارجوخ [3] .

ولكن الخليفة المستعين كان ضعيفاً ، تحكم فيه الأتراك ، وتغلبوا عليه وأستولوا على الأمر والنهى ، فخرج مغاضباً إلي بغداد تاركاً سامراء، فتوجهوا إليه يعتذرون ويسألونه الرجوع ، لكنه رفض الاستجابة لهم ، فقاموا بالذهاب إلي السجن وأخرجوا المعتز بالله وبايعوه بالخلافة ، فحاصر المعتز المستعين ببغداد ، فتهيأ المستعين ونائب بغداد ابن طاهر للحرب ، وبنوا سور ببغداد ، ولكن الدائرة دارت على المستعين ، وتخلى

(1) ابن سعيد ، المُغرب ، ص 74.

(2) أحمد عبد الرزاق أحمد ، تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، القاهرة 1999 ، ص 88.

(3) عبد الرزاق ، مصر الإسلامية ، ض 88.

عنه أتباعة ، ووقع الكثير من القتلى بين البغاددة ، فاتفق الطرفان على أن يخلع المستعين نفسه من الخلافة [1] .

وفى سامراء اجتمع الناس بالمسجد الجامع ، وحضر القضاة ، وتم إحضار المستعين فقال له القاضى ابن ابى الشوارب : " يا أمير المؤمنين أشهد عليك بأنك قد خلعت نفسك من جميع ما كنت تتولاه من أمور المسلمين ، وإنك قد بايعت ابن عمك أبا عبد الله الزبير بن المتوكل على الله " ، قال : " نعم اشهد علي بذلك " . فقال له القاضى : " خار الله لك أيها الأمير " [2] . وسلم إليهم القضيب والبردة وتم نفيه إلي واسط [3] ، بعد أن سألوه عمن يريد أن يرافقه ، فأختار أحمد بن طولون [4] .

وفى واسط أحسن أحمد بن طولون معاملة المستعين ، فاطلق له التنزه والصيد ، كما كره أن يلحقه ويراقبه احتشاماً منه ، فألزمه أحمد بن محمد الواسطى كاتبه ، وكان غلاماً جريئاً ، حسن الشاهد ، حاضر النادرة ، فأنس به المستعين غاية الأنس ، وشكر لأحمد هذا المعروف [5].

خاف أتباع الخليفة المعتز من أن يقوم المستعين بأى حركة إنتقامية ، فذهبوا إلي قبيحة أم المعتز ، وخوفوها من المستعين ، فقوى الخوف فى نفسها ، وأستقر رأيها ورأى الأتراك على التخلص منه ،

---

(1) ابن عماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الجزء الثالث ، تحقيق : محمد الأرناؤوط ، دمشق 1986 ، ص 236.

(2) ابن العمرانى ، الإنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق : قاسم السامرائى ، القاهرة 1999 ، ص 126.

(3) واسط : مدينة بين الكوفة والبصرة من الجانب الغربى ، كثيرة الخيرات وافرة الغلات تشقها دجلة ، كلها بساتين وقصور ومياه ، للمزيد : القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت 1995.

(4) ابن دحية ، النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، تحقيق : مديحة الشرقاوى ، القاهرة 2001 ، ص 81.

(5) البلوى ، ابن طولون ، ص 39.

فبعثت إلي أحمد بن طولون تقول : " إذا قـرأت كتـابى فجئنـى بـرأس المستعين ، وقد قلدتك واسط " [1] ، فغضب أحمد من هذا ورد قائلا : "والله لا يرانى الله عز وجل أقتل خليفة له فى رقبتـى بيعـة وأيمـان مغلظـة أبداً "[2] .

لكن الأتراك لم يفقدوا الأمل ، حيث أرسلوا شخصـاً آخـر فاقـد الضمير ، ألا وهو سعيد بن صالح الحاجب [3] ، الذى تحين فرصة غيـاب أحمد بن طولون عن المستعين ، فدخل عليه ، فلما رأه المسـتعين تـيقن موته وبكى وقال : " ذهبت والله نفسى " ، فوقع فى يد سـعيد المـذكور وقطع رأسه ، ومات المستعين فى الحادية والثلاثون من عمرة ، ولما رآه ابن طولون بكى عليه بكاءاً شديداً وغسله ثم دفنه وعاد إلي سامراء [4] .

أحمد بن طولون فى مصر :

قبل أن نناقش كيفية دخول أحمد بن طولون إلي مصـر وتوليتـه أمرها ، يجب أن نتحدث فى عجالة عن أهم الولاة الأتراك الـذين حكمـوا مصر وسياستهم فى إدارة شئونها ، وأوضاع مصر تحت حكمهم .

أتسمت سياسة حكم الولايات فى هذا العصر بظاهرة إدارية سيئة ، حيث كان الخليفة يعين أحد الموالى أو الأتراك ليتولى أمر الولاية ، فيقوم هذا الوالى بدوره بإرسال نواب عنه إليها ، ويفضل البقاء بجوار الخليفـة حتى يأمن قيام أى مؤامرة ضده ، وبـاتوا لا يعرفـون غيـر أطمـاعهم

---

(1) محمد ماهر حماده ، الوثائق السياسـية والإداريـة العائـده للعصـور العباسـية المتتابعة، القاهرة 1985 ، ص 330.

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 40.

(3) ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، تحقيق : نبيل محمد عبد العزيز ، المجلد الأول ، القاهرة 1997 ، ص 163.

(4) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، بيروت 1992 ، ص 332.

الخاصة، ولا يبالون أية سبيل يسلكون ، كما أنه لم يكن يرسل نائباً واحداً ينوب عنه فى حكم الولاية ، بل كان يرسل العديد من النواب حتى لا ينفرد أحد بالسلطة [1] .

وكان أشهر الأتراك الذين حكموا مصر فى هذا العصر هم أشناس وايتاخ والفتح بن خاقان ، وقد قام كل فرد فيهم بتعيين الكثير من النـــواب عنهم لحكم البلاد ، وعندما أعتلى المعتز كرسى الخلافـــة ، ولـــى مصـــر لمزاحم بن خاقان أحد مقدمى الترك سنة 253 هـــ ، وكان طاغية جباراً ، فولى الشرطة أزجوز التركى ، وكان أرجوز أشد ويلاً وأكبر عسفاً وجوراً فأكثر من الارهاب والتهديد وبالغ فى إيذاء الناس [2] .

ومرض مزاحم بن خاقان ، ومات فى شهر محرم سنة 254 هـــ ، فخلفه أزجور إلي أن قام الخليفة المعتز بتولية باكباك على مصر ، وكـــان باكباك زوج أم أحمد بن طولون ، حيث أنها تزوجت من بغا الأصغر ، ثـــم من باكباك [3] ، وآثر باكباك كما آثر بقية هذا الصنف مـــن الولاة أن يبقى بجوار الخليفة ، وفكر فى من ينوب عنه فى مصر ، فنصحة الجميع بهذا الشاب الذى ظهر عنه حسن السيرة وطيب السريرة ، ألا وهو أبن زوجته أحمد بن طولون [4] .

---

(1) عمر الاسكندرى ، تاريخ مصر إلي الفتح العثمانى ، القاهرة 1996 ؛ إبراهيم الأبيارى ، أبو المسك كافور ، القاهرة 1962 ، ص 21.

(2) ميخائيل شاروبيم بك ، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، الجزء الثانى ، القاهرة 2004 ، ص 243.

(3) عبد الرازق ، مصر الإسلامية ، ص 88.

(4) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، المجلد السادس ، تحقيق : أبى الفـــداء عبـــد الله القاضى ، بيروت 1987 ، ص 195 ؛ ابن خلدون ، تاريخ أبن خلدون ، الجزء الثالث ، تحقيق : خليل شحادة ، بيروت 2000 ، ص 368 ؛ الصديقى ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، تحقيق : عبد الرزاق عيسى ، القاهرة 1998 ، ص 92.

فدخل أحمد بن طولون مصر عام 254 هـ والطموح يغمره ، لينوب عن باكباك فى حكمها ، ليبدأ بذلك عصر جديدة فى تاريخ مصر ، الا وهو عصر الدولة الطولونية .

كما سبق وأن أشرنا أن أحمد بن طولون دخل مصر عام 254 هـ نائباً عن باكباك ، فنزل الفسطاط وبدأ يباشر أمور الولاية ، ولكن فى الواقع لم يكن سلطانه يتجاوز مدينة الفسطاط ، فالوالى لم يكن ينيب عنه شخص واحد لإدارة الولاية ، بل أكثر من شخص ، فكانوا على الأعمال يسيطرون وفى غير مصالحهم لا يبالون ، والشعب صابر يتحمل البلبلة الكبيرة التى أحدثوها ، فكان هناك أحمد بن المدبر على الخراج ، وشقير غلام قبيحة على البريد [1] ، والإسكندرية كانت تابعة لإسحاق بن دينار ، وبرقة كانت بيد أحمد بن عيسى ، كما كان هناك القاضى بكار بن قتيبة[2].

ودخول أحمد مصر فى هذه الفترة ، كان يعد الحد الفاصل بين نظام الولاية القائم على كثرة تغيير الولاة ، والفوضى والإضطرابات ، وبين نظام الولاية القائم على الوراثة ، فأحمد بن طولون لم يكن ممن يرضون هذا الذى رضيه الناس ، وأراد أن ينفرد بحكم مصر ، فبدأ التنافس بينه وبين هؤلاء الرجال وأصبحت الحرب بينهم سجال ، وظهرت حنكته فى

---

(1) البريد : يعد معاوية بن ابى سفيان هو أول من وضع نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، وكان يُستخدم لتوصيل الأخبار للخلافة من الولايات ، وكان عمله مقصوراً على طلبات الدولة ، وليس للأفراد ، وأصل كلمة بريد مجهول ، حيث يذهب البعض إلي أنها مأخوذه من كلمة Veredus اللاتينية ، بينما يقول البعض أنها مأخوذه من بريدة دم ومعناها مقصوص الذيل فى الفارسية ، حيث كان الفرس يقصون ذيل خيل البريد ، للمزيد أنظر : عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة 1963 ، ص 37.

(2) حامد غنيم أبو سعيد ، عصر الدول الاقليمية ، القاهرة 1970 ، ص 193 ؛ صابر محمد دياب ، تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، القاهرة 1976 ، ص 151.

التخلص منهم ، فلم يكن عندها هيناً أمرهم ، فكل فرد منهم كان لـه مـن يسانده فى بلاط الخليفة [1] .

صراعه مع أحمد بن المدبر عامل الخراج :

كان ابن المدبر قد بدأ حياته فى وظائف الدولة فى عهد الخليفة الواثق ، وتقدم سريعاً فى الأعمال المالية ، وعين عام 240 هـ عاملاً على الخراج فى حمص ، ثم جاء إلي مصر عاملاً على الخراج فى عام 247 هـ فى عهد الوالى يزيد بن عبد الله ، وكان يُعرف بالجشع وحب المال ، وكان يجمع الأموال لصالحه ويرسل الرشاوى والهدايا إلي الحكومة المركزية فى بغداد [2] .

وقد فرض على المصريين الكثير من الضرائب حيث فرض الضرائب الخراجية ، وهى التى تجبى كل سنة ، كما فرض ضرائب هلالية وهى التى تجبى كل شهر ، كما فرض ضريبة تسمى المراعى على الكلأ ، أضف إلي ذلك أنه فرض ضريبة على كل ما يستخرج من البحر سماها المصايد ، واغتصب ثروات الأغنياء ، وأحاط بالنطرون بعدما كان مباحاً لجميع الناس [3] ، كما أنه أثقل كواهل القبط بالضرائب " حتى أن الإنسان الفقير الذى يعجز قوته ، يأخذ منه فى كل سنة ، خمسين درهماً حتى ضجت أهل مصر وأعمالها من عظيم هذا العذاب ، وجحد كثير من النصارى لأجل قلة ما بأيديهم من الدراهم " [4] .

---

(1) محمود محمد الحويرى ، مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة 1996 ، ص 103؛ عبد العزيز سبيمان ، تاريخ مصر الإجتماعى ، القاهرة 1988 ، ص 101.

(2) سيدة إسماعيل كاشف ، أحمد بن طولون ، القاهرة 1965 ، ص 48 .

(3) سيدة إسماعيل كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة 1994 ، ص 58.

(4) ابن المقفع ، سير الآباء البطاركة ، المجلد الأول ، القاهرة 1943 ، ص 6.

وأراد ابن المدبر أن يهدم أبواب من حجارة شرقى حصن الفرما لتُحمل لبناء داره ، فلما هدم منها حجرين خرج إليه أهل الفرما بالسلاح ، فمنعوه من فعل ذلك ، وقالوا له : هذه الأبواب التى قال يعقوب عليه السلام لبنيه " لا تدخلوا من باب واحد وأدخلوا من أبواب متفرقة " [1] ، فأمسك ابن المدبر عن الهدم [2] .

وكان ابن المدبر يعيش فى القصور ، بينما أبناء النيل يعيشون فى الجحور ، وكان قد أثري ثراءاً فاحشاً ، الأمر الذى لفت انتباه أحمد بن طولون عند توليته مصر ، كما كان له حرس شخصي مكون من مائة غلام أشداء وبأيديهم مقارع غلاظ ، وكانت له بهم هيبة شديدة فى قلوب المصريين ، حيث كان الناس حصيدى سيوفهم وطريدى خوفهم ، فيحضون الناس على الألفة والطاعة ، ويحذروهم من المعصية ومفارقة الجماعة [3] .

وفور وصول أحمد بن طولون إلي مصر ، هرع ابن المدبر إليه حاملاً الهدايا والأموال التى وصلت قيمتها إلي عشرة الآف دينار ، يمكن أن نعتبرها كرشوة ليتعرف على شخصيته ، ولكن أحمد بن طولون رفض أخذها منه وأمر بردها ، مما أثار قلق ابن المدبر وشقير ، فاسرعا بإرسال الكتب إلي الحكومة المركزية ، يخوفون المسئولين من أحمد بن طولون[4].

---

(1) سورة يوسف : 67.

(2) ابن زولاق ، فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، تحقيق : على محمد عمر ، القاهرة 2000 ، ص 58.

(3) صبحى عبد المنعم ، تاريخ مصر السياسى والحضارى من الفتح حتى نهاية عهد الأيوبيين ، القاهرة 1999 ، ص 62.

(4) رزق الله منقريوس الصرفى ، تاريخ دول الإسلام ، الجزء الأول ، بيروت 1986 ، ص 264 ؛ أحمد صبحى منصور ، شخصية مصر . القاهرة 1984 ، ص 42.

ولكن أحمد بن طولون أرسل إليه قائلا : " قد كنت أعزك الله ، أهديت لنا هدية وقع الاستغناء عنها فلم نجز تغنم مالك ، كثره الله ، فرددناها توفيراً عليك ، وأحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك ، فأنا إليهم أحوج منك " [1] ، فما كان من ابن المدبر إلا أن تنازل عنهم فى الحال لأحمد بن طولون ، فقلت هيبته بين الناس .

وبدأ النزاع بين الطرفين يقوى ويشتد ، ولم تكن قوته فى صراع الرجلين فى مصر فقط ، وإنما وصل الصراع بينهم إلي دار الخلافة حيث كان لكل واحد منهم سند فى بلاط الخليفة ، يدعم قوته ويشجعه على التخلص من الآخر ، فلم يفقد الأول الأمل ، ولم يطرح الثانى الوجل ، وتخلق ابن طولون بالصبر والمكر والاجتهاد والأناة والحذر ولكل منها ثمرة ، فثمرة المكر الظفر ، وثمرة الإجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليُمن وثمرة الحذر السلامة .

وفى تلك الاثناء قُتل الخليفة المعتز ، وخلفه المهتدى [2] ، ولكن يجب أن نشير إلي أن الدولة الصفارية بدأت تظهر فى الشرق قبل مقتل المعتز ، مما أضعف الخلافة ، وشجع الولاة على محاولة الاستقلال والتنصل من سلطة الخلافة [3] ، أضف إلي ذلك قيام ثورة الزنج التى ساعدت أحمد بن طولون كثيراً فى مشروع استقلاله .

---

(1) البلوى ، ابن طولون ، ص 45.

(2) المهتدى : هو عبد الله محمد بن الواثق ، تولى بعد المعتز ، وقُتل عام 256 هـ ، وكانت خلافته أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً ، وكان موصوفاً بالزهد والعدل ، متحرياً سيرة عمر بن عبد العزيز ، للمزيد أنظر : ابن الجوزى ، تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير ، القاهرة 1975 ، ص 91.

(3) سمير عبد الرزاق القطب ، أنساب العرب ، عمان 1989 ، ص 300 ؛ فاروق عمر فوزى ومحسن محمد حسين ، الوسيط فى تاريخ فلسطين العصر الإسلامى الوسيط ، الأردن 1999 ، ص 98 ؛ سيد أحمد على الناصرى ، الروم والمشرق العربى ، القاهرة 1993 ، 308.

وحاول المهتدى التخلص من نفوذ الأتراك ، لكنهم ثاروا عليه ، إلا أنه تمكن من قتل باكباك ، فحل محله قائد تركى آخر ألا وهو يارجوخ والد خاتون زوجة ابن طولون الذى سبق وأن أشرنا إليه ، فكتب إلي أحمد بمصر قائلاً له : " تسلم من نفسك لنفسك " ، بل الأكثر من ذلك أنه أمر إسحاق بن دينار عامل الإسكندرية بتسليمها إلي أحمد بن طولون ، فزادت مكانته مما أدى إلي أن يقوم ابن المدبر بملاطفة ابن طولون ، ومحاولة التقرب منه علماً بسلطانه [1] .

واستطاع أحمد بن طولون إقناع الخليفة المهتدى بعزل ابن المدبر، وإرسال محمد بن هلال ليتولى أمور الخراج فى مصر ، ولكن ابن المدبر رفض أن يسلم ابن هلال جميع ما كان يتولاه من الأعمال ، فما كان من ابن هلال إلا أن قبض عليه وأودعه فى السجن [2] .

وفى تلك الأثناء قام الأتراك بقتل الخليفة المهتدى ، وذهبوا إلي السجن فى سامراء وأخرجوا المعتمد [3] وبايعوه بالخلافة [4] ، واستطاع ابن المدبر عن طريق أخيه إبراهيم إقناع الخليفة بأن يعيده على خراج

---

(1) البلوى ، ابن طولون ، ص 46 ؛ محمد الخضرى بك ، الدولة العباسية ، مراجعة : نجوى عباس ، القاهرة 2003 ، ص 292 ؛ بطرس البستانى ، موسوعة الحضارة العربية ، المجلد الرابع ، القاهرة 1995 ، ص 569.

(2) حسن أحمد ، العصر الطولونى ، ص 40 ؛ على حسنى الخربوطلى ، مصر العربية الإسلامية ، القاهرة 1963 ، ص 73.

(3) المعتمد : هو أحمد بن جعفر المعتمد على الله ، ولد سنة 229 هـ بسامراء ، كان أسمر رقيقاً خفيفاً لطيف اللحية جميلاً ، توفى سنة 279 هـ ببغداد ودفن بسامراء ، للمزيد أنظر : المكتبى ، فوات الوفيات والذيل عليها ، المجلد الأول ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت 1973 ، ص 64.

(4) حسن عبد الخالق حسن ، الأتراك والدولة العباسية ، القاهرة 1993 ، ص 89.

مصر ، وبالفعل أرسل المعتمد إلي أحمد بن طولون يأمره برد أمور الخراج إلي أحمد بن المدبر [1] .

ولكن ابن المدبر شعر بقوة أحمد بن طولون ، وأيقن عدم جدوى مناطحته ، فأرسل إلي أخيه إبراهيم ، يسأله التصرف له فى خراج أى جزء من الدولة الإسلامية غير مصر ، فاستطاع إبراهيم تقليده خراج فلسطين والاردن ودمشق ، كما أن ابن المدبر زوج إحدى بناته لأبى الجيش خمارويه ابن أحمد ، وخرج إلي دمشق والموت عنده أهون أن يعود ، والعار عالق بساقه الممدود .

وخلفه على خراج مصر أحمد بن محمد بن أخت ابى الوزير أو كما سماه البلوى ابا تراب أحمد بن شجاع سنة 258 هـ ، وأرسل المعتمد إلي أحمد بن طولون يطلب منه جمع الأموال ، فرد عليه قائلا : " إنه لا يستتر ما أحمله من الأموال عن الأولياء ، ولا يخفى على الموالى والمطالبين به ، وفيه تأخر كبير من أرزاقهم ، ولا يتهيأ أيضاً إدرار الحمل والمتابعه به والخراج إلي غيرهم " ، فما كان من المعتمد ، إلا أن أرسل نفيس الخادم بتقليد أحمد بن طولون خراج مصر [2] ، فقام أحمد بن طولون بتعيين ابى أيوب على الخراج وجعل ابن دشومة رقيباً عليه [3] ، وفى عام 267 هـ قام أحمد بن طولون بالتخلص من ابن المدبر فى دمشق وحبسه [4] ، وعندها أطمئنت نفسه وشفى حقده .

---

(1) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الأول ، النجف 1970 ، ص 229.

(2) ابن سعيد ، المُغرب ، ص 84 ؛ محمد أحمد محمد ، الأحداث السياسية فى مصر الإسلامية ، القاهرة 1995 ، ص 120.

(3) محمد أحمد زيود ، العلاقات بين الشام ومصر ، دمشق 1989 ، ص 25.

(4) ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الجزء الثانى عشر ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، بيروت 1992 ، ص 213.

صراعه مع شقير عامل البريد :

اتسمت مهنة عامل البريد فى هذا العصر بصفة التجسس ، حيث كان من مهامه أن يتجسس على الولاة الذين يعينهم الخليفة ونوابهم ، ويرسل بأخبارهم أولاً بأول إليه ، ولم يكن أحمد بن طولون بالشخص الذى يقبل الخضوع لمثل هذا الجاسوس ، لذلك اتخذ كل السبل الممكنة للتخلص من شقير عامل البريد الذى لم يتوقع منه خير ، وحذر من عبث فى الأمر[1] .

قام شقير بالإرسال إلي دار الخلافة يخوفهم من أحمد بن طولون ، ويحذرهم منه ، اعتقاداً منه أن أحمد بن طولون مثله مثل بقية الولاة سيرهب منه ويخضع له ، ولكن أحمد بن طولون كان يمتلك الحيلة ، حيث كان له أحد أصدقاءه المقربين فى بغداد وهو طيفور التركى [2] الذى كان يخبره بكل ما يقال عنه فى بلاط الخليفة .

وبعد مقتل الخليفة المعتز وتولية المهتدى ، أرسل شقير إليه برسائل تدل على ازدياد سلطان أحمد بن طولون فى مصر ، ووجوب خلعه، فكتب الخليفة إلي أحمد قائلاً : " أما بعد فإنا رأينا أن نرد إليك أمر دارنا بالحضرة ، وتدبير مملكتنا ، فإذا قرأت كتابنا هذا فاستخلف على قصرك من أحببت ، والبلد لك وباسمك ، واشخص إلينا لما ندبناك إليه ، ورأيناك أهلاً له ، والسلام . " [3] .

ولكن أحمد بن طولون رأى ببصيرته وأدرك بحكمته أن هذه الدعوة ما هى إلا حيلة للإيقاع به ، فأيقن أن الكلام الرقيق مصايد القلوب، ومنه يستعطف المستشيط غيظاً ، والمندمل حقداً ، فأرسل كاتبه محمد بن

---

(1) إبراهيم أحمد العدوى ، مصر الإسلامية ، القاهرة 1992 ، ص 107.

(2) ابن سعيد ، المُغرب ، ص 93 ، هامش رقم 4.

(3) البلوى ، ابن طولون ، ص 56 – 57.

أحمد الواسطى إلي دار الخلافة محمل بالهدايا والأموال إلي الوزير الحسن بن مخلد حتى يُطفئ جمرة غيظه ، ويسل دفائن حقــده ، وســأله إلغــاء دعــوة أحمد بن طولون إلي الحضرة ، وإرسال أهله إليه فــى مصــر ، فوافق الوزير وقال : " لن نزعجه عن عمله ، ولا يُقبل فيه قول ساع سعى فيه " [1] .

ولما وصل كتاب الوزير إلي أحمد بن طولون ، فرح وأرسل إليــه مرة أخرى يطلب منه أن كتب من التى يكتبها عمال مصر فيه ، فأرســل الوزير إليه برساله أرسلها شقير يقول له فيها : "إن أحمد بن طولون على التقرب على مصر والعصيان بها " [2] .

فأمر ابن طولون أن يُحضر شقير إليه من داره إلي الميدان علــى قدميه ، وقد كان شقير مبدناً ومرفهاً ، وقد قصد أحمد بن طولــون ذلــك علماً منه أن التعب سيقتله ، وعندما وصل أمر بأن يشد فــى العقــابين ، وتركه ساعة فى الحر ، فسقط شقير من التعب وتبين فيه الموت ، فــأمر أحمد أن يرد إلي داره بدون أن يُضرب ، وفى أخر اليوم وصل إلي ابــن طولون خبر وفاة شقير ، فجمع أحمد بن طولون الأعيان ليشاهدوا شــقير عريانا ، حتى يتأكدوا أنه مات من غير ضرب ، ولا سبب لموته إلا فنــاء أجله [3] .

وبذلك امتلك أحمد بن طولون البريد فى مصر وضمن ألا تتســرب أخباره إلي الخلافة إلا بما يريد هو ، حيث أنه كان يجب أن يعرف خصومه

---

(1) البلوى ، ابن طولون ، ص 57.
(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 58.
(3) البلوى ، ابن طولون ، ص 58.

بعض أسراره وتدابيره ، حتى يضلوا عن معرفة هدفه الأساسى عن طريق المعلومات المزيفة التى يرسلها إليهم [1] .

الثورات الداخلية وإخمادها :

واجهت أحمد بن طولون العديد من الثورات العلوية ، هدفها الأول النيل من نفوذ العباسيين وهيبتهم ، وكان تصدى ابن طولون لهذه الفتن والثورات ليس مجرد إقرار أمن داخلى ، وإنما إخلاصاً للبيت العباسى ودفاعاً عن حقوق الخلافة ، فيظهر فى صورة العامل المخلص ورجل الخليفة القوى الأمين فيثبت سلطانه فى مصر [2] .

ثورة بغا الأصغر :

خرج أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا المعروف ببغا الأصغر ، بين الإسكندرية وبرقة فى جمادى الأولى سنة 255 هـ فى موقع يسمونه الكنائس ، ويقال أن بغا الأصغر هو أخ أصغر لبغا الصغير الذى قتله الخليفة المعتز ، ثم ترك بغا الأصغر العراق منفيا إلى برقة [3] ، فانضم إليه بنى مدلج وهم أعز قبيلة بالاسكندرية ، ثم انتقل إلي الصعيد ، وكثر أتباعه ، فادعى الخلافة فوجه إليه ابن طولون جيشاً على رأسه بهم – أو سهم – بن الحسين ، وإذا الحرب تدور ، ولكنها حين دارت لم تلبث غير قليل حتى تكشفت عن هزيمة بغا وفرار أصحابه ، فقتله بهم وقطع رأسه وأتى بها إلي الفسطاط [4] .

(1) أحمد شلبى ، الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى ، القاهرة 1983 ، ص 113.

(2) منى حسن أحمد ، مصر الإسلامية ، القاهرة 2001 ، ص 93.

(3) كاشف ، ابن طولون ، ص 72.

(4) حسين نصار ، الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية ، القاهرة 2002 ، ص 23.

ثورة ابن الصوفى العلوى :

فى ذى القعدة من سنة 253 هـ ظهر ثائر يسمى إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن الصوفى العلوى ، استولى على مدينة إسنا سنة 255 هـ ، فنهبها وقتل أهلها وعاث فى الأرض فساداً ، ولما علم ابن طولون بأمره قام بإرسال جيشاً على رأسه ابن يزداد ، فالتقى بابن الصوفى عام 256 هـ ، ولكن ابن الصوفى هزمه ، وقطع يديه ورجليه وصلبه [1] .

ولما بلغ ذلك ابن طولون أرسل جيشاً آخر تحت قيادة بهم بن الحسين ، فالتقت الجيوش بإخميم ، وأقتتلوا قتالاً شديداً فإنهزم ابن الصوفى ، وتركه كثير ممن معه ، فرجع بهم إلي ابن طولون فعرفه بما جرى ، فخلع عليه ابن طولون خلعاً حسناً وطوقه بطوق ثقيل [2] .

أقام ابن الصوفى بالواحات يلم شعثه ويصلح أحواله ، فأرسل إليه ابن طولون جيشاً على رأسه ابن ابى المغيث ، ولكنهم لم يقتتلوا لأن ابن الصوفى رجع إلي الصعيد لقتال أبو عبد الرحمن العمرى ، ولكن ابن الصوفى لقى هزيمة قوية من العمرى ، فهرب ابن الصوفى إلي أسوان وعاث فيها فساداً ، فأرسل ابن طولون إليه بهم بن الحسين فهزمه ، وفر ابن الصوفى إلي عيذاب على البحر الأحمر ثم عبر البحر ونزل مكة ، ولكن واليها قبض عليه وأرسله إلي ابن طولون ، فسجنه لفترة حتى أظهر التوبة ، فأطلق ابن طولون صراحه وأحسن إليه ، فخرج إلي المدينة وأقام بها إلي أن مات [3] .

---

(1) كاشف ، ابن طولون ، ص 73 ؛ نصار ، الثورات الشعبية ، ص 23.

(2) سعيد محمد السباعى ، تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، القاهرة 1984 ، 49.

(3) نصار ، الثورات الشعبية ، ص 24.

ثورة ابو الروح سكن :

لم يكن انتهاء ثورة ابن الصوفى نذيـراً باستئصال الفتنـة مـن الصعيد ، حيث ظهر عام 260 هـ أحد أنصار ابن الصوفى ، وهـو ابـو الروح سكن ، وكان من بوادى بحيرة الإسكندرية ، تربى بالريف والتـف حوله طائفة كبيرة ، فأرسل إليه أحمد بن طولون جيشاً على رأسه يلبـق الطرسوسى ، ولكن ابو الروح أوقعه فى مصيدة حيث أنه أوقف أصـحابه فى أرض كثيرة الشقوق ، وكان بها قمح فحصد وبقى مـن تبنـه علـى الأرض ما يستر شقوقها ، فما أن التقى الطرفان حتى أظهر أبـو الـروح وأتباعه الإنهزام ، فتبعهم يلبق وفرسانه ، فوقعت حوافر خيلهم فى تلـك الشقوق ، وسقط الكثير من الفرسان ، فكر عليهم ابو الروح وقتلهم شـر قتلة ، فعاد يلبق إلي الفسطاط ، فلقى من أهلها وسخريتهم أكثر مما لقى من ابو الروح سكن [1] .

وتقدم ابو الروح حتى وصل إلي الفيوم ، فأنفذ إليه ابن طولـون جيشاً تحت قيادة ابن جيفوية وأمره أن يأخذ طريق الواحات مـن ناحيـة الصحراء ، ثم أنفذ جيشاً آخر ، تحت قيادة شعبة بـن حركـام ، وأمـره بالمسير إليه مباشرة ، وأراد ابو الروح أن يكرر حيلته ، ولكن أصـحاب شعبة كانوا قد أخذوا حذرهم ، فأطبقوا عليهم وأحاطوا بهم وقتلوا عـدداً كبيراً منهم ، فهرب أبو الروح عن طريق الواحات ، فوجـد جـيش ابـن جيفويه ، فوقف وراسله بالامان وظن ابن جيفوية أن شعبة لم يلقه ، ولم يحدث قتال ، وأنه وافاه قاصداً طلب الأمان راغباً فيه ، فأمنه وهرب ابـو الروح سكن ، فلما بلغ ابن طولون ذلك استشاط غضباً ومنع ابن جيفويـة من الرجوع إلي الفسطاط [2] .

---

(1) حسن أحمد ، العصر الطولونى ، ص 43.

(2) نصار ، الثورات الشعبية ، ص 26.

ثورة عبد الرحمن العمرى :

ظهر ابو عبد الله عبد الرحمن العمرى فى صعيد مصر عـام 256 هـ وينسب إلي عمر بن الخطاب ، لذلك سمى بالعمرى ، وكان من أتقياء الناس وعلمائهم ، أراد أن يجاهد فى سبيل الله فاشترك فى صـد غـارات البجة المتلاحقة فى أعالى الصعيد ، والتى تقتل الأبرياء وتنهب الأموال ، وما لبث أن ازداد نفوذ العمرى ، ووضع حداً لهذه الغارات ، ودخل بلادهم وأخضعهم حتى أدوا له الجزية [1] وعقدوا اتفاقاً على إيقـاف الحـرب ، وكان مسالماً لا يمس أحد منه أذى وكان مسالما للبجـة والعهـد الـذى لهم[2] .

وكان من أهم النتائج التى ترتبت على نجـاح حمـلات العمـرى وسيطرته على البجة أن تمت اتفاقات بين عرب ربيعة وجهينة من جهة ، ورؤساء البجة من جهة اخرى ، أعطت الحق للقبائل العربية النازحة فـى الاستقرار الدائم بين البجة وسمحت لهم بالزاج منهم ، وبالفعـل حـدثت مصاهرة بين رؤساء القبائل العربية والبجة ، مما أدى إلي توقف الهجمات المستمر من البجة على الحدود الجنوبية [3] .

ولكن أحمد بن طولون خشى من اتساع نفوذ العمـرى ، ورأى أن فى بقائه انتقاصاً لسيادته على مصر ، الأمر الذى دفعه إلي إرسال جـيش كبير للقضاء عليه بقيادة شعبة بن حركام ، ولكن العمرى ذهب إلي شعبة وأظهر له أنه على طاعة أحمد بن طولون ومسالم له ، وأنه لم يؤذ مسلماً قط ، وإنما خرج لمحاربة أعداء الإسلام من البجة ، ولكن شاءت الأقـدار

(1) نصر أسعد نصر ، تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، القاهرة 1985 ، ص 37 ؛ عبد الله خورشيد ، القبائل العربية فى مصر ، القاهرة 1995 ن ص 78.

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 65.

(3) عطية القوصى ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة 1976 ، ص 32 – 33.

أن تقع الحرب بين الطرفين ، ورغم أن العمرى كان يحارب على الجبهتين الشمالية والجنوبية ، الطولونيين والبجة ، إلا أنه استطاع هزيمة جيش شعبة بن حركام ذى العدد والعدة .

وأصبح أحمد بن طولون مذعوراً من العمرى ، إلي أن وافاه خبر مقتل العمرى على يد غلمانه ، وجاء إليه جماعة يقاربون العشرة ومعهم رأس وقالوا لأحمد : " نحن غلمان العمرى وهذه رأسه " ، فجمع ابن طولون العام والخاص وسألهم عن الرأس ، فأجمعوا أنها رأس عبد الرحمن العمرى ، فقال ابن طولون لغلمانه : " أكان مسيئاً إليكم ؟ " قالوا : " لا والله لقد كان محسناً إلينا ومفضلاً علينا " ، فقال لهم : " فما حملكم على قتله ؟ " قالوا : " طلبنا الحظوة عندك ، والمكافأة منك " ، فقال لهم : " قتلتم مولاكم المحسن إليكم بالتطرب إلي المزيد " ، فأمر بضربهم جميعاً بالسياط حتى ماتوا ، وأمر بدفن رأس عبد الرحمن العمرى [1] .

ثورة العباس ابن أحمد بن طولون :

فى عام 264 هـ غادر أحمد بن طولون مصر متوجهاً إلي أنطاكية لحصار سيما الطويل الذى رفض الخضوع له بعد توليه أمور الشام [2] ، وترك أبنه العباس على حكم مصر كنائب عنه حتى يعود ، وجعل الواسطى مدبراً ووزيراً له ، ولكن بوادر الفتنة ظهرت حين رفض الواسطى تعيين بعض أصدقاء العباس فى الوظائف العامة ، فأخذ هؤلاء الأصدقاء يغيرون صدر العباس على الواسطى حتى لم يعد للثانى أثر فى إدارة شئون البلاد [3] .

---

(1) ابن سعيد ، المُغرب ، ص 94 .

(2) ابن العديم ، زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، الجزء الأول ، تحقيق : سهيل زكار ، القاهرة 1997 ، ص 84.

(3) على إبراهيم ، مصر ، ص 52.

فما كان من الواسطى إلا أن أرسل إلي أحمد بن طولون يشكوا له من أفعال ابنه العباس ، فرد عليه بأن يستعمل الأناة حتى يعود هو إلي مصر ، ولكن العباس علم بأمر تلك المكاتبات مما زاده حقداً على الواسطى، فأشار أتباعه بالقبض عليه فقام بمهاجمة داره فوجد الكتب التى أرسلها أبيه للواسطى وعلم أنه حانق عليه ، عندها أستغل أصحابه الفرصة وشجعوه على الخروج على الطاعة ، ومن هؤلاء على ابن ماجور وعبد الله بن طغيا وأحمد بن صالح الرشيدى وجعفر بن حدار وأحمد بن المؤمل ومحمد بن أزهر ، ويذهب بعض الباحثين إلي أن هؤلاء الرجال من أتباع الموفق وأنه هو الذى حضهم على إفساد العباس حتى تنهار الدولة ، ولكن لا توجد نصوص فى المصادر تدل على ذلك .

وبالفعل قرر العباس الخروج ومغادرة مصر ، وجمع من الأموال ما بلغت قيمتها مليون دينار ، واقترض من التجار مائتى ألف ، وأخذ 800 فارس و10000 جندى من السوادان [1] ، واصطحب الواسطى وأيمن الاسود معه مكبلين بالأغلال ، فتوجه إلي الإسكندرية سنة 265 هـ مظهراً للناس عزمه على قتال الروم بعد أن استخلف أخاه ربيعة على الفسطاط ، ومن الإسكندرية سار إلي برقة ، ولما بلغ ابن طولون ذلك أرسل إليه قائلا :

" يا قرة عينى وأقرب الناس إلي وأبرهم لدى وأعزهم على ، خفرت ظنى بك ، أقوى ما كان أملى فيك ، وأرجا ما كنت لك من غير إساءة قدمتها ولا خطيئة ركبتها معك ، ولم ترع حسن تربيتى لك ، وعظم إشفاقى عليك ، وإنى أحبك لإحياء ذكرى وصيانة شملى ، فأرضيت عدوى واسخطت ولى ، وسبحان الله أما تخاف ثمرة العقوق ؟ فإن رجعت

---

(1) Lane-Pool, A history of Egypt in the middle ages, London 1901, p. 68.

إلي فكأنك لم تذنب ، وأن تمادى بك الاغترار ، شخصت إليك بنفسى وألم أكن بأول من خسر سعيه وأخلف تقديره . " [1]

ويبدو أن قلب العباس رق من كتاب أبيه ، ولكن جماعه من أصحابه قالوا له : " الله الله فينا وفى نفسك ، أنظر لنا ولك ، فأنت تعرف أباك وغدره ، فارحمنا وأرحم نفسك ، فانت تعرف طبع أبيك وشدة غدره ، فإنه يرى أن فى استئصال شأفتك ، وتقطيع قلبه عليك فيما يأتيه من أمرك وأمرنا بعدك ، بما السياسة وتوطيد المملكة توجبه ، فخفف الله فينا وفيك " [2] ، لذلك لم يستجب العباس لأبيه خوفاً من عقابه ، فقرر الخروج إلي إفريقية فى مغامرة حمقاء مغتراً بما معه من المال والجند ، معتقداً أنه يمكنه إقامة ملك له يناوى به ملك أبيه [3] .

وبالفعل بدأ العباس هجومه على إفريقية فكتب إلي وجوه البربر يرغبهم فى الانضمام إليه ، وانحازت قله منهم إلي جانبه ، كما أرسل إلي إبراهيم بن أحمد الأمير الأغلبى يخبره بأن المعتمد بالله أمير المؤمنين قلده إفريقة ويأمره بالدعوة له ، ولم ينتظر العباس رد الأمير الأغلبى وهاجم حصن لبدة ، وقبض على عامله الأغلبى ، وأعمل فيه النهب والسلب ، فاستعانت طائفة من أهل الحصن بشخص يسمى إلياس بن منصور النفوسى رئيس الإباضية [4] ، فاشترك مع جيوش ابن الأغلب بقيادة قرهب

---

(1) ابن الداية ، سيرة أحمد بن طولون ، برلين 1894 ، ص 59.

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 250.

(3) محمد عبد المنعم الجمل ، تاريخ مصر الإسلامية ، الإسكندرية 2006 ، ص 52 ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية 1982 ، ص 314.

(4) الإباضية : أحد فرق الخوارج تنسب إلي عبد الله بن أباض المرى التميمى ، وهى فرقة معتدله تحرم دماء المسلمين وسبى ذراريهم وغنيمة أموالهم على عكس الصفرية، للمزيد أنظر : محمود إسماعيل ، الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، الدار البيضاء 1985 ، ص 50 – 51.

عامل طرابلس فى التصدى لحملة العباس ، وأطبق عليه الجيشان فى معركة حامية الوطيس دارت الدائرة فيها على جيش العباس وقتل منه جمع غفير وفر عائداً إلي برقة [1] .

ولما تأكد أحمد بن طولون من عودة ابنه إلي برقة ، تبادل معه عدداً من الرسائل تبين غضبه عليه ، وينصحه بالعوده إلا أن العباس لم يذعن لنصح أبيه ، وشجعه أنصاره على المقاومة ، وكانت النتيجة أن عزم ابن طولون على أن يسير بنفسه لقتال ابنه ، وسار إلي الإسكندرية سنة 268 هـ فى جيش بلغ مائة ألف مقاتل ، ولما علم بضآلة جيش ابنه عاد هو إلي الفسطاط وأرسل الجيش ، وانتهى الأمر بهزيمة العباس مرة ثانية ثم تم القبض عليه ، وتم إحضاره إلي مصر ليشاهد مقتل أعوانه وضربهم بالسياط ، ثم يُضرب ويلقى فى السجن .

وبالقبض على العباس خمدت تلك الفتنة الجائحة التى ظلت ثلاث سنين من 265 – 268 هـ وكان لها أسوأ الأثر فى مصر حيث نغصت على ابن طولون حياته وأقلقت باله ، وعاقته عن إتمام كثير من أعمال الإصلاح التى قام بها منذ أن ولى أمور مصر ، وأقعدته عن قتال البيزنطيين لأنه عاد إلي مصر حين سمع بخروج ابنه عليه بينما كان يتأهب لغزوهم ، كما ضربت تلك الثورة أسوأ الأمثال لأهل الثغور فقد خرجوا على حكم ابن طولون كما فعل أهل طرسوس وحلب وحمص وقنسرين والجزيرة وانضموا إلي الموفق طلحة عدو أحمد بن طولون [2] .

---

(1) محمود إسماعيل ، الأغالبة ، ص 72 – 73 ؛ عبد الفتاح مقلد الغنيمى ، موسوعة المغرب العربى ، الجزء الثانى ، القاهرة 1994 ، ص 190.

(2) على إبراهيم ، مصر ، ص 55.

وبذلك أصبح أحمد بن طولون أمير وأى أمير ! مليك بالملك جدير، حيث أن ابن طولون بعدما قضى على جميع ما يعترضه فى البلاد وبعد موت يارجوخ عام 259 هـ ، وجه عنايته للإصلاح العسكرى والاقتصادى والاجتماعى ، وأصبح حمى الله فى بلاده وظله الممدود على عباده ، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .

علاقة بن طولون بالخلافة العباسية:

ذهب أحمد بن طولون إلي ما هو أبعد من استقلاله بمصر ، ذهب بنظره إلي ما هو أكبر وأعظم ، حاول أن ينقل مقر الخلافة العباسية من العراق لمصر ، وكان سبب ذلك أن أحمد بن طولون حاول أن يستغل فرصة ضعف الخليفة المعتمد ، الذى سيطر أخاه الموفق على الحكم وأصبح للمعتمد الاسم فقط [1] ، وكان الموفق يكره أحمد بن طولون ويخشى من سلطانه ، وذلك لأن مركزه كان قوى فى مصر ، فأرسل إليه يطلب منه تقديم المال لكى يساعده فى حربه ضد الزنج ، فأرسل أحمد بن طولون مليون ومائتى ألف دينار ، إلا أن هذا المبلغ لم يرضى الموفق فأرسل إليه رسالة يوبخه فيها ، ولكن ابن طولون رد عليه برسالة أشد قسوة يشير له فيها أن العمل الذى هو بسبيلة ليس من قبل الموفق بل من قبل الخليفة ولا يحق له التدخل فيه [2] .

أشتد غيظ الموفق من ابن طولون وحاول أن يعزله عن مصر ، وأول ما فعل هو أن طلب من موسى بن بغا – الوصى على جعفر المفوض ابن المعتمد الذى ولاه على القسم الغربى – أن يعزل ابن طولون من مصر

(1) السيوطى تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1975، ص 423 ؛ خالد عزام ، موسوعة التاريخ الإسلامى ، عمان 2003 ، ص 178.

(2) فائزة إسماعيل أكبر ، التاريخ السياسى للخلافة العباسية ، جدة 2003 ، ص 234.

ويولى أماجور والى الشام مكانه ، إلا أن أماجور لم يقوى على مواجهة ابن طولون لذلك رفض العرض ، مما دفع موسى بن بغا أن يسير بنفسه إلي مصر ، إلا أن النزاع حدث بين جنده لذلك أضطر إلي أن يعود أدراجه ومات هو وأماجور فى سنة 264 هـ .

لم يهدأ الموفق بعد فشل محاولة موسى بن بغا ، فسعى لدى المعتمد لعزل ابن طولون من ولاية الثغور التى كان قد تولاها فى سنة 262 هـ ، ولكنه لم يهتم بأمرها بسبب مشاغله فى مصر ، وبالفعل تم عزله عنها إلا أن الاضطرابات ثارت فيها مما أضطر الموفق إلي إعادة ابن طولون إليها ، فخرج ابن طولون إليها فى هذه المرة وهو يبيت النية على ضم الشام كله إلي ملكه (1) .

وبعد حصاره لسيما الطويل الذى تحصن فى أنطاكية والقضاء عليه أصبحت بلاد الشام كلها تابعه له ، ولم يستطع الموفق فعل شئ بسبب حربه مع الزنج (2) ، ولكن فى عام 268 هـ نجح الموفق فى التغلب على الزنج كما نجح فى كسب لؤلؤ غلام ابن طولون الذى ولاه الشام ، ولكن ابن طولون خرج فى حملته الثانية على الشام وأخضعها مرة أخرى بعد فرار لؤلؤ (3) .

وعقب إخضاعه للشام مرة ثانية أراد أن يقضى على الموفق فأرسل إلي الخليفة المعتمد ، يحثه على المجئ إلي مصر حتى يتخلص من سلطة أخيه الموفق ، وقال فى هذه الرسالة :

---

(1) ابن العديم ، بغية الطلب فى تاريخ حلب ، الجزء الثانى ، تحقيق : سهيل زكار ، القاهرة 1998 ، ص 828.

(4) D. Sourdel, Art: Ahmed Ibn Tulun, EI^2, Ledien 1983, p.279.

(2) فاروق عمر فوزى ، الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية ، بغداد 1977، ص147.

" قد منعنى الطعام والشراب والنوم خوفى على أمير المؤمنين أطال الله بقاءه من مكروه يلحقه ، وأصبحنا بأصحاب أمير المؤمنين فـى رده ومقارعه ، فحنث الأيمان المؤكدة له فى أعناقنا ، وقد أجتمع عندى مائـة ألف عنان ، مؤلفة قلوبهم ، مجتمعة آراؤهم ، شديد بأسهم ، وأنـا أرى لسيدى أمير المؤمنين أدام الله عزه بالنصر والتمكين الانجذاب إلي مصر ، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلي نهاية العز ولا يمكن فيه ما يخافه فى كل لحظة من عليه " [1] .

وبالفعل استجاب الخليفة المعتمد إلي دعوة أحمد بـن طولـون ، وخرج متظاهراً بالصيد حتى وصل إلي الرقة ، حيث كان ينتظره قائـدان لابن طولون وهما ابن جيفويه ومحمد بن عباس الكلابى ، ولكن الموفـق علم بالأمر فطلب من إسحاق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة القـبض على الخليفة ، فقبض عليه وأرسله إلي الموفق الذى خلع على ابن كنداج لقب ذى السيفين [2] .

وبذلك فشلت محاولة الخليفة المعتمد الاستقرار فى مصر ، وأحبط مشروع ابن طولون وهو نقل مقر الخلافة إلي الديار المصرية ، وما ينتج عن ذلك من تقوية مركزه الدولى ورفع شأن مصر بين الأمم ، واستاء ابن طولون من عمل الموفق وإسحاق بن كنداج ، وعقد اجتماع فى دمشق لعن فيه الموفق ، وأرسل إلي أهل مصر كتاباً قرئ عليهم وفيه : " أن أبا أحمد – يقصد الموفق – نكث بيعة المعتمد وأسره وحرش عليه وأنه يبكى بكاء"

---

(1) ابن سعيد ، المُغرب ، ص 126 – 127.

(2) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء التاسع ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1967 ، ص 620 ؛ حسن أحمد محمود ، الكندى المؤرخ وكتابه الولاة والقضاة ، القاهرة 1990 ، ص 142.

،وفى خطبة يوم الجمعة بمصر ، ذكر ما آل إليه أمر المعتمد ودعى له بالخلاص من ظلم أخيه (1) .

ثالثا :علاقة احمد بن طولون بالبيزنطيين

كانت سيطرة احمد بن طولون على الشام جزءاً من اهدافه ،ولكن الهدف هذه المرة كان بغرض الاستمرار فى الجهاد ضد "الروم" البيزنطيين ،ويبدو أن المصادر التاريخيه لم تترك لنا بيانات كافيه عن علاقة أحمد بن طولون بالبيزنطيين ،غير ان المنعطف الجديد ظهر فى العلاقات مع البيزنطيين منذ النصف الاول من القرن التاسع الميلادى الثالث الهجرى ،والذى تمثل فى تأرجح قوة المسلمين بدرجه ملحوظه ،فبعد ان طالت الحرب سجالا بين الطرفين ،نرها فى هذه المرة ترجح الكفة لصالح الروم ،بالرغم من انهم لم يحققوا انتصارات كبيرة حاسمه او مكاسب مادية مهمة ،لظهور قوة جديدة فى بيزنطة هى قوة الاباطرة المقدونيين الذين سيطروا على مقاليد الامور فى القسطنطنيه.

فعلي الجانب العباسى كان القادة الاتراك كما اشرنا هم المسيطريين عى مقاليد السلطه سواء فى سامراء المدينه الجديده ،بالاضافه الى انشغال الخلفاء العباسيين بحرب الزنج التى استفحل امرها ،وكذلك حروبها مع القرامطه والحركات الاستقلاليه هى الاخرى كانت من العوامل التى ادت الى تشتيت قوة العالم الاسلامى حيث لم يعد الروم "البيزنطيين "يواجهون قوة اسلاميه واحدة بل قوى متعدده.[2]

اما فى مصر فقد استطاع احمد بن طولون بعد استقلاله بمصر تجديد قوتها من جيش واسطول ،والتى اخذت فى الضعف مع ضعف الخلافه العباسيه الى درجة ان تمكن الاسطول البيزنطى فى عام238 هـ- 853 م من احتلال دمياط وتنيس فى عهد عنبسه بن اسحق اخر والى عربى

(1) على إبراهيم حسن ، التاريخ الإسلامى العام ، القاهرة 1994 ، ص 432.

(2) صابر محمد دياب ،الدولة الاسلاميه فى العصر العباسى ،القاهرة ،2001،ص226.

على مصر ،وذلك بأسطول بلغ ثلاثمائة سفينه واقتحام اشتوم التى تقـع على مقربة من تنيس ،و نجح هذا الاسطول من تخريب هـذه المنـاطق والعوده الى بلاده بعد ان وصل الدعم العباسى .

ساعدت هذه الغارة البيزنطيه احمد بن طولون على الاتجـاه الـى تقويـة وتدعيم قوة مصر البحريه،فراح يجدد بنـاء دور الصـناعة البحريـه ، وتنشيط قواعدها فى دمياط والاسكندريه وغيرهما ،حتي صـارت حافلـه بالوحدات البحريه ،لدرجة أنه عندما مات احمد بن طولون تـرك لابنـه خمارويه اسطولا بلغت قوته حوالى الف قطعه بحريه من السفن الكبيـرة والصغيرة العسكريه والتجاريه، وزاد من عدد الجيش حتـى بلـغ مـن ضخامته ان بنى له تكنات جديده وهى مدينة القطائع شمالى الفسطاط

بعد ذلك اتبع احمد بن طولون التقليد الذى تأ سس منذ عهد معاوية بـن ابى سفيان وهو توحيد مصر والشام ،فضم الشام إليه بعد وفاة حاكمهـا اماجور كما سبق الذكر ،وجعل من الشام ومصر قوة واحدة فـى ميـدان النشاط البحرى فى البحر المتوسط ،وعمل علي تجديد حصون واسـوار عكا ويافا وغيرهما من موانى الشام واتخذ منها هذه مركزا للهجوم على جزر بحر ايجه ،واعادة الاسطول البيزنطى الى موضع الدفاع[1] .

واذا كان بن طولون قد أرسي الاستقرار بالشام وتنظيمه أمور الثغور،فإنه اضطر للعودة الى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس[2]،واطمأن لوضعه

([1])عبد العظيم رمضان ،الصراع بين العرب واوروبا من ظهور الاسلام الـى انتهـاء الحروب الصليبيه ،القاهرة ،1983 ،ص226.

([2]) ان تعريف الثغر يقصد به المنفذ الذى يسـتطيع العـدو ان ينفـذ منـه الـى دار الاسلام،ومن اهم خصائص الثغور ،زيادة نفقاتها بحكم الاعباء العسكريه الملقاة عليها ،وقلة مواردها نظرا لافتقاد الاستقرار بها ،بل ان الدولة كانت بتسمح هناك فى عطاء جندها واقطاعهم الاراضى لإغرائهم على تعميرها والرباط فيها وجهاد الاعداء ،انظـر ،فتحى عثمان ،الحدود الاسلاميه البيزطيه بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضـارى ،ج3 ،القاهرة ،ب ت ،ص188 .

فيها ،وكلف قيادة هذه الثغور بتنفيذ خططه فى الجهاد ضـد البيـزنطيين واوصاهم بالحيطه والحذر ،وبالرد على الهجوم من جانـب البيـزنطيين بهجو مماثل .[1]

وفى الواقع فقد تهيأ للملك المقدونى باسـيل الاول مـن الظـروف والاحوال المواتيه لقتال المسلمين مالم يتهيـأ لامبراطور قبله ،فإلى جانب ما يربطه من علاقات سلميه مع جيرانـــه المسيحيين ،مـن الارمـن والروس والبلغار والبنادقه،بالاضافه الى علاقته الطيبة مع الامبراطوريه الغربيه ،فقد سادت الفتن العالم الاسلامى من استقلال احمد بـن طولـون بمصر ، وانشغال الخلافه بصراعها فى حرب الزنج ،ونشـوب الحـرب الداخليه فى شمال افريقيا ،واشتداد الصراع بين المسلمين والمسـيحيين فى الاندلس ،ومع ذلك لم يتحقق للامبراطور البيزنطي كل ماتصبو إليـه نفسه من امال.[2]

لقد بدأ باسيل الاول بتصفية حسابه مع الدولة العباسيه فى اسيا الصغرى ،وبدأ فى تعديل حدود دولته معها ،بدفع قـوات الامبراطوريـه شرقا على طول تلك الحدود ،من قلقليا فى الركن الشمالى الغربـى مـن البحر المتوسط الى ارمينيا وطرابيزون فى الركن الجنوبى الشرقى مـن البحر الاسود ،وبذلك سد المنافذ الاستراتجيه التى اعتـاد المسـلمون ان يزحفوا منها الى اسيا الصغرى .[3]

وفى عام فى عام 263 هـ ـــ 876 م اندفع باسيل الاول على رأس جيش كبير واستولى على حصن لؤلؤة بعد ان سلمه اهلـه إليـه ؛والذى كان يسيطر على الطريق من طرسوس الى القسطنطنيه ،ثم مالبث ان وقع والى الثغور الشاميه عبد الله بن كاوس اسيرا فى ايـدى باسـيل

(1) زيود ،العلاقات ،ص57

(2) السيد الباز العرينى ،الدولة البيزنطيه ،ج 1،القاهرة ،1960 ،ص 294 .

(3) سيد احمد على الناصرى ،الروم والمشرق العربى ،القاهرة ،1993 ، ص 309.

الاول فى عام 264 هـ ـ 877 م وإذا كان باسيل قد اكتفى بما احــرزه من نصر جزئى فى هذه الحمله الا ان ما حققه لم يكن ليرضي غــروره وحماسته الطاغية في حرب المسلمين في تلك الجهات ،لذا لجأت الخلافه العباسيه الى احمد بن طولون فى مصر ليتولى الدفاع عن الثغور الشاميه بنفسه .

وتبعاً لذلك آثر باسيل الاول بعد ان علم بقوة احمد بن طولون ان يهادنه ،فأطلق سراح عبد الله بن كاوس وعدد من الاســرى المســلمين، وزيادة فى التقرب ارسل باسيل إليه عدداً من المصاحف على سبيل الهدية ،ولكن من الثابت ان باسيل الاول- وأن لم يغير كثير فى الاوضــاع فــى الشرق مع المسلمين- الا انه نجح فى الاستيلاء على معظم المعابر التى كانت تنفذ منها الجيوش الاسلاميه الى اسيا الصغرى.[1]

ولكن الحرب عادت من جديد،حيث قام امير طرسوس بشــن غــارة بحريه على جنوب اسيا الصغرى فى سنة 268هـ ـ 881 م وتوغل فى بحر ايجه حتى اقترب من الدرنديل وذلــك ردا علــى غــارة قــام بهــا البيزنطيون على بلاد الشام.[2]

والمعروف ان يازمان استولى على حكم طرسوس قبيل وفــاة احمدبن طولون ،وقد اشتهر بالجهاد ضد الروم ،واستمرت فى عهده بعض الغزوات ضد الروم ،وكان اسطول المسلمين يغزو الجزائر اليونانيه فــى بحر الارخبيل وينقض على موانى اسيا الصغرى وكان يازمان هو صاحب

([1]) محمد محمد مرســى الشــيخ ،تــاريخ الامبراطوريــة البيزنطيــه ،الاســكندريه ،1994،ص 191 .

([2]) وليام لانجر ،موسوعة تاريخ العالم ،ت :السيد الباز العرينى ،ج2 ، القاهرة،1959 ،ص 521؛ رمضان ،الصراع بين العرب واوروبا ،ص 226.

النصيب الاكبر فى تلك الغزوات ،بل وقام بخلع احمد بن طولون قبل وفاته،كما لم يعترف بسلطان ابنه خمارويه من بعده.[1]

وفاة أحمد بن طولون :

بعد أن فرغ ابن طولون من اجتماع دمشق ، اتجه إلي طرسوس وكان حاكمها يسمى يازمان ، فأرسل ابن طولون إليه وفداً يدعوه إلي طاعته والدعاء له على منابرها ، ولكن يازمان رفض فزحف ابن طولون من المصيصة إلي أذنة ثم إلي طرسوس ، فوجد يازمان متحصناً بها وقد نصب المجانيق على سورها ، فحاصره ابن طولون ولكن الأحوال الجوية كانت سيئه فى ذلك الوقت إذ كان المطر شديدا والبرد قارصاً ، ومما زاد الطين بله أن يازمان فجر نهر البردان على أحمد بن طولون وجنوده ، فغرق الكثير من الجنود وهلك العديد من السودان بسبب البرد ومرض أحمد بن طولون (2) .

رحل أحمد بن طولون ومن معه ليلاً حتى وصل إلي أنطاكية ، وهناك قدم له لبن جاموس فنصحه الأطباء بعدم الإكثار منه حتى لا يزداد مرضه ، ولكن ابن طولون لم يستجب لنصيحة الأطباء وأكثر من شرب لبن الجاموس حتى أصابه منه تخمة وتزايدت حتى أصبحت ذرب أى فساد المعدة (3) ، وهنا رأى سعيد بن نوفل طبيبه أن يعود إلي مصر .

ولم يكن ابن طولون يستمع لأطباءه حتى قال با نتوفل : " لأنه يُنكر على مالا ينكر ، ويخالف علاجه ما ينفعه ، ويسارع إلي ما أحذره منه ، وأنهاه عنه ، فإذا حدث ما يكرهه نسبنى إلي أنى قصرت فى علاجه ، وجعل الذنب لى " ، وتزايدت علة أحمد بن طولون فأمر الناس بالدعاء

([1]) سيده كاشف ،احمد بن طولون ،ص 119 .

(2) حسن أحمد ، الكندى المؤرخ ، ص 142 – 143.

(3) ابى الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة 1988 ، ص 240.

له ، فغدا الناس إلي مسجد محمود بسفح المقطم يدعون لـــه ، وحضـــر النصارى حاملين الأنجيل واليهود حاملين التوراة كلهم يدعون لأحمد بـــن طولون بالشفاء [1] .

استمر مرض ابن طولون العشرة أشهر ، ويبدو أنه يـــئس مـــن نفسه فبايع لأبنه خماروية بالملك من بعده ، وولاه مصـــر وولـــى ابنـــه العباس الشام والثغور واشترط عليه مبايعة أخيه خمارويه أولاً ، ثم توفى ليلة الأحد فى العاشر من ذى القعدة سنة 270 هـــ وله من العمر خمسون سنة ، ودفن بسفح المقطم [2] .

خمارويه :-

بويع (خمارويه) بعد وفاه والدة مباشرا والتـــف حولـــه القـــادة وزعماء الجند ورجال الدولة وبدت وحدة الصف كاملة فـــي وقـــت كـــان الأعداء متربصون بها [3] ، وكان عليه أن يدافع عن الدولة التي أقامها والده في مصر،وان يحتفظ بالشام،كما كان عليه أن يستأنف النضال الذي كـــان قائما بين الطولونيين ودار الخلافة العباسية [4] . وكانت مبايعته فـــي 11 ذي القعدة سنه270هــ فولي السري بن سهل على الشرطة، واحضر أخاه العباس لمبايعته فامتنع فحبس في أحد سجون الحكم [5] .

---

(1) الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الجزء الأول ، بيروت 1994 ، ص 157 ؛ حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، الجزء الثالث ، القاهرة 1996 ، ص 136.

(2) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المجلد الثانى ، تحقيق : محمد محيى الدين ، بيروت 1989 ، ص 579 ؛ اليافعى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، الجزء الثانى ، تحقيق : خليل المنصور ، بيروت 1997 ، ص 136.

(3) حسن احمد محمود ،منى حسن احمد محمود،مصر الاسلاميه،القاهرة،2001،ص100

(4) حسن احمد محمود ،احمد إبراهيم، العالم الإسلامى ،القاهرة،1995،ص338

(5) الكندي، ولاة مصر ،بيروت،1995 ،ص258

وكان لابد من تثبيت قدمه في الحكم مخافة الفرقة والتنازع لأنه إذا اختلف الأبناء كان ادعى لاختلاف الجند وتفرق القيادة وتفتيت العصبية[1]، فقد كان العباس ابن طولون بغيضا للجيش بقدر ما كان بغيضا لبطانة أبيه إلي أن يقسم يمين الولاء لأخيه(خمارويه)[2] ؛ لذا اجتمع أهل الدولة وكبار القادة واتفقوا على بيعة (خمارويه) واحضروا العباس من محبسه ليشـــهد تولية أخيه[3] .

هذا وولد (خمارويه)في سنه 250هـــ ببلدة سامراء (سري مـــن رأى) بالعراق ،وأمه جاريه تدعى (مياس) أهداها المستعين بـــالله لأبيـــه، وحكم وعمره 20 عاما باستخلاف أبيه [4] . كما خلف أبوه له مشكله أخيه العباس وأعداءه القدامى وعلى رأسهم (الموفق)[5] .

وبمجرد أن أحس خمارويه بالخطر الذي يهدد ملكه عمـــل علـــي تدعيم مركزة في مصر ليواجه أعداء أبيه القديم وعلي رأسهم الموفـــق[6]، فعمل على الاهتمام بالجيش من اجل البقاء ومـــن اجـــل القـــوة والنفـــوذ وتجلت هذه العناية في استخدام مجندين جدد من أسيا الوسطي [7] ،كما جند العرب المقيمين في منطقة الحوف [8] ، وانتقى منهم من عرف بالشجاعة وضخامة الأجسام والشدة واهتم بتدريب الجنود وتصليحهم وكون مـــنهم فرقه خاصة عرفت (بالمختارة) [9]،واهتم بمظهر الجند الخـــارجي وزيهـــم

([1]) جرجى زيدان، المؤلفات الكاملة ،بيروت ،2003 ،ص54.

([2]) كار ل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلاميه ،ص65

([3]) بن خلدون ، تاريخ بن خلدون ،بيروت ،1992،ص366

([4]) بكر محمد إبراهيم ، الدولة العباسية ،القاهرة ،2002،ص226.

([5]) سيده إسماعيل،جمال الدين سرور ، تاريخ مصر عبر العصور،1994،ص174.

([6]) على الخربوطلى،مصر العربية الإسلامية، القاهرة ،1772 ،ص78.

([7]) محاسن الوقاد، تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ،2007 ،ص101.

([8]) الخربوطلى،مصر العربية ،ص78 .

([9]) محاسن الوقاد، تاريخ مصر، ص101 .

وسلاحهم وأراد (خمارويه) أن يوفر الاستقلال الداخلي ليتفرغ للموفق [1] .

وكان حكيما في اختيار حرسه الخاص من عرب الحوف الذين يسكنون شرقي الدلتا وكانوا يقلقون السلطة بالسلب والنهب، فرأى أن يبعدهم عن ذلك وكون منهم فرقة خاصة اتخذها حرسا خاصا له [2].

هذا وسار خمارويه علي سياسة أبيه في بلاد الشام من التقرب للأهالي وكسب ودهم، وتبني فكرة الجهاد في الثغور الشامية وقام بنشر الأمن والطمأنينة، وعمل علي حماية طرق الحج [3] .

هذا وأخذ خمارويه علي عاتقه الحفاظ على أملاك الدولة الطولونية في الشام ، لأنه وضع في اعتباره أنه إذا فقد السيادة على بلاد الشام انتهى أمره في مصر . وقد صح ما توقعه ، فما كادت تصل إلي سامراء مركز الخلافة العباسية أنباء وفاة أحمد بن طولون ،وتولية خمارويه السلطة حتى انبعثت الفتنة من مراقدها وضاعت عروض السلام هباء.

في الوقت نفسه عمد الموفق إلي استغلال إسحاق بن كنداج، الذى سبق أن عقد له على مصر أثناء الأزمة التى ثارت بينه وبين إبن طولون، ومادام الخليفة العباسى لم يعترف بخمارويه أميراً، فإن إسحاق كان لا يزال صاحب الحق الشرعي ، وأن عليه إذا أراد أن يتولي مصر فليسر إليها ، وينتزعها بالقوة من خمارويه ، وضم إليه خصم الطولونيين العنيد محمد بن أبى الساج [4] .

([1]) الخربوطلى،مصر العربية ،ص79.

([2]) سيدة إسماعيل،جمال الدين سرور ،تاريخ مصر عبر العصور، ،ص179.

([3]) محمد احمد زيود ، العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والإخشيدي،القاهرة ،1995 ،ص63 .

([4]) أحمد عبد الرازق ، تاريخ وآثار مصر الأسلامية ، دار الفكر العربي ، 2004 ، ص97

وبعث إليهما الخليفة الموفق بابنه أبى العباس أحمـد علـى رأس القوات العراقية،التى استطاعت أن تستولى بالفعل على الرقة وقنسـرين والعواصم ، وهزمت بعض أنصار الطولونيين، ثم ما لبثت القوات العراقية أن دخلت دمشق ، ومضت إلي الرملة تريد أن تشق طريقها إلي مصـر ، فأسرع خماروية وعقد لأحمد بن محمد الواسطى على جيش الشـام فـي ذى الحجة سنة 270هـ ،ولسعد بن الأيسر على فرقة أخرى من الجيش المصري ، كما سير مراكب كثيرة في البحـر رابطـت بسـواحل الشـام استعدادا للطوارئ.

بيد أن خيانة الواسطى الذى بعث بكتاب إلي الموفق يصغر فيه أمر خماروية ويحضه على المسير إلي مصر ، كانت سبباً في الهزيمة التـى لحقت بالطولونيين عند شيزر ،وسهلت للقوات العراقية الدخول إلي دمشق، إلا أن خمارويه أسرع في الخروج إليهم في جيش يتألف من سبعين ألف مقاتل غير مبال بالخطر [1] .

وإذا كان جيش خماروية قد بلغ سبعين ألفا ، مضافاً إليهم الجـيش الذى خرج به الواسطى وسعد الأيسر،فإن معنى ذلك أنه لم يترك في مصر قوات كافية يعتمد عليها في الدفاع عن البلاد إذا لم يكن من التقهقر بد [2] ، وعلي أية حال حدثت أمور خطيرة ، حيث وقع الخلاف بين إبـن كنـداج وإبن أبى الساج [3] .

وتفصيل ذلك أن إبن كنداج وإبن أبى الساج قد اختلفا مع بعضـهما البعض ، ومع المعتضد بن الخليفه الموفق، ولذا فقد قرر المعتضد خوض الحرب مع خماروية غير مكترث بما حدث ، وعلى الجانب الأخـر قـرر خماروية خوض الحرب مـدافعا عـن أمـلاك الدولـة الطولونيـة فـي

---

(1) أحمد ، مصر ، ص98 .

(2) حضارة مصر فى العصر الطولونى ، دار الفكر العربى ، ب.ت ، ص105 .

(3) حسن ، العصر الطولونى ، ص106 .

الشام،متحدياً ما جرى من تحالف ثلاثي ضده متمثلاً في الموفق الخليفة وإبن كنداج عامل الموصل والجزيرة وإبن أبى الساج في الاستيلاء على أملاك الدولة الطولونية في الشام ومصر ، إضافة إلي خيانة قائده الواسطى .

وفى سنة 271هـ كانت وقعة الطواحين على نهر فطرس بين الرملة ودمشق ، وقد دخل الموفق بعساكر العراق إلي دمشق ومعه المعتضد ، وخرج إليه خمارويه بالعساكر المصرية والتقيا وحملت ميسرة المعتضد وانهزم خمارويه وعاد إلي الفسطاط [1] . وعلي أية حال اتفقت المصادر على هزيمة خمارويه وفراره من الحرب التي كان لا ناقة له ولا جمل فيها ،ولا علم له بفنون الحرب [2] .

وهكذا تخلى خمارويه عن جيشه وعاد فاراً إلي مصر؛ ولكن شاء القدر أن تتبدل الأحوال وتتحول الهزيمة إلي نصر بفضل القائد سعد الأيسر الذي نصب كميناً للقوات العباسية المتحالفة أثناء انشغالها بجمع غنائم الحرب؛ أجبرها علي التراجع صوب دمشق حيث أغلقت أبوابها في وجوههم ، فأنزل بهم سعد الأيسر هزيمة منكرة،وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل وأسر منهم خلقاً كثيراً، وعندما وصل إلي خمارويه نبأ هذا الانتصار تجددت في نفسه روح الأمل [3].

([1]) الطبرى ، تاريخ الطبرى ، ج10 ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، مصر 1967 ، ص8 ؛ إبن شداد ، الأعلام الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ج2 ، تحقيق : يحيى زكريا ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1991 = ص277 ؛ الدوادارى ، الدرة السنية فى أخبار الدولة العباسية ، ج5 ، تحقيق : دوروتياكرا فوكى، بيروت 1992 ، ص288 ؛ أحمد ، مصر ، ص98 .

([2]) الطبرى ، تاريخ ، ص8 ؛ إبن الأثير ، الكامل ،ص347 .

([3]) الطبرى ، تاريخ ، ص9 ؛ إبن الأثير ، الكامل ، ص348 ؛ إبن شداد ، أمراء الشام، ص277 ؛ الدوادارى ، الدولة العباسية ، ص288 ؛ أحمد ، مصر ، ص98 ، محمد جمال الدين ، تاريخ الدولة الفاطمية ، دار الفكر العربى ، 1995 ، ص48.

ويجدر بنا أن نوضح أن سعد الأيسر لو كان يعلم فرار خماروية من أرض المعركة لكان هو الأخر تـرك أرض المعركـة ،وحسـبنا مـا أوضحته المصادر بأنه أقام أخاه أبا العشائر عندما لم يجده، وأغلب الظن أن سعداً استخف بخماروية بعد هذا النصر وأراد الإنفراد ببلاد الشام ، مما اضطر خماروية إلي الخروج إليه وتغلب عليه وقتله ، بل ودخل دمشـق وملكها سنة 273هـ ، ومن المرجح أن هذا الحادثة كانت سبباً في حرص خماروية على تتبع العناصر المناوئة له، حيث بدأ بإسحاق بن كنداج الذى أنزل به هزيمة فادحة بأرض الرافقة ، وظل يتعقبه حتى بلـغ مشـارف مدينة سامراء مما اضطره إلي مصالحة خماروية ، وأن يكون عاملا مـن عماله يدعو له على المنابر بعد أن كان يدّعى الأمارة على مصر . ونجح خماروية أيضا في القضاء على محمد بن أبى الساج في سنة 274هـ في ثنية العقاب بأرض دمشق [1] .

وبهذا النصر الذى حققه خماروية على المعتضد وإبن كنداج وإبن أبى الساج-بتدخل القدر- أثبت أنه خير خلف لأبيه أحمد ، وأصبح سـيد الرقة والموصل وأرمينا وطرسوس . وامتدت سيادته إلي بلاد فارس على نهر التايجر؛ ولكن كما تشير المصادر المعاصرة أنه رغم هذه الانتصارات التى أحرزها خماروية فقد كان البادئ بطلب الصلح والتفاهم مع الخليفة ، إذ كتب إلي الموفق في طلب الصلح وهو ببلاد الشام على مـال يدفعـه ، فرضى الخليفة وبعث إليه بكتاب مع فائق الخادم في رجب سنه 273 هـ، وأرسل له تفويضاً موقعاً عليه من الخليفة المعتمد وأخيه الموفق يتضمن حكم الشام ومصر والثغور الشامية وأن ينفرد بها ثلاثين سنه هو وولـده على حد تعبير الكندى ، ولا يهدد بعزل أو تدخل في شئونه . والحـق أن هذا الكتاب جاء تسجيلا لحقيقة قائمة ، وإعترافـا بنفـوذ حصـل عليـه خماروية فعلاً ، كما جاء إقراراً للسلام في هذه المنطقة الهامة من الشرق

([1]) أحمد ، مصر ، ص99 .

الأثنى ، وكان طبيعيًا أن يسترد الموفق مكانه الطبيعى في خطبة الجمعـــة باعتباره ولى العهد [1] .

علي أية حال مات الموفق سنة 278هـ، ثم تبعه الخليفة المعتمد سنة 279هـ ، فبويع المعتضد بن الموفق في صبيحة الليلة التـــى مـــات فيها عمه المعتمد ،وقد حمل عدة صفات نبيلة تحدثت عنها المصادر؛ فكان ملكاً شجاعا ،مهيبا ، ظاهر الجبروت ، وافر العقل ، شديد الوطأة ، وكان عادلا في الرعية مع مهابة وسطوة ، أسمرا ، نحيفا وكـــان يقـــدر علـــى منازلة الأسود حيث يروي أنه خرج للصيد وانقطع عنه العسكر فخـــرج عليه أسد فصرعه بسيفه [2] .

وبموت الموفق وأخيه المعتمد استراح خمارويه من المضـــايقات فدعم سلطانه على مصر والشام[3]. ولكن من الجلى أن الاتفاقية التى عقدت بينه وبين الخلافة أعطته الحق في التصرف في تلـــك المنـــاطق كيفمـــا شاء.لذا بمجرد علمه بوفاة المعتمد وتولية المعتضد بعث إليـــه بالهـــدايا والرسائل ، وكان رد الفعل عظيمـــاً حيـــث أرســـل إليـــه الخليفـــة فـــي سنة280هـ تقليداً بولايته هو وولده ثلاثين سنه من الفرات إلي برقـــة ، وجعل إليه الصلاة والقضاء والخراج وجميع الأعمال ، على أن يحمل في كل عام من المال مائتى ألف دينار عما مضى ، وثلاثين ألف عن كل عام للمستقبل . ثم قدم رسولا للمعتضد في شهر رمضان بالخلع ، وهى إثنتـــا

([1]) أحمد ، مصر ، ص99 ؛ محمد ، تاريخ ، ص48 .

([2]) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ص991 ؛ أبـــو المحاســـن ، الخلافـــة ، ص172 ؛ الكتبى، فوات الوفيات والذيل عليها ، المجلد الأول ، تحقيق : إحســـان عبـــاس ، دار صادر ، بيروت 1973 ، ص73 ؛ السيوطى ، الخلفاء ، ص341 .

([3]) إبراهيم أيوب ، التاريخ العباسى السياســـى والحضـــارى ، دار الكتـــاب العـــالمى ،1989، ص118 .

عشرة خلعة وسيف ووشاح مع خادم [1] يدعى سنيف أى أن سلطان خماروية أصبح يشمل مصر وسوريا حتى جبال طوروس ، فضلا عن إقليم الجزيرة (أى الأطراف الشمالية من أرض بين النهرين) [2] .

ولكن ثمة شروط تحتاج إلي توضيح في تلك المعاهدة ، وهى ما قضت به من إعطائه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال ، فكأن هذه النصوص ألغت أخر قيد على استغلال مصر الداخلى في عهد خماروية، ونعتقد أن أحمد بن طولون لم يكن له حق تولية الأعمال في البلاد دون رأى الخليفة وموافقته ، وقد رأينا كيف أن بن طولون أستأذن الخليفة المعتمد في تعيين عامل الخراج ، ويبدو أن المعاهدة أعطت خماروية فوق ذلك كله حق تعيين القضاه، وهذا تطور بعيد المدى في استقلال مصر إدراياً وقضائياً ، فقد كان القضاء في الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة ،وكان الخليفة هو الذى يعيين القاضى في مصر[3].

ولاغرو أن خماروية إستطاع أن يكسب رضا الخليفة بهداياه ، بهذه المعاهدة حَمل خماروية خزائن دولته ما لم تكن تطيقه ، فقد حمّله المعتضد طبقا لأراء المؤرخين ما لم يدفعه أبيه أحمد طوال فترة خلافه مع

([1]) الكندى ، ولاة مصر ، تحقيق : حسين نصار ، دار صادر ، بيروت ب.ت ، ص264؛ الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : على عملر ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2001 ، ص72 ؛أحمد صبحى ، شخصية مصر ، مكتبة النهضة الحديثة ، 1984 ، ص45 ؛ سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، ت. عفيف البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت 1961 ، ص260 ؛ صابر محمد دياب ، دراسات فى تاريخ مصر الأسلامية وحضارتها ، دار النهضة العربية ، 1976 ، ص155 ؛ على حسن الخربوطلى ، مصر العربية الأسلامية ، ص80 ؛ ل. أ.سيديو ، تاريخ العرب العام ، ت: عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، 1948 ،ص235 .

([2])كليفورد ، الأسرات الحاكمة فى التاريخ الأسلامى ، ت : حسين على ، مؤسسة الشراع العربى ، الطبعة الثانية ، 1995 ، ص75 .

([3]) حسن ، العصر الطولونى ، ص118 .

الخلافة العباسية،وخاصه فترة الموفق ، فإذا عقدت مقارنة بين المعاهـدة الأساسيه مع الموفق وتجديده مع المعتضد لوجدت أن المعتضد كان أذكى من أبيه وعمه في تحميل خزانة مصر ما لم تكن تطيقه .

تروى المصادر المعاصرة والحديثة عن حدث زواج قطـر النـدي ابنة خمارويه والنفقات التى أنفقت في هذا الزواج بعـد مهادنـة مصـر والخلافة العباسية ، ففي سنة 282هـ قدم الحسن بن عبد الله المعـروف بالجصاص رسولا من مصر من قبل خمارويه ، ومعة هدايا كثيرة وأموال جليلة وطراز ، فوصل إلي المعتضد، ثم سعى في تزويج إبنة خمارويه من المكتفى ، فقال المعتضد : إنما أراد أن يتشرف بنا ، وأنا أزيد في تشريفه، أنا أتزوجها " [1] .

وتدلنا مسأله الزواج على مبلغ حرص الدولـة العباسـية علـى المحافظة على ود مصر ، مع أن مصر كانت ولاية تابعة لها ، ولا شك أن السر هو قوة مصر وثرواتها ،واتساع رقعة البلاد التى تحت سلطانها حتى بات يرغب في مصاهرتها الخليفة بنفسه [2] .

ويذكر المقريزى عن جهاز العروس :

" ثم أخذ في تجهيز إبنته ، فجهازها ضاهى به نعم الخلافة ، فلـم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلا حملة معها ، فكان في جملته دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كـل عـين مـن

([1]) الطبرى ، تاريخ ، ص30 ؛ المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق: محمد محى الدين ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت 1990 ، ص599 ؛ ابن عبـرى ، مختصر الدول ، ص131 ؛إبن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، تحقيق : على محمـد معوض ، دار الكتب العلمية ، 1997 ، ص61 ؛ أحمد مختار العبادى ، فـى التـاريخ العباسى والأندلسى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص136 .

([2]) على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ب.ت، ص58 .

التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لايعرف لها قيمة ، ومائة هـون مـن ذهب [1] "، كما كان في جهازها أربعة ألاف تكيـه مجـوهرة ، وعشـر صناديق جوهر [2] ،وقدر مهرها بمبلغ مليون درهم ، وقوم جهازها بمليون دينار ، وأعطت إبن الجصاص الذى مشى في الجهاز مائة ألف درهم " [3] . ونستدل من محتويات هذا الجهاز وفخامته على مبلغ الرخاء الذي ساد مصر في عهد خمارويه وعن درجة تقدم الصناعة ، فقد راجت في هـذا العصر صناعة الذهب بصفة خاصة ،وصناعة النحاس وامتـدت مظـاهر الرواج إلي أبعد ما يمكن أن نسميه (صناعة الترف) التى تطلبتها الحياة الاجتماعية المترفة في قصور آل طولون [4] .وأغلب الظن أن خمارويه قد وجد مالا كثيراً خلفه له أبوه فأتاح له الفرصة أن يتغالى مغالاة شديدة في بناء قصوره وحفلاته،وأيضا في زواج إبنته قطر الندى؛ كما بلغت نفقتـه على جنده تسعمائة ألف دينار في السنة ، واستكثر من الجواري والغلمان حتى شاع أمره ، وكثرت نفقته على طعامه لدرجة أن الباقي في مطبخـه من أصناف المأكول كان يزيد عن حاجه الخدم فيبيعونه مما كان له بـالغ الأثر في أن يصيب بيت المال بهزة شديدة جعلـت اقتصـاديات الـبلاد – وبالتالي شئونها الأخرى – في حالة اضطراب وضعف شديدين [5] .

([2])المقريزى ، الخطط المقريزية ، ج2 ، تحقيق : خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1998 ، ص129 ؛ محمد الخضرى بك ، محاضرات فى تاريخ الأمم الأسلامية ، مؤسسة المختار ، 2003 ، ص302 .

([3]) سيدة الكاشف ، حسن أحمد محمود ، مصر فى الطولونيين والأخشيديين ، مكتبة الأنجلو المصرية، 1960 ، ص113 ؛ على ، العصور الوسطى ، ص58 .

([5]) عباده كحيلة ، العقد الثمين في تاريخ المسلمين ، الكويت 1996 ، ص235 ؛ فريد شافعى ، العمارة العربية فى مصر الأسلامية ، الهيئـة المصـرية العامـة ، 1970 ، ص512 .

علي أية حال كان عصر خمارويه هو أوج ازدهار الدولة الطولونية فلما توفي سنه 282هـ كانت بداية النهاية فقد تولي الحكم طولونيين ضعاف لم يسدوا الفراغ الذي تركه خمارويه [1] .

وبوفاته أضربت أحوال الدولة بسبب تدخل الجند وتنافس الأمراء الطولونيين فيما بينهم واشتعلت الفتن والثورات وأصبح من المؤكد أن البيت الطولوني فقد عنصر القوة الذي كان يتمتع به [2] .

أبو العساكر جيش بن خماروية

حكم مصر بعد مقتل خمارويه ، ثلاثة من آل طولون ، لم يزد حكمهم جميعاً على عشر سنوات ، سقطت بعدها الأسرة الطولونية ، وشهدت هذه السنوات العشر الأخيرة من تاريخ الدولة الطولونية انحلالاً واضحاً وتدهوراً سريعاً . وبعد أن بلغت تلك الدولة أوج قوتها ومجدها وعظمتها على عهد خمارويه وزاد من ذلك الانحلال انقسام البيت الطولونى على نفسه ، فأبناء خمارويه كانوا صغاراً ضعفاء ليس لهم من أسباب الهيبة والنضج ما يجعلهم موضع احترام الجند ، وأخوة خمارويه كانوا أشداء أقوياء ، كل منهم متحفز للحصول على نصيب الأسد من تركة أبيهم أحمد بن طولون . وجند خمارويه وغلمانه وقادة جيشه أفسدتهم النعمة العريضة التى عاشوا فيها فى كنف خمارويه ، بعد أن دللهم وأغدق عليهم .

بعد مقتل خمارويه خلفه ابنه الأكبر أبو العساكر جيش وكان شاباً صغيراً فى الرابعة عشرة من عمره لا يحسن من الأمر شيئاً ، والتف حوله طائفة من أمثاله الغلمان ، أمثال بندكوش ، وخضر وابن البواش ، فأفسدوا أمره وزينوا له قتل عمه أبى العشائر ، حتى قبض عليه وقتله الأمر الذى أغضب الناس عليه ، ونفر منه الجند وعملوا على خلعه،

([1]) علي الخربوطلي ،مصر العربية ، ص80

([2]) حسن احمد محمود ،العالم الإسلامي،ص339

وخاصة أن الجيش الذى كونه جده أحمد بن طولون كان قد أصبح القـوة الفعلية فى البلاد ، ولم يكن من الممكن أن يملأ مثل هذا الغلام أعين القواد فتخلى عنه أكبرهم مثل خاقان المفلحى ، ومحمد بن إسحاق بن كنـداج ، ووصيف بن سوار تكين ، وبندقه بن المجور وأخيه محمد بـن لمجـور وغيرهم ، وشكوا إلى بعضهم البعض من تصرفاته . وزاد من غضب قادة الجيش عندما علموا أنه عندما يسرف فى الشرب ويستبد الخمـر بعقلـه يقول لندمائه واحداً بعد آخر . "غدا أقلدك موضع فلان وأهـب لـك داره وأسوغك نعمته ، فأنت أحق من هؤلاء الكلاب" أى قادة الجيش .

وكان كبير الجند يدعى أبو جعفر بن أبى فتحدث إليه القواد فى شأن أبو العساكر جيش وقالوا له : "أنت خليفة أبيه وكان ينبغى لك أن تؤدبـه وتسدده ؛ فقال لهم : قد تكلمت جهدى ، ولكن لم يسمع منى .." .

وعلى الرغم من خروج طغج بن جف أمير دمشق وابـن طوغـان أمير الثغور عن طاعته وأسقطا اسمه من الخطبة على المنابر ، ومع هذا فلم ينزعج مما حدث واستمر فى لهوه مع الأوباش ، حتى اجتمـع عليـه رجال أبيه وقرروا ضرورة خلعه وطلبوا منه أن يتنحى ليحل محله عمـه نصر بن أحمد بن طولون فى الحكم ، ولكن جيش رد عليهم بأن دخل على عمه – وكان معتقلاً – فضرب عنقه ، وقذف برأسه إلى الجند قائلاً لهـم "خذوا أميركم" فلما رأوا ذلك هجموا عليه وقتلـوه وقتلـوا أمـه وكاتبـه وأصحابه ونهبوا داره وأحرقوها ، ووقع فى أيـديهم مـا يمـلأ قلـوبهم وعيونهم حتى قيل أن بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الجندية وسـكن الريف ، وصار من مزارعيه وتجاره ، بعد أن استمرت ولايته تسعة أشهر وأثنى عشر يوماً .

أبو موسى هارون بن خماروية

ومرة أخرى اتجه قادة الجيش نحو تعيين أحد أبنـاء خمارويـة ، تظاهرا بالولاء لبيته وتخوفا من أن يلى الإمرة إخوة خماروية الناضجين ،

وكان أن تمت مبايعة أبو موسى هارون بن خمارويه – وكان صبياً صغيراً ، وكانت بيعته بغير عطاء الجند ومع ذلك فقد بايعوه جميعاً ولم يمتنع عليه أحد ، فقام بالوصاية عليه أبو جعفر بن أبىّ ، وهو رجل ذو "دهاء ومكر" ومن كبار رجال ابن طولون ومن أقرب الخلصاء إلى قلب خمارويه، وأحرص الناس على أن يظل السلطان فى بنى خمارويه لا يتجاوزه إلى سواهم . فثبت ملكه بعد أن تم التخلص من جميع حاشية أخيه جيش . بيد أن أحوال البلاد كانت مضطربة، ولم يكن يرجى للدولة صلاح على يديه ، وخاصة أن هذه الدول كانت لا تقوم على اساس من سياسة أو هدف أو سند من أهل البلاد ، وإنما ينشئها طموح رجل فرد ، فإذا انقضى أمره زالت الدولة ، وكان جند الدولة الطولونية قد فسد أمره وتفرقت وحدته ، لأنه كان يتكون من فرق من الترك وأخرى من السود ، وجماعات شتى هم أخلاط من المرتزقة أهمهم الروم الذى كان أمرهم قد علا بفضل ثلاثة من قوادهم هم بدر الحمامى ، وفائق ، وصافى السابق ذكرهم ، وكانوا حسب ما جاء فى المصادر التاريخية من خيرة القواد عقلاً وقدرة .

وقد شارك ابن أبىّ فى مغانمه ثلاثة من قواد الجيش الطولونى هم بدر الحمامى ، وفائق ، وصافى ، وكان كل واحد منهم يسيطر على فريق من الجيش يخضع له خضوعاً تاماً . وأصبحت شئون الدولة والحكم قسمة بين ابن أبىّ وبين هذا الثالوث من القواد ، فحقد عليهم الباقون ، وخاصة السود ، يضاف إلى هذا أن ربيعة بن أحمد ابن طولون ، وهو عم هارون، قد أنكر ولاية هذا الغلام وحدثته نفسه بطلب الولاية لنفسه ، إلا أن هارون استطاع بفضل اعتماده على طوائف الجند من السود القضاء على عمه وقتله .

وتشير بعض المصادر أن ربيعة ظل يقاتل حتى اجتمع له من عسكر هارون من قبض عليه وضرب بالسياط حتى فاضت روحه . واستمر هارون فى إمرة مصر من غير منازع ، لكن أحوال مصر كانت مضطربة ،

إلى أن ورد على هارون خبر وفاة الخليفة المعتضد بالله زوج أخته قطـر الندى ، وذلك فى ربيع الآخر سنة 289هـ / مارس 902م، وتولى ابنـه محمد الملقب بالمكتفى الخلافة مكانه . كما بدأت فى الوقت نفسه حركـة القرامطة تجتاح الشام فى عام 290هـ /   م فجهز هارون جيش كبير وتصدى لها ، الأمر الذى استنفيذ فيه جانباً كبيراً مما كان قد بقى لجيشه من قوة .

وزاد الطينة بلة تلك الوحشة التى وقعت بينه وبين الخليفة المكتفى ، الذى طمع فى استعادة سلطان مصر ، لذلك أرسل لحرب هارون محمـد بن سليمان وكان محمد هذا من خدم أحمد بن طولون ، إذ استخدمه لؤلؤ الطولونى كاتباً له ، فلما انحرف لؤلؤ عن بنى طولون ، وانضم إلى رجال الخلافة العباسية انحرف معه محمد بن سليمان ، وما زال أمره يرقى حتى أصبح فى جملة القواد ، حتى ندبه الخليفة العباس المكتفى للقضاء علـى آخر الطولونيين .

وقد ظلت أمور البلاد مضطربة فى عهد هارون ابـن خمارويـه ، واستمر هو متشاغلاً "باللهو والسكر" فاجتمع عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون على قتل ابن أخيهما هارون ، وذبحاه وهو ثمـل فـى سـنة 292هـ / 904م وهو لا يزال فى الثانية والعشرين من عمره ، وكانـت ولايته على مصر ثمانى سنوات وثمانية أشهر وبضعة أيام ، وبعـد قتـل هارون نادى قتلته بعمه شيبان أميراً على مصر ولقب بـأبى المواقيـت ، وكان شيبان هذا "أهوج ، جسوراً ، جسيماً ، جلداً شديد البدن فى عنفوان شبابه ، فصار يسرع فى أموره .

وكانت المشكلة التى واجهت حكام مصر بعد مقتل خمارويه هى عدم وجود المال الكافى لمنح العطاء للجند ، الأمر الذى جعل الجند فى حالـة ثورة دائمة بسبب الرغبة فى العطاء ، ومع ذلك فقد أجزل شيبان العطـاء

للجند بعد استيلائه على ودائع أم هارون التى كانت قد خبأتهـا فـى دور بعض تجار الفسطاط .

ومع ذلك فقد انضم جنده جماعة بعد جماعة إلـى جنـد الخليفـة المكتفى . ووصل محمد بن سليمان إلى العباسة بمديرية الشرقية بعـد أن تخلى الناس عن الطولونيين ، فأسرع دميانة قائـد الأسـطول المصـرى فأحرق جسر مصر الشرقى وبعض الغربى ، حتى تعـزل الفسـطاط عـن الصعيد ، وأقبل محمد بن سليمان بمن معه ووقف دون الفسطاط ، ولمـا بلغ ذلك شيبان خرج بعساكره فى محاولة يائسة لإنقـاذ ملكـه ، والتقـى الجمعان وكانت بينهم مناوشة ساعة ، أدرك بعدها "قلة مـن معـه مـن الرجال وكثرة جيوش محمد بن سليمان" لذلك استجاب شيبان لمحمد بـن سليمان عندما كتب إليه الأخير يؤمنه على نفسه وأهلـه ومالـه "فجمـع إخوته وبنى عمه فى الليل وتوجهوا إلى محمد بن سليمان وصـاروا فـى قبضته" تاركاً جنده وهم لا يعلمون بتخليه عنهم ، فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم وكفوا عن القتال ، وانهال عليهم الناس حتى صاروا يذبحون بـين يدى القائد العباس كما تذبح الشاهة ، ثم أمر محمد بن سليمان بـإحراق القطائع ونهب الفسطاط . وبذا انتهت ولاية شيبان التى لم تستمر سـوى تسعة أيام ، زالت دولة بن طولون بأكملها ، واجتهد محمد بن سليمان فى إزالة آثارها جملة حتى لم يبق منها شئ واستصفى أموالهم ونهبها ، ثـم دخلت الأعراب الخراسانية من عساكر محمد بن سليمان إلى مصر فكسروا جيوشها وأخرجوا من كان بها، ثم هجموا على دور الناس فنهبوها وأخذوا أموالهم واستباحوا حريمهم وفتكوا فى الرعية وافتضوا الأبكـار وأسـروا المماليك والأحرار من النساء والرجال ، وفعلوا فى مصر ما لا يحلـه الله من ارتكاب المآثم ، ثم تعدوا إلى أرباب الدولة وأخرجوهم مـن دورهـم وسكنوها ، وفعلوا فى المصريين ما لا يفعلونه فى الكفرة ؛ وأقاموا علـى ذلك أياماً كثيرة مصريين على هذه الأفعال القبيحة" .

واجتهد محمد بن سليمان فى إزالة آثار الدولة الطولونية جملة حتى لم يبق منها شئ واستصفى أموالهم ونهبها بالشدة والعنف . وحمل إلى بغداد جزء وسرق الباقى ، ويقال أن الخليفة العباسى المكتفى قد حاسبه على ذلك أعسر الحساب ، ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر ، إذ استبدله الخليفة المكتفى بعيسى النوشرى وعادت مصر من جديد ولاية عباسية كما كانت من قبل بعد أن حكمها بنو طولون ثمانية وثلاثين عاماً .

وقد صور لنا المؤرخ ابن تغرى بردى الحقد الدفين للقائد محمد بن سليمان الذى أراد أن ينتقم من الطولونيين أشد الانتقام فى الفظائع التى ارتكبها باسم الخلافة بقوله "وقد أسف المصريون على زوال الدولة الطولونية ، ولم يسعهم فى وسط تلك الغمة سوى أن يترحموا على آل طولون ويذكروا حلو أيامهم.

الفصل الثالث

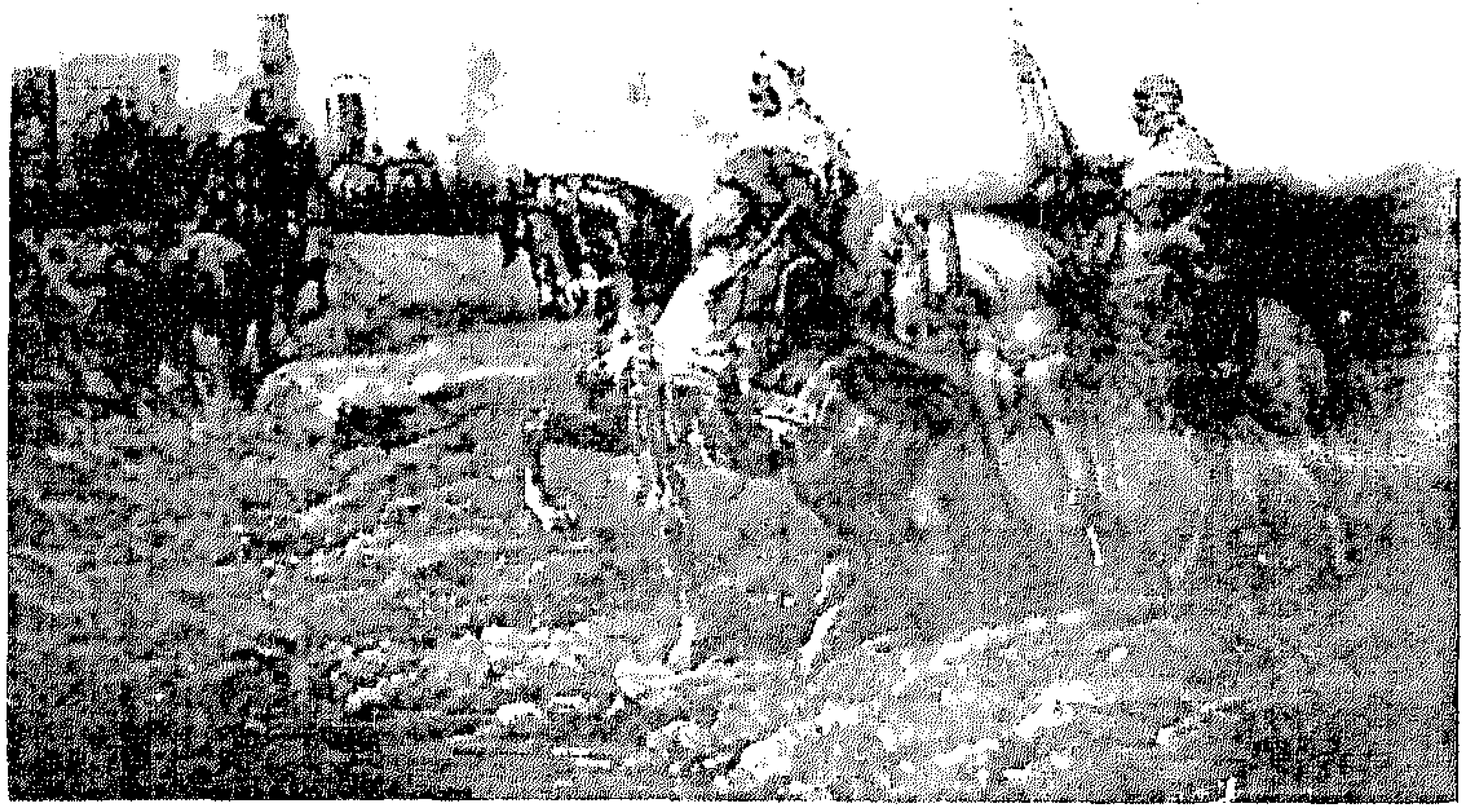

الدولة الإخشيدية

الدولة الإخشيدية

كان جف جد محمد بن طغج من بين نفر من فرسان فرغانه وشجعانها قدموا إلي الخليفة العباسي المعتصم فعنى بهم اشد العناية، وعول على أن يتخذهم عونا له واقطعهم قطائع في مدينة سامرا ، ولما توفى المعتصم انتقل جف إلي خدمة ابنه الواثق ، ولما توفى الواثق سنة 232 هـ صحب جف الخليفة المتوكل وظل في بطانته إلي أن توفى ببغداد في الليلة التى قتل فيها المتوكل سنة 247 هـ .

اما طغج والد محمد المعروف بالإخشيد فانه بعد وفاة أبيه جف التحق بخدمة أحمد بن طولون بعد أن اتصل بلؤلؤ الذي كان من إتباع احمد بن طولون ،ويبدو انه انضم بعد ذلك إلي اسحق بن كنداج والي الموصل وعدو احمد بن طولون ،فلما كان الصلح بين خمارويه بن احمد بن طولون واسحق بن كنداج عاد طغج إلي العمل لدى بني طولون وعينه خمارويه واليا على دمشق وطبريه ، وفي سنة281هـ أرسله خمارويه لغزو البيزنطيين، فسار من طرسوس وتقدم في أسيا الصغرى حتى بلغ طرابيزون وهزم الروم في عدة وقائع وعاد إلي دمشق بعد عدة اشهر محملا بالغنائم ، وعلى الرغم من ذلك فان خمارويه كان يملأه الغضب ناحية طغج، ذلك انه قد طلب منه قبل هذه الحملة أن يقبض على راغب والى طرسوس؛ إلا انه وجد منه كل الترحيب والمودة ،واشتركا معا في غزو الروم فاستحيا طغج بعد كل ذلك إلقاء القبض عليه، فما كان من طغج إلا أن عاد إلي خمارويه يلتمس منه الأعذار لامتناعه عن إلقاء القبض عليه[1]، وعزم خمارويه على الفتك به إلا أن وفاته حالت دون ذلك، وقيل أن طغج كان مع خمارويه ليلة مقتله في القصر وانه طارد الخدم الذين اشتركوا في ذبحه فقبض عليهم وأمر بذبحهم وصلبهم [2] .

وظل طغج واليا على دمشق وطبريه في عهد جيش ابن خمارويه إلي أن ثار القواد على جيش وولوا أخاه هارون بن خمارويه سنة 283هـ، إلا انه كان من الساخطين المنشقين عنه فكان في موضعه اقرب ما يكون مستقلا عن نفوذ الطولونيين بمصر، الأمر الذي دعا إلي خروج جيش طولوني من مصر ضده بقيادة بدر الحمامي ومعه الحسين بن احمد

([1]) حسن احمد محمود ، سيدة اسماعيل كاشف ، مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين ، القاهره ، 1960 ،ص 138 – 139 ؛ جمال فوزي ، عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح ، معالم تاريخ مصر الاسلاميه ، القاهره ، 2000 ، ص 164 – 165 .

([2]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 139 .

الماذراني، وعادت الشام إلي حظيرة الطولونيين بعد التوصل إلي تسويه سلميه مع طغج وإقراره في حكم دمشق من قبل هارون ، وظل يحكم إلي أن اصطدم بالقرامطه الذين هزموا جيوشه وجيوش مصر [1] وتشجع القرامطة فأقبلوا على حصار دمشق حتى اشرف اهلها على الهلاك .

وكما سبق الذكر استغل الخليفة المكتفي هذا الأمر والضعف الطولوني ليضرب القرامطه والطولونيين بضربه واحده، فأرسل إلي الشام بجيشا كامل العدة بقيادة محمد بن سليمان الكاتب [2] إذ ضعف أمر طغج داخل دمشق وقلت رجاله وتتابعت الكتب إلي بغداد بأن دمشق على شفا السقوط [3] ولما علم القرامطه بقدوم هذا الجيش بادروا بترك دمشق ولاسيما بعد أن دفع لهم أهلها مبلغا كبيرا من المال ثم انسحبوا إلي حمص وأدركهم الجيش العباسي وانزل بهم الهزيمة بالقرب من حماه سنة 291 هـ .

ولما كان طغج بن جف من القواد الطولونيين الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه ولم يعترفوا بخلفه شيبان بن احمد بن طولون فان هؤلاء القواد آثروا الاتصال بمحمد بن سليمان والذي سار إلي مصر للقضاء علي حكم بني طولون بعد أن أفلح في هزيمة القرامطة وقد انضموا فعلاً إلي الجيش العباسي، وكانوا ومن معهم من الجند عوناً للقائد العباسي في فتح مصر .

ويبدو أن محمد بن سليمان أراد أن يفيد من خبرة طغج بن جف أو أراد أن يتخلص من وجوده في مصر فبعث به والياً علي قنسرين وضم إليه جمعاً من جند بن طولون ولكنه لم يبق طويلاً في منصبه إذ أن محمد

([1]) فوزي ، عبد الفتاح فتحي ، معالم تاريخ مصر ، ص 165

([2]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 139 .

([3]) سهيل نكار ، الجامع في اخبار القرامطه ، ج 2 ، دمشق ؛ 1987 ، ص 604 .

بن سليمان عندما غادر مصر صحب معه إلي بغداد جملة من القادة الطولونيين وكان طغج وولداه من هؤلاء [1] .

ولما كان طغج ببغداد كان الوزير يومئذ العباس بن الحسن وكان يريد من طغج إذا لقيه في موكبه أن يترجل له؛ فلم يفعل فعمل العباس علي تأليب الخليفة المكتفي عليه بحجة انه من القواد الطولونيين وولائه لهم؛ وطغج ثابت علي موقفه بعدم النزول للعباس وعدم الترجل له فما كان إلا أن حبس طغج وولديه محمد وعبيد الله، فلم يزل محبوساً إلي أن توفي سنة 294 هـ [2] .ومما سبق يتبين أن طغج ذو عزة في نفسه لا تسمح له بالترجل للوزير العباس فان البعض رأي أن ذلك كان تكبراً وليس ترفعاً [3] .

وعلي اية حال بعد وفاة طغج أطلق سراح ولداه فلزما خدمة العباس يركبان بركوبه وينزلان بنزوله ويقفان بين يديه إلي أن جاء اليوم الذي شرع فيه الحسين بن حمدان علي قتله للعباس فضربه بالسيف علي عاتقه وصاح الحسين بن حمدان بمحمد بن طغج وأخيه عبيد الله " خذا

([1]) حسن احمد ، سيدة كاشف ، الطولونيين والاخشديين ، ص 140

([2]) ابن سعيد الاندلسي ، المغرب في حلي المغرب ، ج 1 ، تحقيق : زكي محمد حسن واخرون ، القاهرة ، 1953 ، ص 151 ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، مج 5 ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، 1994، ص 57 ؛ ابراهيم الابياري ، ابو المسك كافور ، القاهره ، 1962 ، ص 45 ؛ رزق الله منقريوس الصرفي ، تاريخ دول الاسلام ج 1 ، القاهره ، 1986 ، ص 375 – 376 ؛ أحمد عبد الرازق أحمد ، تاريخ مصر وأثارها الاسلامية ، القاهرة 1993 ، ص 141 .

([3]) الذهبي ، نزهة الفضلاء تهذيب سير اعلام النبلاء ، ج 15 ، تحقيق : محمد حسن عقيل موسي ، جدة ، 1995 ، ص 1122 ؛ ابن ايبك الصفدي ، تحفة ذوي الالباب= =فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، ج 1 ، تحقيق : احسان بنت سعيد ، زهير حميدان ، دمشق ، 1998 ، ص 345 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ،ج 3، ص 270 .

بثأركما " فتقدما وضربا العباس بسيوفهما وهرب الحسين إلي ديار ربيعه، أما عبيد الله بين طغج فهرب إلي شيزار فخدم أميرها ،وهرب محمد بن طغج إلي الشام وقصد بن بسطام عامل خراج الشام [1] .

ومن نافلة القول بأن نشأة محمد بن طغج والبيئة التي شهدها في تربيته واثناء صغره؛ لهو أمر غامض لا تذكره المصادر أو المراجع التاريخية وأول ما ذكر انه كان ينوب عن والده في طبريه حينما كان أبوه طغج واليا على دمشق وطبريه .

أما بعد وفاة أبيه طغج ؛ فانه خرج إلي الشام بعد قتل الوزير العباس حيث اتصل بن بسطام عامل الخراج فيها ،وكان يعاونه في شئون الصيد ويحمل له جـوارحه التى يصطادها حتى انه عرف بمـازيار بن بسطام، ولما تقلد ابن بسطام خراج مصر سنة 296 هـ، صحبه محمد بن طغج اليها ثم توفى ابن بسطام في العام التالي، وخلفه على خراج مصر ابنه ابو القاسم بن بسطام،وظل ابن طغج في خدمته حينا إلي أن عزل سنة 300 هـ من منصبه ،ثم اتصل بتكين والى مصر [2] ، وقيل أنه قصد مصر حين وجدها ميدانا لنشاط الفاطميين الرامي لغزوها ،وأن ذلك يشكل له ميدانا فسيحا ليظهر علي مسرح الأحداث الأحداث [3] .

صفوة القول أن محمد بن طغج جاء مصر واشترك في صد الحملة الفاطمية بقيادة حباسه بن يوسف الكتامي لسنة 302 هـ،وأبلى بلاء حسنا مما أدى إلي توثيق العلاقة بينه وبين الوالي تكين حتى أصبح

([1]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 151 -152

([2]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 140 – 141 .

([3]) احمد ابراهيم الشريف ، حسن احمد محمود ، العالم الاسلامي في العصر العباسي ، القاهره ، 1973 ، ص 433 .

كلاهما لبعض بمثابة الولد والوالد، ولما نحي تكين عن ولاية مصر وخرج إلي الشام خرج معه محمد بن طغج [1] .

وكما سلفت الاشاره فان تكين عقب حملة سنة 302 هـ عزل بواسطة مؤنس وخرج إلي الشام حيث ولى دمشق ولم يرجع لولاية مصر إلا بعد وفاة واليها ذكا الرومي أو الاعور عام 307 هـ وفي اثناء ذلك – اي ولاية دمشق – فان تكينا قد ولى محمد بن طغج على ولاية عمان وجبل الشراه وذلك في عام 306 هـ [2] ،وقيل ايله معهم [3] ومن المتفق ذكره في ولايته هذه على عمان وجبل الشراه نيابة عن تكين انه حدث أن مجموعه من حجيج الشام ومن ضمنهم جماعه من أهل العراق وفيهم جارية شغب ام الخليفة المقتدر، فاذا بجماعة من قبيلتي لجم وخذام يهددونهم ويشكلون خطرا عليهم فما كان إلا أن أنقذهم محمد بن طغج ومن معه مما احمد سيرته وزاد رصيده لدى الخلافة وكذلك تكين [4] .

ولما رجع تكين مصر ولاه الاسكندريه مما جعله يقابل الخطر الفاطمي لحملة عام 307 هـ فأبلى حسنا في صدها هي الأخرى؛ كذلك اتصل محمد بن طغج بالقائد العباسي مؤنس الخادم الذي قدم على رأس الجيش العباسي في العام 308 هـ لطرد الفاطميين من الأراضي المصرية،ولا ريب انه عمل منذ ذلك الحين على توثيق علاقته بكبار رجال الدولة والحكم ؛فاتصل بعائلة الماذرائي فعرف عن كثب أحوال البلاد

([1]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 141 .

([2]) احمد ابراهيم ، حسن احمد ، العا لم الاسلامي ، ص 434 ؛ علي ابراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 65.

([3]) شاكر مصطفى ، موسوعة دول العالم الاسلامي ورجالها ، ج 1 ، بيروت ، 1993، ص 345 .

([4]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 153 ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، مج 5 ، ص 57 ؛ سيد طه ابو سديره ، تاريخ مصر الاسلاميه ، سوهاج ، 2002 ،ص 159.

والأموال والضياع الموجودة لديهم فأفاد من ذلك في مصادرة قسط كبير منها .

كذلك تقلد محمد بن طغج حكم الحوفين الشرقي والغربي من الدلتا من قبل تكين [1] وقيل انه في أثناء ولايته للحوفين اظهر شراهة إلي المال، واقبل على مصادرة المياسير والاستيلاء على التركات [2] مثل تركه أمير الاسكندريه أبو اليمن أحمد بن صالح سنة 316 هـ، مما أدي إلي سخط تكين عليه مما رسم مظهر الشقاق والوحشة بينهما [3] .

فلما عين مؤنس الخادم أو المظفر محمد بن جعفر القرطي على الحسبة ثم الخراج في مصر مما اضر بالماذرائيين الذين اتهموه بالاختلاس من خراج البلاد مما ادى إلي عزل الخليفة المقتدر له فبادر القرطي بالاختفاء لدى محمد بن طغج الذي كان صديقا له منذ قدومه إلي مصر والذي افلح في تدبير خطه لإخراج القرطي من مصر وإنقاذه من الوقوع في أيدي الماذرائيين الذين كانوا يجدون في البحث عنه [4] وقيل انه فعل ذلك مكيدة في الماذرائيين [5] وسعيا منه في معالجه أو تفادي الأسباب التي أدت إلي مأساة أبيه فعمل أن يكون له حلفاء وأصدقاء لدى الخلافة [6] .

وعلى اية حال فان القرطي حمد له ذلك واستطاع أن يحصل له على تقليد من بغداد بولاية الرملة سنة 316هـ ؛ وعملا على تحسين

(1) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 141 .

(2) احمد عبد الرازق ، تاريخ مصر ، ص 147 .

(3) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 153 .

(4) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 141.

(5) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 154 .

(6) احمد السعيد سليمان ، تاريخ الدوله الاسلاميه ، القاهره ، 1969 ، ص 129 .

مركزه وبمساعدة القرطي في بغداد ولـي محمد بن طغج دمشق سنة 319 هـ [1] .

ويحدثنا ابن سعيد عن هروب محمد بن طغج الإخشيد إلي دمشق وانه استعمل الخديعة في ذلك الحين؛ وهرب وتمكن من دمشق ، وقيل أن تكين أرسل له كتابا يقول له فيه "*لو أعلمتني لاعنتك وعضدتك*" ويقول في فصلا منه (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت) ، فكتب إليه الاخشيد جوابا جاء فيه "*فهمت كتاب الأمير أطال الله بقاءه ما تلاه من القرآن والجواب ما أجاب به موسى الذي هو خير من الأمير ومني* (ففررت منكم لما خفتكم) [2] .

وعلى اية حال فان محمد بن طغج كان له من الأصدقاء في بغداد الكثير، وكان محبوبا عند أهلها فرحبوا بتوليته عندما وليها ودخلها أحسن دخول كما استطاع أن يوطد لنفسه في دمشق كما اتيح له أن يكون لنفسه قوة عسكريه يستعين بها عند الشدة في صراع السلطات الدائر آنذاك، كما اجتمع حوله اخوته عبيد الله والحسن والحسين وعلي بنو طغج كما رزق بأول أبناءه أبو القاسم انوجور بدمشق سنة 319 هـ .[3]

- <u>الولاية الاولى على مصر</u>

عند الحديث عن الولاية الأولى لمحمد بن طغج الاخشيد على مصر وجب تناول خمسة عناصر وهم : الخليفة القاهر ومحمد بن تكين والماذرائيين ومحمد بن طغج واحمد بن كيغلغ .

([1]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 141 .

([2]) المغرب ، ج 1 ، ص 155 .

([3]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 141 – 142 ؛ احمد عبد الرازق ، تاريخ مصر ، ص 147 .

اما العنصر الاول وهو الخليفة القاهر بالله الذي عرف عنه انه كان قاسيا فاسد الأخلاق سيئ النية؛ حتى أن الذين أجلسوه على العرش سخطوا عليه ثم خلعوه [1] وسملت عيناه فكانت مدة خلافته من سنة 320هـ إلي 322 هـ [2] ، وكان هو الخليفة وقت ولاية محمد بن طغج الاولى على مصر، وتولى بعده عرش الخلافة الراضي بالله [3] ، .

أما العنصر الثاني وهو محمد بن تكين ، فعندما توفى تكين استخلف ابنه محمد على الولاية وبالطبع لم يعجب الأمر ابي بكر الماذرائي وبالطبع تطور الأمر إلي صراع بينهما؛ فمن ناحية محمد بن تكين نجد انه لما خرج مع تابوت أبيه إلي الشام أرسل إلي بغداد يطلب إقراره على مصر وبالفعل جاءه تقليد الخلافة وعاد إلي مصر ليطالب بحقه ويدخل في صراعه مع الماذرائي .

([1]) سيد امير علي ، مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ، ترجمة : رياض رأفت ، القاهره ، 2001 ، ص 258 – 259 .

([2]) القلقشندي ، صبح الاعشا في صناعة الانشا ، ج 3 ، القاهره ، 1938 ، ص 257؛ احمد امين ، ظهر الاسلام ، ج 1 ، القاهره ، 1999 ، ص 30 .

([3]) هو محمد بن جعفر المقتدر ولد عام 297 هـ وامه ام ولد تدعى ظلوم يكـن ابـا العباس بويع بالخلافه بعد خلع عمه القاهر وذلك عا م 322 هـ وكان سمحا كريمـا اديبا شاعرا فصيحا محبا للعلماء له شعر مدون وسمع الحديث من البغوي ، للمزيـد انظر : محمود شاكر ، التاريخ الاسلامي ، ج 1 ، بيروت ، 1991 ، ص 131 ؛ مـن شعره

لا تعذلي كرمي على الاسراف	ربح المحامد متجر الاشراف
اجري كأباتي الخلائف سابقا	واشيد ما قد اسست اسلافي
اني من القوم الذين اكفهم	معتادة الاخلاق والاتلاف

للمزيد انظر : مغلطاي ، مختصر تاريخ الخلفاء ، تحقيق : اسيا كليبان على البـارح ، القاهره 2000 ، ص 137 .

أما العنصر الثالث وهو الماذرائيين ويتمثل هاهنا في ابي بكر الماذرائي والذي أصبح الأمر كله في يده بعد وفاة تكين على أن الجند ثاروا عليه مطالبين بعطائهم واحرقوا دوره ودور اهله ودور كثير من أتباعه، وقبضوا على بعض الموظفين من قبله مما ادي إلي انتشار الاضطرابات في البلاد ، وإذا كان محمد بن تكين قد أرسل لبغداد يطلب اقراره على مصر ، فان الماذرائي أرسل يلتمس أميرا وليس طلبا لنفسه فالماذرائيون كانوا يؤثرون أن يحكموا مصر فعليا لا اسميا فكانوا يريدون أن يكونوا لوالي كأمير الأمراء لدى الخليفة ، وقد تسلم الماذرائي ردا " بتفويض أمر مصر ورد تدبيرها إليه وأن يولي من يختاره " ، ولا شك أن مثل هذا الفعل إنما كان غرض الخلافة منه أن يتنافسا فلا يستتب احدهما بالأمر ويقوم بتجربة على غرار التجربة الطولونية .

وعلى اية حال فان الماذرائي قد استعاد مركزه في إدارة مصر، وعندما أراد محمد بن تكين أن يدخل مصر مزودا بالتقليد الذي جاءه بولاية مصر لم يعترف به الماذرائي وجمع جيوشا من الجنود المغاربه وراح يحاول منع ابن تكين من دخول البلاد وبقيت البلاد بدون والي؛ فكلاهما يتصارعان حتى يجهز احدهم على الاخر .[1]

اما العنصر الرابع وهو محمد بن طغج فانه لم يزل بدمشق إلي أن توفي تكين بمصر وسعى لدى الخلافة بان يتقلد ولاية مصر بإرسال كاتبه علي بن محمد بن كلا إلي الخليفة القاهر إلا أنه رفض بحجة انه سبق وولاها لمحمد بن تكين ن فلم يزل الأمر على ذلك حتى كحل الــقاهر وسملت عيناه .

وهنا يذكر ابن سعيد قصه تكاد تقتصر على ذكره مؤداها انه لما كحل القاهر وسمل ركن بن كلا سرا إلي بعض كتاب القاهر ومقابل عشرة الاف درهم استخلص منهم أمر من القاهر تفيد بولاية محمد بن

([1]) سيده كاشف ؛ مصر العصر الاخشيدي ، ص 42 – 43 .

طغج إلي مصر .وسواء صدقت هذه القصه ام كذبت فقد حدث الأمر وجاء كتاب القاهر بتولية محمد بن طغج على ولاية مصر . [1]

على أن الرياح لم تأت بما تشتهيها سفن بن طغج ، إذ أن اضطراب الأمور سواء في مصر أم بغداد مركز الخلافة لم يدع للاستقرار سبيلا ولم يدخل محمد بن طغج مصر في ولايته الاولى وظل في دمشق ولكن يدعى له على منابر مصر .

وظل الحال على ذلك نحو اثنين وثلاثين يوما اي من يوم السابع من رمضان إلي التاسع من شوال لسنة 321 هـ ثم جاء كتاب من بغداد بتولية احمد بن كيغلغ على ولاية مصر لتكون هذه المرة الثانية له، وليـكـون بن كيغلغ هو العنصر الخامس في ولاية محمد بن طغج الاولى القصيرة على مصر [2] .

الولاية الثانية والدولة الاخشيديه :

سبق القول ان الماذرائي لم يكن ليرضى أن يكون محمد بن تكين واليا على مصر باستخلاف أبيه له حتى ولو كان الاستخلاف على مرآى ومسمع من الخليفة القاهر القائم بأمر الخلافة حينها ، وسبق القول أيضا أن ابن تكين طلب إقراره على مصر ورجع لمصر بان أعلن أن الخلافة اقرته، ولكن الماذرائي لم يقبل ذلك وانكره

ولم يفصل الأمر ما حدث من تولية لبعض الأمراء امثال محمد بن طغج ولاية مصر التي لم يدخلها أو من بعده ولاية احمد بن كيغلغ الذي لم يأتي فور توليته وإنما سبقه إليها نائبه الذي استخلفه في ولاية مصر لحين قدومه هو وتسلمه زمام الأمور [3] .

([1]) المغرب ، ج 1 ، ص 156 .

([2]) سيده كاشف ، مصر العصر الاخشيدي ، ص 43 .

([3]) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ج 3 ، ص 276.

ولم تكن البلاد بأحسن حال من قائدها المجهول ؛ إذ كان جندها ثائرين من اجل عطائهم بل وتطور الأمر أن احرقوا دار الماذرائي ودور ذويه وانقسم الجند لفرقتين، فرقة المشارقه بقيادة حبكويه وفرقه المغاربه بقيادة حبشي بن احمد ونشبت الحرب بينهما في الخامس من ذي الحجه سنة 321 هـ [1] .

كل ذلك يجري ويأتي محمد بن تكين لينادي بالولاية له مستمسكا بتقليد القاهر له فما كان إلا أن ذهب لابن تكين من يؤيده ، ومن ناحية اخرى يذهب للماذرائي من يؤيده ويؤيد ولاية ابن كيغلغ مثل المغاربه وقائدهم حبشي فاشتبك الفريقان إلي أن جاء احمد ابن كيغلغ في الثالث من شهر رجب سنة 322 هـ وانضم إليه بعضا من اتباع ابن تكين فشعر أن امره قد ضعف ففر هاربا من مصر ليكون بذلك مقام تكين في مصر قبل خروجه منها مائة واثنى عشر يوما .

وراح ابن كيغلغ ينظم أمور البلاد ثم يأتي عليه خبر بخلع القاهر وتولية الراضي خليفة ثم يأتي بن تكين مرة اخرى مدعيا أن الخليفة الجديد ولاه مصر [2] وترجع المصادر مسألة الولاية لمحمد بن تكين بانه ذكر أن " الخليفة الراضي قلد مصر لمحمد بن تكين وقال : هذا ابوه غلام ابي وجدي " [3] .

وانضم المغاربه لابن كيغلغ واشتبكوا مع عسكر محمد بن تكين بالقرب من الفسطاط فانهزم المغاربه ولكن ليس بالهزيمة الساحقة التي تبطل تأييدهم لابن كيغلغ ، ومن ناحية اخرى كان حبكويه كبير المشارقه قد انضم إلي ابن تكين الذي عقد له ولأحمد بن بدر السميساطي ألفا من

([1]) عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندريه وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندريه، 1982 ، ص 174

([2]) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ج 3 ، ص 277 .

([3]) المغرب ، ج 1 ، ص 157 .

الجند لمحاربة المغاربه [1] إلا أن النصر الأخير كان لصالح احمد بن كيغلغ أما ابن تكين فقد اسر ونفى إلي الصعيد واستقر ابن كيغلغ بحكمه إلا أن التدبير الفعلي للأمور كان في يد الماذرائي واولاده ولم يكن لابن كيغلغ معهم أمر ولا نهي [2] .

ازاء هذا الوضع المتردي في مصر وكذلك الشام ما كان من الخليفة الراضي إلا أن ندب الفضل بن جعفر وزيرا وكلفه بكشف الأحوال في مصر والشام وتدبير امورها واعطاه صلاحيات كبيره [3] وكان ذلك في حد ذاته تغيراً خطيراً بالنسبة للجميع، فمن ناحية كان بنو الفرات يكرهون الماذرائيين ويحسدونهم ويبغون القضاء عليهم، وزاد هذا الخطر عندما تصاهر كلا من الفضل وبن طغج عندما تزوجت ابنة محمد بن طغج من جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات ، فاستعمل الفضل السلطة المطلقة التي منحها في تدبير امور مصر لتعيين محمد بن طغج عليها مرة اخرى [4] وبالطبع كان المستفيد الاول في كل هذا هو محمد بن طغج نفسه والذي اعطى الأمر حق قدره فراح والفضل يرسمان طريقهما في سرية شديدة من اجل أن تكون النتيجه النهائيه مصر بالنسبه لابن طغج والقضاء على الماذرائيين بالنسبة للفضل بن الفرات وبنو الفرات عامة [5] وحسبنا في هذا التخطيط السري ما أورده ابن سعيد من رواية فحواها مقابله شديدة السرية تمت بين الوزير بن الفرات ومحمد بن طغج في دمشق وكيف جاء بن الفرات متخفيا في زي التجار وكيف جاءه الاخشيد دون جلبه حتى لا

---

(1) عبد العزيز سالم ، الاسكندريه ، ص 174 .

(2) سيده كاشف ، العصر الاخشيدي ، ص 44 .

(3) الزيود ، العلاقات ، ص 279 .

(4) سيده كاشف ، مصر العصر الاخشيدي ، ص 44 ؛ Moshe Gil , A history of Palestine , London , 1997 , p 317 .

(5) الزيود ، العلاقات ، ص 280 .

يلفت الانظار إليه ثم اجتمع كلاهما معا ،واتفقا على ما ارادا ثم انصرف الاخشيد إلي داره ، اي أن الأمر تم بعد تخطيط محكم لتأتي في النهاية النتيجة المرجوة " مصر " .[1]

وبدأ الأمر أن كتب الاخشيد قبل قدومه إلي مصر إلي ابي بكر محمد بن علي الماذرائي يطلب إليه أن يتركه يدخل مصر بجيشه على أن يظل للماذرائي إشرافه على الإدارة في البلاد ولكن الماذرائي كان يعلم انه لن يكون له مع الاخشيد ما كان مع سائر الولاة من الأمر والنهي فلم يجبه، مما اضطر محمد بن طغج إلي اللجوء للطريقة الأخرى وهي القيام بالجيش والاستيلاء على البلاد عنوة [2] .

وقام الماذرائي واحمد بن كيغلغ بعرقلة الطريق ليس على تيسير دخول بن طغج مصر وإنما أيضا على العمال والموظفين المعينين من قبل الفضل بن جعفر [3] مثل احمد بن نصر الذي ولاه الفضل خراج مصر ولكنه لم يستطع الحصول على منصبه لأنه لم يستطع دخول البلاد أصلا فقد منعته قوات الماذرائي وابن كيغلغ [4] ، كذلك ارسل الماذرائي وفدا إلي ابن طغج يحمل كتب الخلافة وتفويضها للماذرائي بأعمال مصر، وفي مدينة الفرما التقى هذا الوفد بمحمد بن طغج فما كان إلا أن نصحهم بالذهاب إلي الوزير الفضل بن الفرات المفوض بالأمر الخلافي الذي كان موجودا حينها بالرمله حيث اعتقلهم هو هناك .

وحشد الطرفان قواتهم كبداية للصدام المسلح بينهما ففي البر تقدم محمد بن طغج بجيوشه وخرج احمد بن كيغلغ بتوجيه من الماذرائي على راس قوة كبيرة قدرت بثلاثين ألفا تساعدها القوة المغربية بقيادة زعيمها

([1]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 158 .

([2]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 145 .

([3]) الزيزد ، العلاقات ، ص 281

([4]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 157

حبشي ، ومن جهة البحر كان الأسطول الذي أرسله محمد بن طغج [1] والذي لم تزودنا المصادر أو المراجع التاريخية عنه أية معلومات أو عن أعداده اللهم إلا أن المراكب المستخدمة كانت من العشاريات [2] ،وهذا الأسطول استطاع بقائده صاعد بن كلملم أن يدخل تنيس ويتملكها ويتقدم حتى دمياط ويلحق الهزيمة بعلي بن بدر ومراكبه التى أرسله بها الماذرائي لقتاله؛وكانت الهزيمة بأرض سمـــنود في التاسع عشر من شهر شعبان سنة 323 هـــ [3] واستطاع جيش ابن طغج أن يصل إلي جزيرة الروضة أو كما يصطلح تسميتها جزيرة الصناعة .

اما القوة البرية والتي كان على رأسها محمد بن طغج والتي سارت باتجاه مصر فقد لاقت مقدمتها جنود بن كيغلغ والماذرائي ودحرتها؛ كما انضم عددا كبيرا من جنودها إلي ابن طغج ،وأخيرا وليس آخرا الانقسام الموجود أصلا بين الماذرائي وابن كيغلغ الذي لم يكن له من الأمر شئ لتسلطه عليه [4] واستبداده بتدبير الأمور في مصر هو وأسرته، ولا أمر لابن كيغلغ ولا نهي معهم ، بل انه تحجج لمحمد ابن طغج بان ما كان من مقاومه إنما كانت أمورا من غير إرادته .

أما الماذرائي رأس المقاومة ضد محمد بن طغج فقد اضطر إلي الاختباء والتخفي فترة من الزمن في حين ظهر ابنه الحسين بن محمد الماذرائي مشاطرا لابن كيغلغ في رايه معضدا له في التسليم لمحمد بن طغج ،مما حد بالبعض بوصف ذلك التصرف من قبل الماذرائي بالانتهازية لدي الماذرائيين وملاينتهم للحكام؛ حتى يكون لهم من الجاه والسلطان

---

(1) الزيود ، العلاقات ، ص 287 .

(2) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 158.

(3) المقريزي ، المقفى ، ج 5 ، ص 746 – 747 .

(4) الزيود ، العلاقات ، ص 287 .

شأنا [1] وهكذا دخل محمد بن طغج الفسطاط في أواخر شهر رمضان سنة 323هـ/ 935م وأقدمت عساكره على نهب المدينة لمدة يومين ثم توقفوا إذ نودي أن من نهب قتل [2] .

وعلى اثر دخول ابن طغج الفسطاط غادر مصر بعض القادة الذين وقفوا ضده واشتركوا في قتاله وعلي رأسهم حبشي بن احمد قائد القوة المغربية [3] وكذا بجكم وعلي بن بدر ونظيف الموسوي وعلي المغربي [4]، واتجه هؤلاء جهة الفيوم فأرسل محمد بن طغج قوة بقيادة قائده صعد بن كلملم [5] وبالفعل استطاع صاعد أن يلحق بهم في مراكبه في خليج الفيوم إلا انه نظرا لضيق الخليج وعدم المرونة الكافية لحركة مراكبه قتل وقتل عددا من اتباع ابن طغج [6]، ولما بلغ الاخشيد قتل صاعد لم يظهر عليه الغم إذ استراح منه رغم اعتماده عليه في اخذ مصر [7] وعلى اية حال فان حبشي اتجه إلي الاسكندريه أما علي بن بدر وبجكم اخذا مراكب صاعد إلي جزيرة الروضه حيث احرقوا ما كان بها من سفن، ولم يستطع ابن طغج أن يردعهم في ذلك ثم انحدروا بعد ذلك إلي الاسكندريه ثم برقه، وكتب الهاربون إلي الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله صاحب افريقيه يستأذنونه الدخول في طاعته ويحرضونه على الاستيلاء على مصر مهونين له الأمر [8] وانهم يعلمون وجوه الحرب وكيف الوصول اليها [1]

([1]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 145 – 146 ؛ الزيود، العلاقات ، ص 281 – 282 .

([2]) الزيود ، العلاقات ، ص 282 .

([3]) الزيود ، العلاقات ، ص 282 .

([4]) الكندي ، ولاة مصر ، ص 303 .

([5]) الزيود ، العلاقات ، ص 282 .

([6]) عبد العزيز سالم ، الاسكندريه ، ص 175 .

([7]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 160 .

([8]) عبد العزيز سالم ، الاسكندريه ؛ ص 175 – 176 .

وبينما هم في ذلك توفى حبشي بقرية تسمى الرماده ببرقه في صفر سنة 324 هـ قبل أن تصل جيوش الفاطميين .[1]

ومن ناحية اخرى علم ابن طغج بأمر الفاطميين فتأهب لاستقبال هذه الحملة وأمر بإخراج عساكر مصر إلي الاسكندريه والصعيد ، وتم ذلك في ربيع 324 هـ، واقبلت عساكر الفاطميين بقيادة يعيش الكتامي وابي تازرت الكتامي وانضمت اليهما فرقة المغاربة المعسكره ببرقه بقيادة بجكم ودخلوا مدينة الاسكندريه في ربيع الاخر، وبالطبع لم يكن ابن طغج لينتظر هذا الخطر حتى يأتيه الفسطاط فأرسل اخاه الحسن بن طغج والقائد صالح بن نافع على رأس جيوشه إلي الاسكندريه في الثاني والعشرين من ربيع الاخر واشتبك الجانبان فيما بين تروجه وابلوق وهو موضع جنوبي مريوط وكانت الهزيمة الساحقة على رأس المغاربه وحلفائهم؛ إذ قتل وأسر عدد كبير منهم ،وكان القائد يعيش من بين القتلى، وتمكن الحسن بن طغج وصالح بن نافع من دخول الاسكندريه فتتبعوا المغاربه فيها بالقتل وفر بجكم واتباعهما إلي برقه حيث اقاما في حماية صاحبها القائم فترة إلي أن استأمنوا محمد بن طغج في الرجوع إلي مصر فأمنهم وذلك في سنة 328 هـ .[2]

ثم قفل الجيش مع الحسن بن طغج وصالح بن نافع فنزلوا الجيزه ومعهم الاسرى وذلك في جمادي الاول سنة 324 هـ فطيف بهم أول يوم من جمادي الاخر؛ وفي اواخر المحرم من سنة 327 هـ جاء الفضل بن جعفر بن الفرات مصر ونزل الفسطاط [3] إذ جاءه بالخلع من الخليفة الراضي بولايته على مصر فلبسها وقبل الارض [4] وورد في كتاب الراضي

([1]) الكندي ، ولاة مصر ، ص 305 .

([2]) عبد العزيز سالم ، الاسكندريه ، ص 176 – 177 .

([3]) الكندي ، ولاة مصر ، ص 306 .

([4]) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ج 3 ، ص 288 .

أن يلقب محمد بن طغج بالإخشيد ودعي له بذلك على المنبر في شهر رمضان سنة 327 هـ [1] .

ولقب " الاخشيد " هو الذي تنسب إليه الدولة الاخشيديه وهو اللقب الذي منحه الخليفة العباسي الراضي بالله لمحمد بن طغج في سنة 326هـ على رأي، وفي رأي اخر في 327 هـ وذلك بناء على التماس محمد بن طغج [2] إذ ارسل للخليفة الراضي يطلب تلقيبه بالإخشيد، فسأل الراضي عن المعنى ، فأجابوه بأنه ملك الملوك ، فعرف الراضي بذلك ولم يبخل على محمد بن طغج وكتب إلي الاخشيد محمد بن طغج بذلك [3] .

وقد ذهب البعض أن محمد بن طغج اتخذ هذا اللقب لانه كان من نسل ملوك فرغانه وامرائها لكن هذه النسبه لملوك فرغانه ليست ثابته كل الثبوت وانها أن دلت على شئ فانها تدل على النسب للإقليم نفسه " إقليم فرغانه " ولعله بهذا اللقب اراد أن يعلي من شأن اسرته [4] فقد كان يعلم جيدا مدى قيمة هذا اللقب في موطن ابائه باسيا الوسطى [5] .

كما انه بوجه عام كان للألقاب في الدولة العباسية شان عظيم وذلك كصدى للتغير الذي طرأ جراء دخول العناصر الجديدة للدولة والاقتباس من ثقافات الغير ،كذلك كانت هذه الالقاب دليلا على اتساع دولة الإسلام وصفة العالمية التي اتصفت بها الدولة العباسية [6] .

---

(1) الكندي ، ولاة مصر ، ص 306 .

(2) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 137 .

(3) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 173 .

(4) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 138 .

(5) بوزورث ، الاسرات الحاكمه في التاريخ الاسلامي ، ترجمة : حسين علي اللبودي، الكويت ، 1995 ، ص 18 .

(6) حسن الباشا ، الالقاب الاسلاميه في التاريخ والوثائق والاثار ، القاهره ، 1989 ،ص 59-

وبالنسبة لمحمد بن طغج فقد سيطر على مقاليد الأمور ، فكانت ولاية مصر مقسمه إلي قسمين : والي الحرب والصلاة ، وآخر للخراج وتدبير الأموال ، وكان ابن الفرات في مصر يمسك الأموال والخراج أما بن طغج فالحــرب والصــلاة ، وعندما خرج ابن الفرات من مصر جمع بن طغج الولايتين واستقام له الأمر[1] ، ولم تقتصر منافع الاخشيد هنا فقط،فقد تخلص من منافسين اقوياء وصادر من أموال الماذرائيين ما أفاده في بداية عهده ومكنه من تثبيت مركزه في مصر بسرعة فائقه [2] .

ومن نافلة القول أنه وجب علينا ذكر بن الفرات ومصيره، فانه في عام 326هـ استدعاه الراضي لتولي مهام الوزاره في بغداد ولكن التوفيق لم يكن حليفه لما كان يحف به هذا العمل من دسائس ، فاستأذن الخليفة الراضي بالعودة إلي مصر والشام والإشراف على مواردهما كما كان من قبل فأذن له الخليفة بذلك ، على أن الأمر لم يطل به كثيرا إذ توفى بالرملة في الثامن من جمادي الاول سنة 327 هـ (939 م) .[3]

بقى أن نذكر نقطه تختلف بها الآراء وهي سبب تولية محمد بن طغج مصر من الأساس فبغض النظر عن العلاقة التي تربط الاخشيد بابن الفرات وازدواج مصالحهما معا ؛كانت هناك أراء اخري تصب نتيجتها في النهاية بولاية الاخشيد على مصر ،لتكون الولاية الثانية بداية الدولة الاخشيديه في مصر منذ خروج ابن الفرات منها وجمع الاخشيد الأمور في يده .فقد ذهب البعض من زاوية أن محمد بن طغج استولى على البلاد واضطرت بدورها أن تقر الأمر الواقع فثبتته على مصر [4] في حين ذهب

([1]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 163 .

([2]) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الرافعي ، مصر العصور الوسطى ، ص 141 .

([3]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 158 .

([4]) الـــــــــزيود ، العلاقات ، ص 284 .

آخرون إلي أن ولاية مصر لمحمد بن طغج كانت مكافأة له أو نتيجة علي تمكنه من إلحاق الهزيمه بالفاطميين [1] .

هكذا حقق بن طغج حلمه في حكم مصر والشام ومكن لنفسه فيهما وبدأ ينظم امورهما ،والتفت بعد ذلك إلي تدعيم مركزه الاقتصادي في مصر والشام، وتشهد السكة التي قام بضربها بتحسن الأحوال الاقتصادية فقد سك الدينار الإخشيدي على عيار كامل حيث أمر بإصلاح النقود التي فسدت بعد العهد الطولوني .[2]

ونختم بذكر ممتلكات الاخشيد وما تقلده طبقا لما ورد في خطابه إلي امبراطور الدولة البيزنطية في عام 325 هـ [3] اي بعد عامين من ولايته على مصر وهي كما ورد في خطابه " ممالك اليمن ،واجناد الشام التي منها جند حمص ،وجند دمشق، ومنها جند فلسطين، إضافة إلي أمر مكه المحفوفة بالآيات الباهرة، ومنها مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم المقدسة بتربته وانها مهبط الوحي وبيضة هذا الدين المستقيم الذي امتد ظله على البر والبحر .... " [4] .

([1]) احمد ابراهيم ، حسن احمد ، العالم الاسلامي ، ص ص 434 – 435 ؛ يوسف العش ، تاريخ عصر الخلافة العباسية ، دمشق ، 1982 ، ص 150 ؛ ابراهيم احمد العدوي ، مصر الاسلاميه ، القاهره ، 1991 ، ص 123 ؛ صبحي عبد المنعم ، العلاقات بين مصر والحجاززمن الفاطميين والايوبيين ، القاهره ، 1993 ، ص 34 ؛ عصام الدين عبد الرؤف الفقي ، دراسات في تاريخ الدوله العباسية ، القاهره ، 2001، ص 195؛

Hassan Ibrahim Hassan , Islamic history and culture , London , 1968 , p 219 .

([2]) الزيود ، العلاقات ، ص 285 .

([3]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 153 .

([4]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 169 ؛ فيليب حتى ، تاريخ العرب ، بيروت ، 1986 ، ص 530 ؛ شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات المستقله ، القاهره ، 1990 ، ص 19 – 20 .

تغير السياسة الفاطمية مع الاخشيد :

لم ينته الطريق أمام الفاطميين بعد هذه الهزائم الثقيلة التي نالتهم كلما حاولوا الاستيلاء على مصر، فليس شرطا أن تكون الحرب والسيف هي الوسيلة دائما من اجل تحقيق المبتغى، لذا لم يتخل الفاطميون عن عزمهم واستمروا في دعايتهم بنشاط سواء كانت هذه الدعاية دينيه أو سياسية محضه [1] ورغم الهزيمة العسكرية إلا أن الدعوة لمذهبهم كانت تنجح يوما بعد يوما وتجد لها الأتباع ،ومع كل حمله فاطمية جاءت كان يلازمها دعاة لنشر المذهب الشيعي الفاطمي وأيد هؤلاء الدعاة أعوانهم الذين اعتنقوا هذا المذهب في مصر؛ ولا أدل من انضمام بعض الزعماء المصريين إلى الحملة الفاطمية التي أنفذها الخليفة القائم بن عبيد الله إلى الاسكندريه 323 هـ،بل قبل هذه الحملة أيضا لا ننسى المتعاطفين مع الفاطميين في الحملات الأولى من قبطي وغير قبطي .

لذلك غير الفاطميون من سياستهم مع حكام مصر بما ينطوي على الود واللين [2] بل أن القائم الفاطمي فكر في انتهاج أسلوب اللين مع الاخشيد بعد حملة عام 323 هـ [3] .

وبدأت العلاقة الدبلوماسية بين الاخشيد والفاطميين في عهد القائم الفاطمي ثاني الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب؛ فقد كتب هذا الخليفة إلى الاخشيد خطاب يحثه فيه على نشر الدعوة الفاطمية في مصر [4] أو أن

([1]) سيمينوفا ، تاريخ مصر الفاطمية ، ترجمة : حسن بيومي ، القاهره ، 2001 . ص 38 .

([2]) محمد احمد محمد ، الاحداث السياسيه في مصر الاسلاميه ، القاهره ، 1999 ، ص 133 .

([3]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 175 .

([4]) على ابراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 207 .

شئننا قلنا يحثه وشعب مصر على إتباع الفاطميين سياسيا ومذهبيا والمطلع على هذا الخطاب المرسل من القائم الفاطمي إلى الاخشيد يلمس ذلك بوضوح .

فلما وقف الاخشيد على ما جاء احتج إلى رسول الخليفة الفاطمي انه لا يقرأ ولا يكتب ولا يجوز له أن يبوح بما في نفسه إلى كاتب وقال له : وأنا أتدبر الجواب فأجيب عنه ويصل مع من أثق به واسلك من حسن الموالاة ما لم يكن غيري يسلكه .[1]

ولا ريب في أن الاخشيد فهم مقصد الرسالة. ولكن ما الذي يدفعه إلى الخروج عن الخلافة العباسية رغم ضعفها الذي يسمح له بان ينعم بقسط وافر من الاستقلال من ناحية، كما .انه من المحتمل انه كان يكره أن يتخلى عن مذهبه السني ويلقي بنفسه فى أحضان الدولة الشيعية من ناحية أخري .

و لكن ليس معنى ذلك انه أغلق الباب أمام اللين الفاطمي، ولا أدل انه حينما لم يجد النصرة من قبل الخلافة في صراعه مع ابن رائق فكر في الدعوة للخليفة الفاطمي، وقطع صلته بالخليفة العباسي بإزالة اسمه من خطبة الجمعة لكن بعض أخصائه نصحوه بالعدول عن ذلك ، كذلك قيل انه ارسل بكتاب للخليفة الفاطمي القائم يعرض عيه زواج ابنته من ولي العهد الفاطمي ،وظن أن القائم سيرسل إليه من الهدايا والأموال ما يفتخر به ؛ لكن ظنه خاب وفسد مشروع المصاهرة [2] .

على أن العلاقه لم تستمر لينه كذلك زمناً طويلاً؛ فما لبثت أن توترت بعد وفاة الخليفة الفاطمي القائم وتولي ابنه المنصور الذي انشغل في القضاء على الثورات الداخلية التي قامت في بلاد المغرب في عهده ،

([1]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 176 .

([2]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 274 – 275

ومن ثم فشل مشروع غزو مصر أو على الأقل اعتراف الاخشيديين بسلطان الفاطميين .[1]

ومن ناحية أخرى اضطر الفاطميون إلى الرجوع ومراقبة الحالة في مصر عن كثب على الرغم من أن مطامعهم في فتح هذه البلاد كانت تشتد سنه بعد اخرى، فقد جذبهم اليها رخاؤها وثروتها ومركزها الجغرافي في قلب العالم الاسلامي فضلا عن يأسهم من استقرار الأمور في المغرب ورغبتهم في التقدم نحو الشرق لعلهم يستطيعون من مصر أن يسيطروا على الشرق الادنى ويسقطوا الخلافة العباسية .[2]

النزاع بين ابن رائق والإخشيد

وما لبث ابن رائـق أن وصل إلى إمرة الأمراء للخليفة العباسي، بل وطمع في ملك الشام كله؛ وما أن نظم احواله وأموره حتى شرع في تهديد الاخـشيـد [3] وبدأ الأمر بان طالب الاخشيد بمال أو أن شئنا تسميتها جزيه أو اتاوه على ممتلكات الاخشيـد في بلاد الشام إشارة إلى تبعية الشام لابن رائق وأن الاخشيد مجرد نائبا عنه فيها ، وهو أمر بالطبع لا يصح ولا يرضاه الاخشيد .

ولكن الاخـشيـد لم يبادر بالعداء من البدايه فقدم المال المطلوب إلى ابن رائق [4] إلا أن الاموال لم تكن إلا حجه يتذرع بـها ابـن رائـق للاستيلاء على الشام ، وفعلا وعلى الرغم من أن الاخشيد قام بدفع المال المطلوب إلا أن ابن رائق خرج إلى الشام على رأس جيش كبير [5] وتمكن

([1]) علي ابراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 210 .

([2]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 175 .

([3]) الزيود ، العلاقات ، ص 294 .

([4]) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الرافعي ، مصر العصور الوسطى ، ص 142 – 143 .

([5]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 147 .

من الاستيلاء علي حمص ومن بعدها دمشق وهزم واليها بدر بن عبيد الله الإخشيدي ،ثم سار إلى الرمله في اواخر ذي الحجه من سنة 327 هـ أو في اوائل سنة 328 هـ .

مثل هذا الخطر من ابـن رائـق كان لابد من التعامل معه بحرص وحكمه؛ فآثر الاخشيد أن يعرف موقف الخلافة من اعمال واعتداءات ابن رائق فكتب إلى ممثله في بغداد وهو المدعو علي بن احمد العجمي يطلب منه أن ينقل وجهة نظره حول هذا الأمر وكذا مطامع ابـن رائـق فـي الشام ومصر وتصرفاته وردود الاخشيد عليها ، كما انه ابان انه سيلتزم برأي الخلافة ويسلم لابن رائق الشام لو انه وليها من قبل الخلافة كما انه في نفس الوقت على استعداد أن يقاتل ابن رائق لو فوض بالامر .

وبالطبع لم يكن كلام الاخشيد إلا مناوره سياسيه اراد بها أن يستطلع رأي اصحاب النفوذ في بغداد ، إلا أن رسالته عندما وصلت إلى الخليفة لم ينطق ببنت شفه، وهنا قال امير امرائه بجكم " من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له " [1] .

وعندما علم الاخشيد استشاط غضبا وثار حنقه على موقف الخلافة وامر بالغاء الخطبه للخليفة العباسي واحلال اسم الخليفة الفاطمي مكانه وهذا العمل كان بمثابة خطوة تمهيديه للاعتراف بسلطان الفاطميين في مصر .

على أن المؤرخين مع اجماعهم على أن الاخشيد أمر بقطع الخطبه للخليفة العباسي فانهم لم يذكروا أن الدعوه اقيمت فعلا للخليفة الفاطمي، اذ لو قطعت لما ضن المؤرخون بموافاتنا بهذا الخبر لأهميته وخطورته [2] كما انه كما سبق القول نصحه اخصائه بالعدول عن هذه الخطوه لما لها من أخطار وعـقـبات ؛اقلها وقوف الخلافة مع ابن رائق

(1) الزيود ، العلاقات ، ص 294 .

(2) علي إبراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 209 .

ضد الاخشيد الذي سيكون في حكم الموالى للجانب الفاطمي؛ اذ أن ذكر اسم الخليفة في الخطبه وعلى السكه كان من اهم مظاهر الخلافة في الولايات الاسلاميه [1] والملاحظ أن السكه المضروبه على عهد الاخشيد والمسايره لعهد الراضي من سنة 323 إلى سنة 328 هـ وبعض الدنانير المضروبه باسم المتقي في سنة 329 هـ كلها تشهد بان الاخشيد كان لا يزال يدين بالطاعة المطلقة للخليفة العباسي حتى أن اسم الخليفة وحده كان هو الذي ينقش على العمله، اما منذ سنة 329 هـ فان الاخشيد كان ينقش اسمه مع اسم الخليفة على السكه كما يظهر من دنانير ضربت سنة 329 هـ و331 - 332 - 333 هـ ، وعلى الرغم من أن لدينا دينار من سنة 329 هـ نقش عليه اسم محمد بن طغج ومعه لقب الأمير الاخشيد ولسنا ندري هل حذف اسم الخليفة بقصد ام انه عيبا في صناعة الدينار، وحتى وأن كان الحذف مقصودا ؛فهذا يجعلنا نرجح بان الاخشيد فكر في الاستقلال التام عن الخلافة بعد صلحه مع ابن رائق ثم تبين صعوبة تحقيق ذلك فرجع عن الوقوف عند الاستقلال الذاتي [2]، وهو ما يرجح أن الاخشيد لم يخلع الطاعه للخليفة وأن الامر كله ربما كان ايحاءً من الاخشيد لمن حوله أو إرغاما منه للخلافة على التحرك ومحاولة إيقاف ابن رائق مهددا إياها انه قد يجد طريقه بسهوله إلى الفاطميين في حالة ايدت الخلافة ابن رائق كما ذهب البعض ،كما اتهم الخلافة بالتواطؤ مع ابن رائق في اعتداءاته على ابن طغج [3] كذلك إذا ما

([1]) علي ابرهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 209 .

([2]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 152 ؛ الزيود ، العلاقات ، ص 285 .

([3]) الزيود ، العلاقات ، ص 293 ؛ احمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والفاطمي ، الاسكندريه ، ب ت ، ص 141 ؛ علي ابراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 83؛ Hassan Ibrahim Hassan , Islamic history , p 220 .

نظرنا إلى عرض الاخشيد على الخليفة الفاطمي القائم زواج ابنته من ولي العهد المنصور وأن الخليفة الفاطمي رد عليه بما يوحي أن الاخشيد أصبح من اتباع الفاطميين اذ ورد في خطابه إلى الاخشيد :

" وصل كتابك وقد قبلنا ما بذلت وهي وديعه لنا عندك وقد نحلناها من بيت مالنا قبلك مائة الف دينار فتوصل ذلك اليها " [1]

أي أن الاخشيد لو كان قد خرج فعلا عن الخلافة العباسية لكان سمع واطاع وكان اخرج من بيت المال المائة الف دينار واذا فعل ذلك وكان الزواج قد تم فانه صادق في دعواه للفاطمي ، ولكن الامر كله مجرد تلويح للعباسيين انهم اذا ما هددوه بابن رائق؛هددهم بالتبعيه للفاطميين ولكنه لم يكن ليفعل لانه كما سبق وذكرنا لن يستفيد عندما يستبدل سيد ضعيف (العباسيين) يتمتع في رحابه بحكم شبه استقلالي بسيد قوي في مقتبل عمره وقوته (الفاطميين) يرغمه على فعل ما يريد وغير ذلك من الاسباب التي سبق ذكرها .

وبالعودة مرة اخرى للنزاع بين ابن رائق والاخشيد ، وجد الاخشيد انه لا محالة من الحرب فاعد عدته لقتال ابن رائق كما بعث بأسطوله إلى السواحل الشامية ثم استخلف على مصر أخاه الحسن وخرج هو على رأس جنده في بداية عام 328 هـ [2] ونزل الاخشيد بجيوشه إلى الفرما حيث كان ابن رائق قد اقترب [3]

فجرت بينهما بعض المناوشات ثم سعى الحسن بن طاهر العلوي بين الاخشيد وبين محمد بن رائق في الصلح ونفذ الاخشيد كاتبه محمد بن كلا للرمله للموافقه على شروط بينهما وتم الصلح على أن الرمله ومصر

([1]) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ج 3 ، ص 289 ، هامش 4 .

([2]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 148 .

([3]) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ج 3 ، ص 289 .

للاخشيد ومن طبريه ومن خلفها لابن رائق [1] وعاد الاخشيد إلى مصر في مستهل جمادي الاول من سنة 328هـ وبعد قدوم الاخشيد إلى مصر انتقض الصلح وسار محمد بن رائق من دمشق في شعبان من نفس السنة ميمماً وجهه شطر الديار المصريه [2] لعله أراد أن يأخذ الاخشيد على حين غره .

وعلى اية حال فانه وصل إلى الرمله في طريقه إلى مصر وبذل الاخشيد محاولات سلميه ليتفادى القتال لكنه لم ينجح ولم يكن هناك بدا من أن يخرج الاخشيد على رأس جيشه نحو الرمله، فالتقى الجيشان عند العريش في شهر رمضان ووقعت معركه عظيمه انهزم فيها الاخشيد في البدايه [3] ولكن الغرور والطمع استولوا على جنود ابن رائق الذين راحوا يسلبون وينهبون وانشغلوا به وظنوا أن الاخشيد انتهى امره ولكنه جمع قواته وعتاده وهجم بكل ما اوتي من قوه وهاجم محمد بن رائق وقواته وهم بغفله منه فانزل بهم هزيمه منكره [4] ووصل عدد الاسرى لدي الاخشيد حوالى خمسمائة أسير [5] وتمكن ابن رائق من الهرب والنجاه في سبعين من رجاله باعجوبه [6] أو على حد تعبير بن سعيد " على حشاشة نفسه " [7] .

وتابعت الجيوش الاخشيديه بقيادة ابي النصر الحسين بن طغج اخي الاخشيد ملاحقتها القوات المنهزمه التي اتجهت صوب دمشق وفي

([1]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 174 .

([2]) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ج 3 ، ص 289 .

([3]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 148 .

([4]) الزيود ، العلاقات ، ص 297 .

([5]) الكندي ، ولاة مصر ، ص 307 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ج 3 ، ص 290 .

([6]) الزيود ، العلاقات ، ص 297 .

([7]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 178 .

منطقة اللجون فاجأتها قوات ابن رائق بهجوم ادي لمقتل ابي نصر مع جمع كبير من جيشه واسر بعض مساعديه واخذوا إلى دمشق [1] ، في حين أن ابن العديم يذكر أن ابو الفتح مزاحم بن رائق وقع في الاسر فرجع محمد بن رائق في عدة يسيره ليفك اسره وفي خضم ذلك تم قتل الحسين بن طغج المكني بابو النصر .

ومن ناحيه اخرى سير الاخشيد كافور الخادم [2] من مصر ومعه الجيش فوصل إلى حلب فالتقى كافور بوالي حلب عن ابن رائق فهزمه كافور واسره واخذ منه حلب وولى عليها محمد بن مساور الرومي ثم عاد كافور إلى مصر [3] بعد أن انزل وعسكره الخراب والدمار في حلب والمناطق المحيطه بها التي كانت بظاهرها وبالغت في ايذاء الاهالي [4] .

وبناء على هذه المواجهه راي ابن رائق انه لا سبيل مع الاخشيد إلا الصلح ، فقام غسّل أخا الاخشيد، وكفنه وحنطه وحمله في تابوت وأنفذه إليه واعتذر ، وانفذ ابنه مزاحم إليه كي يقتص لاخاه ، ووصل مزاحم إلى فلسطين حيث محمد بن طغج موجود فأكرمه ورفعه وتزحزح له وسأله الجلوس فلم يفعل فوقف بين يدي الاخشيد وقال : بهذا امرت . فلما انصرف ، حمله على فرس له ،وأرسل إليه : ليس لقدره أرسلت به اليك ، ورده مع ابن طاهر إلى ابيه [5] .

([1]) الزيود ، العلاقات ، ص 297 .

([2]) كان للاخشيد غلمان كثيره واتباع وكان وجوههم بدر الكبير وشادن الصقلي ومنجح الصقلي وكافور الاسود وفاتك الفحل وبشرى وغيرهم ، للمزيد انظر : ابـن سـعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 164 .

([3]) زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 61 – 62 .

([4]) الزيود ، العلاقات ، ص 298 .

([5]) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، 178 .

وأفلحت الوساطة في الصلح بين الفريقين على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالي الرملة وعلى أن يدفع له الاخشيد جزيه سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار،وكان من مظاهر هذا الصلح أن تصاهر الفريقان فزوج الاخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق[1] ، على أن يبقى عبيد الله بن طغج عند ابن رائق في مقابل أن يوجد مزاحم بن رائق لدى الاخشيد [2] .ولم يلبث الاخشيد أن استرجع أملاكه في الشام ولكن عقب وفاة محمد بن رائق [3] .

- **محاولة نقل الخلافة إلى مصر ونهاية المتقي لله**

بعد عودة محمد بن طغج الاخشيد من الشام على اثر عقد صلحه الثاني مع ابن رائق وردت الأخبار في شعبان سنة 329 هـ إلى مصر بوفاة الخليفة الراضي وبيعة اخيه المتقي لله [4]؛الذي بويع له يوم الأربعاء العشرين من ربيع الاول من نفس السنة [5] ، ووصل كتاب للإخشيد منه باقراره على مصر ، والواقع أن اعتراف الخليفة كان لا يزال له شأنه عند العامة والخاصة، اذ انه بالرغم من ضعف الخليفة في بغداد إلا أن سيادته على الممالك الاسلاميه ظلت ماثله في الاذهان ولم يفقد معنى الخلافة ما كان له من القوه والسلطان؛ حتى أن بني اميه في الاندلس كانوا يقنعون بتسمية انفسهم بني الخلائف ولم يتخذوا لقب خليفه أو امير المؤمنين ثم جاء الفاطميون وكانوا اول من خرج على هذه

([1]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 148 – 149 .

([2]) الزيود ، العلاقات ، ص 298 .

([3]) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس والشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندريه 1966، ص 44 .

([4]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 178 .

([5]) ابن العمراني ، الانباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق : قاسم السامرائي ، القاهره 1999، ص 168 .

القاعده فلم يكتفوا بان يكونوا امراء ذوي سلطان دنيوي فقط بل ارادوا أن يكونوا هم الخلفاء الحقيقيين للنبي صلى الله عليه وسلم فاتخذو لانفسهم لقب الخلافة .

وعلى اية حال فان النزاع كان على اشده في بغداد حول منصب امير الامراء[1] فقد انفذ الخليفة المتقي "بجكم" إلى قتال الاكراد والديلم بنواحي واسط فمضى وهزمهم وفي عوده كان يتصيد فبادره كردي ورماه بحربه فوقعت في ظهره وخرجت من صدره ، وخلفه في منصبه ابي عبد الله البريدي الذي شغب الجند في عهده وثاروا عليه فهرب .

وشغر منصب امرة الامراء ،وكان ابا اسحاق القراريطي هو امير الامراء الجديد فقد استوزره الراضي إلا أن القراريطي لم يكن له طاقه على هذا المنصب اذ قال للمتقي : لا طاقة لي بالعسكر وانما انا كاتب فانظر فيمن يدبر أمر عسكرك ، فاختار المتقي كورتكين الديلمي وجعله امير الامراء وكان من الديلم الذين صعدوا مع البريدي من واسط .

وورد الخبر بقدوم ابي بكر محمد بن رائق من الشام إلي بغداد فخشى كورتكين أن يولي الخليفة ابن رائق امرة الامراء فطلب من الخليفة الاذن لرد ابن رائق فوافقه الخليفة لسانا واما قلبه فكان مع ابن رائق ، إلا أن ابن رائق استطاع أن يظفر بالمنصب مرة اخرى وأن يلقي القبض على كورتكين .

ومن ناحيه اخرى كان البريدي حينما هرب من بغداد انحدر إلى الاهواز وكاتب الديلم بني بويه وهون أمر الخلافة في اعينهم وحسن لهم قصد بغداد فامدوه بمائة الف من خيالة ورجالة الديلم ؛على انه لو تم فتحها يقتسمه البريدي والبويهيون ، فوصل الديلم إلى واسط ولم يقدم ابا عبد الله البريدي على الهجوم على بغداد فنفذ العسكر مع اخيه ابي

([1]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 149 .

الحسين بن البريدي [1] واستولى على بغداد وهرب المتقي وابنه وابن رائق إلى الموصل [2] وقيل أن ابو الحسين بن البريدي راسل الخليفة واقسم له انه لا يريد به سوءا وانما يريد مكان ابن رائق وهو منصب امرة الامراء [3] إلا أن ابن رائق لم يكن بحاجه لان يصرفه الخليفة عن المنصب فقد قتله الحسين بن حمدان في رجب من سنة 330 هـ واعتذر للخليفة وقال له : انما قتلته لاني علمت انه يريد الايقاع بك فقبل الخليفة عذره وقلده امرة الامراء ولقبه ناصر الدوله ثم سار المتقي وابن حمدان واخوته إلى بغداد حيث مكث في منصبه ثلاثه عشر شهرا [4] .

وان كان مقتل ابن رائق قد مهد لناصر الدوله منصب امير الامراء فانه مهد للاخشيد أن يسترجع الشام مرة اخرى ، اذ أن الاخشيد لما علم بمقتل ابن رائق سنه 330 هـ خرج مسرعا ودخل دمشق واصلح امورها ولم يعد إلى دمشق إلا بعد أن ثبت نفوذه في بلاد الشام [5] ولا ريب أن قتل ابن رائق واستقرار الحكم في الشام للاخشيد ونجاحه في تدعيم حكمه في مصر كل ذلك يعتبر حدا فاصلا في علاقته بالخلافه فقد اصبح من القوه بحيث استطاع في اخر ذي القعده سنة 331 هـ/ 942م أن يأخذ البيعه من قواده وجنده وذوي الراي في مصر لابنه ابي القاسم انوجور من بعده[6] .

([1]) ابن العمراني ، الانباء ، ص 170 .

([2]) ابي الحسن الروحي ، بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق : عماد احمد هـلال وآخرون ، القاهره ، 2003 ، ص 260 .

([3]) ابن العمراني ، الانباء ، ص 170

([4]) ابي الحسن الروحي ، بلغة الظرفاء ، ص 260 – 261 .

([5]) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الرافعي ، مصر العصورالوسطى ، ص 144 .

([6]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 150 .

وعلى اية حال فان الحسين بن حمدان كما سبق القول قتل ابن رائق لانه اراد أن يحل محله ،لذا خلع عليه المتقي وجعله اميرا للامراء ولقبه بناصر الدوله ولقب اخيه ابي الحسن علي بسيف الدوله وبعد ذلك تجهز ناصر الدوله وسار إلى بغداد ومعه المتقي ولما قارباها هرب عنها ابو الحسين بن البريدي وسار إلى واسط بعد أن اقام ببغداد ثلاثة اشهر وعشرين يوما ودخل المتقي بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيره ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لأخذها من البريدي فأقام ناصر الدوله بالمدائن وسير اخاه سيف الدوله لقتال البريدي فالتقى به تحت المدائن بفرسخين وكانت مقاومة البريدي شديده حتى انه هزم سيف الدوله ولكن ناصر الدوله بالامدادت التي ارسلها استطاعت أن تلحق الهزيمه بالبريدي لكن سيف الوله لم يتبع هذا الامداد إلى واسط فقد اصيب رجاله بالوهن والجراح إلا انهم لما استردوا عافيتهم سار سيف الدوله إلى واسط واخذها بينما فر البريدي إلى البصره وكان سيف الدوله يريد أن يتبع البريدي إلى البصره إلا أن قلة ماله منعته من ذلك كما انها انقصت من هيبته لدى جنده الاتراك واخيرا وليس اخرا هجم عليه بني بويه فهرب ولما سمع اخيه ناصر الدوله بذلك هرب هو الاخر من بغداد إلى الموصل تاركا منصب امرة الامراء شاغرا .

وبعد رحيل ناصر الدوله اختار المتقي لامرة الامراء اكبر قواد الديلم واسمه توزون [1] إلا أن العلاقه بين المتقي وتوزون لم تكن جيدة

([1]) المظفر ابو الوفا متغلب تركي كان من غلمان مرداويج بن زيار امير جرجان وكان احد المتآمرين عليه مع بجكم وآخرين سنة 323 هـ وقد هربا مع جماعتهم الاتراك= =فتوجه توزون إلى شيزار وكان يملكها عماد الدوله البويهي ولجأ بجكم إلى محمد بن رائق امير واسط حينها ثم التحق توزون ببجكم الذي ترأس الاتراك ودخل مع ابن رائق بغداد إلى بغداد سنه 326 هـ ، ولما قتل بجكم سنة 329 هـ انضم توزون إلى عبد الله البريدي واستولى معه على بغداد سنة 330 هـ ثم ولاه المتقي امرة الامراء

أو بمعنى اخر لم تكن احسن مما سبقوه بل على العكس كانت الأسوأ على الاطلاق .

واختلفت الاراء حول سبب هذا السوء في العلاقه بين المتقي وتوزون ، فهناك من ذهب إلى أن توزون لم يكن عنده شئ من حسن السياسه فاستوحش منه المتقي وخاف على نفسه لذا هرب إلى الموصل مستعينا بالحمدانيين [1] ، وهناك من ذهب إلى أنه خشى من المتقي أن يخلعه من منصب امير الامراء وأن الخليفة تآمر عليه وحاول مكاتبة البويهيين ليأتوا إلى بغداد [2] ، وهناك من ذهب إلى أنه لما احس بعظم السلطان الذي في يده لم يراع للخليفة حرمه حتى ضاق به فخرج من بغداد لاجئا إلى الحمدانيين [3] ، وهناك من ذهب إلى أن المتقي لما ساعد سيف الدوله الحمداني حينما كان ببغداد وطلب منه الاخير المال للتصدي لتوزون فان المتقي لم يبخل عليه في حين بخل سيف الدوله بقتال توزون فهرب وترك المتقي ، فحملها توزون للمتقي كذلك هناك من يتهم بطانة المتقي اي رجاله وخواصه بافساد العلاقه بين المتقي وتوزون خوفا على انفسهم ومصالحهم [4] .

ولم تاتي سنة 332 هـ حتى كان المتقي قد ترك بغداد خوفا من توزون إلى جهة ناصر الدوله بالموصل [5] إلا أن توزون لما بلغه ما حدث تبعه حتى وصل إلى تكريت حيث التقى بسيف الدوله وهزمه مرتين ثم

بعد ناصر الدوله فاصبح صاحب السلطان المطلق في العراق ، للمزيد انظر : عبد السلام الترمانيني ، احداث التاريخ الاسلامي ، مج 1 ، دمشق ، 1991 ، ص 590 .

(1) محمد الخضري بك ، الدولة العباسية ، القاهره ، 2003 ، ص 345 – 346 .

(2) ابراهيم الكروي ، البويهيون والخلافه العباسية ، الكويت ، 1982 ، ص 166 .

(3) احمد ابراهيم ، حسن احمد ، العا لم الاسلامي ، ص 299 .

(4) سيد عبد الفتاح بلاط ، امرة الامراء ، ص 150 .

(5) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج 1 ، بيروت ، 1996 ، ص 266 .

استولى على الموصل [1] وصادر من اهلها مائة الف دينار [2] فسار عنها بنو حمدان والمتقي إلى نصيبين [3] فالرقه * [4] .

والظاهر أن الخليفة رأى من الحمدانيين الملل والضجر، فعمل على الصلح مع توزون ولكنه في نفس الوقت كتب إلى الاخشيد يستحثه على المجئ ولقائه بالرقه وفعل الاخشيد، إلا انه لم يعبر نهر الفرات خشية من أن يلقى نفس مصير ابن رائق مع الحمدانيين فاضطر الخليفة إلى عبور الفرات للقائه [5] وتلاقى الاخشيد مع الخليفة المتقي واعظمه المتقي غاية الاعظام ،ووقف الاخشيد بين يديه وقوف الغلمان وفي وسطه سلاحه ثم ركب المتقي فمشى بين يديه الاخشيد فامره أن يركب فلم يفعل ولم يزل على تلك الحال مختلطا بالغلمان إلى أن نزل من ركوبه وحمل إليه الهدايا ومالا وحمل إلى ابي الحسين بن مقله عشرين الف دينار .

ولم يدع كاتبا ولا حاجبا إلا أبره [6] ويبدو أن الخليفة قد سر باخلاص الاخشيد وهداياه فقال له " قد وليتك اعمالك ثلاثين سنه فاستخلف لك اونوجور " فزاد الاخشيد الهدايا إلى الخليفة اعترافا بفضله عليه وعلى ابنه ،وهكذا حصل الاخشيد على تقليد جديد من الخليفة بولاية

([1]) الخضري بك ، الدوله العباسية ، ص 346 .

([2]) الذهبي ، دول الاسلام ، دول الاسلام ، ج 1 ، تحقيق : حسن اسماعيل مروه ، بيروت ، 1999 ، ص 303 .

([3]) الخضري بك ، الدوله لاسلاميه ، ص 346 .

* الرقه مدينه بالعراق مما يلي الجزيره وكل ارض ينبسط عليها الماء عند المد فهـي رقه وبه سميت المدينه والرقه واسطه بلاد مضر ومن مدنها لبرها وسروج وشمشاط وامر العين وغيرها ، للمزيد انظر : محمد عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، بيروت ، 1984 ، ص 270 .

([4]) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج 1 ، ص 266 .

([5]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 150 .

([6]) مسكويه ، تجارب الامم ، ج 2 ، القاهره ، ب ت ، ص 67 – 68 .

مصر وحق توريث امارتها لابنائه من بعده وأن كان هذا الحق قد حدد بفترة ثلاثين عاما ،والواقع أن هذا التقليد لم يكن له شأن عملى كبير وانما كان اقرارا للواقع واعطاءً لامتياز لم يكن الخليفة ليستطيع أن يمنعه اذ أن الاخشيد كان قد سبق واخذ البيعه لابنه قبل لقاء الخليفة .

ومهما يكن من الامر فان الاخشيد علم بيأس الخليفة وعزمه على العوده إلى توزون عدوه اللدود فعرض عليه أن يسير معه إلى مصر والشام ليكون ورجاله في خدمته فرفض الخليفة هذه الدعوه فعرض الاخشيد أن يقيم الخليفة في الرقه ويمده بالمال والرجال للدفاع عن سلطان الخلافة فرفض المتقي ، فعرض الاخشيد على الوزير ابن مقله أن يسير معه إلى مصر فرفض بن مقله مراعاة للخليفة .

ولعل الخليفة فقد ثقته من الاساس في القواد والزعماء واصبح لا ينتظر ألا يكرمه الاخشيد طويلا ففضل إلا يبعد عن حاضرة ملكه وأن يعمل على الصلح مع توزون امـــير الامـــراء [1] ،لذا فقد اصبح الخليفة ألعوبة بين قواده المتنافسين على السلطه [2] .

ولو اتيح للاخشيد أن ينجح في جذب الخليفة إلى مصر لتغير إلى حد ما مستقبل الخلافة ومستقبل وادي النيل، والواقع أن الاخشيد لم يكن أول وال عباسي فكر في مثل هذا المشروع ؛فقد سبقه ابن طولون من قبل وفشل ،ولم يتم ذلك إلا على يد الظاهر بيبرس في القرن 7 هـ / 13 م .[3]

وقبل الانتقال إلى الحديث عن نهاية الخليفة المتقي وجب علينا ذكر تكمله ذكرها ابن سعيد عن ذلك اللقاء بين الاخشيد والمتقي اذ زاد في

---

(1) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 150 – 151 .

(2) وفاء محمد علي ، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين ، القاهره ، 1990 ، ص34 ؛ ايلي منيف شهله ، الايام الاخيره في حياة الخلفـــاء ،القـــاهره ، ب ت ،ص 122.

(3) حسن احمد ، سيده كاشف ؛ الطولونيين والاخشيديين ، ص 151

أن الاخشيد عرض على الخليفة أن يسير معه إلى بغداد وأن يصبح اميرا لامرائه وأن الخليفة قبل ذلك ، إلا أن رجال الاخشيد وبطانته وخواصه وبخوه على ذلك وخوفوه من فقدان مصر والشام والدخول في صراعات مع توزون والاتراك لا يعلم مداها إلا الله ولم يخرج الاخشيد مما ورط نفسه فيه إلا بعد أن زور احد رجاله خطاب مبعوث من مـصـر بوجوب حضوره إلى مـصـر ،لأن الخليفة الفاطمي استغل خروج الاخشيد وبعث عسكره في البر والبحر للاستيلاء على مصر ، فما كان من الاخشيد أن اعتذر للخليفة عن المسير معه إلى بغداد وسمح له الخليفة بالمسير إلى مصر للنظر في شئون ولايته [1] .وأن صحت هذه الروايه لكان للاخشيد ومصر والشام والخليفه والاحداث والتاريخ عامة شكلا اخر .

وعلى اية حال تراسل المتقي وتوزون واستوثق المتقي منه بالايمان والعهود فانحدر المتقي من الرقه في الفرات يريد بغداد وعندما وصل إلى هيت واقام بها انفذ قوما إلى توزون حتى جددوا عليه العهود والايمان والمواثيق وعادوا إلى المتقي وعرفوه انهم احكموا الامر مع توزون فردهم المتقي ومعهم غيرهم ليزيدوا في التوثق منه فساروا إليه وبالغوا في الاحتياط والثقه وخرج توزون من موضع يعرف بالسنديه ليلقى المتقي [2] ، اما المتقي فقد تلقاه ابو جعفر بن شيرزاد بأحسن لقاء واقام له الاتراك ومضى المتقى حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى وسار إلى الضيعه المعروفه بالسنديه حيث يوجد توزون [3]؛ الذي تلقاه اولا امام الجميع بالود والطاعه حتى انه قبل الارض بين يدي المتقي ثم

(1) المغرب ، ج 1 ، ص 192 .

(2) الانطاكي ، تاريخ الانطاكي ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، لبنان ، 1990 ، ص46 – 47 .

(3) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج 4 ، تحقيق : محمد محي الدين عبد المجيد ، القاهره ، 1948 ، ص 342 .

اوصى به لجماعه من اصحابه امرهم أن يحتاطوا بالمتقي فاحتاطوا به وادخلوه إلى خيمته ليكون بذلك توزون وفا بوعده في الظاهر ويقبض على المتـقـي في الباطن كي يسمل له عينيه ومن ثم يخلعه [1] وبكى المتقي وصاح النساء والخدم لصياحه،فامر تـوزون بضرب الدبادب حول المضرب ليخفى صراخ الخدم وادخل إلى الحضره مـسمول العينيين واخذ منه توزون البرده والقضيب والخاتم ووسلمهم للمستكفي بالله الذي خلف المتقي ، ويقال أن القاهر عندما بلغه ما حدث قال : صرنا اثنين ونحتاج إلى ثالث ، يعرض بالمستكفي . لتكون خلافة المتقي بذلك نحو اربع سنين وعاش بعد خلعه وسمله خمسا وعشرين سنه والعجب أن توزون لما فعل بالمتقي ما فعل، لم تمر السنة إلا ومات [2] .

اما الاخـشيـد فانه بعد لقائه بالخليفه المتقي عاد إلى مصر في جمادي الاول سنة 333 هـ وسار المتقي إلى بغـداد حيث فعل به توزون ما فعل، وتولى المسـتكفي الخلافة في جمادي الاخر سنة 333هـ واقر الاخشيد على ولاية مصر والشام ، وقام الاخشيد بالدعوه له على المنابر في انحاء ولايته .

ولما عزل المستكفي وبويع المطيع لله سنة 334 هـ خليفه ظلت العلاقه بين الخلافة والاخشيد على حالها اذ بادر المطيع باقرار الاخشيد على ولايته وامر الاخشيد بالدعوه للمطيع على المنابر .

([1]) الطقطقي ، الفخري في الاداب السلطانيه والدول الاسلاميه ، تحقيق : علي الجارم، محمد عوض بك ابراهيم ، القاهره ، 1923 ، ص 255 .

([2]) ابن تغري بردي ، مورد اللطافه في من ولي السلطنه والخلافه ، تحقيق : نبيـل محمد عبد العزيز ، القاهره ، 1997 ، ص 197 ؛ السيوطي تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهره ، 1988 ، ص 461 ؛ ابن الوكيل، تحفة الاحبـاب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، تحقيق : محمد الششتاوي ، القاهره ، 1999 ، ص 45

والواقع أن علاقه الاخشيد بالحكومه المركزيه في بغداد لم يطرأ عليها اي تغيير بعد المتقي فقد شغل الاخشيد بنزاعه مع سيف الدوله الحمداني على حكم الشام ووقفت الحكومه المركزيه موقف المتفرج فلم يكن لها في هذا الخلاف رأي تبديه أو ارادة تمليها [1] ..

- الاخشيد والحمدانيين:

وبدا الطريق بين النزاع الاخشيدي الحمداني عقب موت ابن رائق مباشرة فمن ناحية الحمدانيون سيروا عسكرا انتزع حلب في نفس السنه التي قتل فيها ابن رائق وبذلك تحقق الخطر الحمداني على املاك الاخشيد في الشام ، اما من ناحية الاخشيد فانه كما مر بنا ما نا سمع بموت ابن رائق حتى عمل على تأمين حدوده في الشمال فاسرع ودخل دمشق ولم يرجع إلي مصر الا بعد أن وطد مركزه ونظم اموره فرجع بعد ذلك إلي مصر وكان ذلك في العام 331 هـ .

ثم تاتي بعد ذلك المشكله بين الخليفه المتقي لله وامير امرائه توزون ويخرج الخليفه لاجئا للحمدانيين طالبا في نفس الوقت مساعدة الاخشيد كما مر بنا ، وكان الاخشيد لما خرج إلي الخليفه فانه خرج ايضا ليستعيد حلب وتمكن فعلا من دخولها [2] اذ أن واليها الحمداني الحسين بن حمدان لم يستطع الوقوف امام الاخشيد ففر من حلب واتجه إلي الرقه حيث لم يستطع دخولها اذ كان الخليفه المتقي قد دخلها هاربا من توزون كما سلف الذكر .

ويبدو أن الاخشيد قد اراد في خروجه هذا غير تلبية دعوة الخليفه أن يعرج على الموصل وينتزعها من ايدي الحمدانيين تاديبا لهم الا أن الخليفه المتقي توسط لديه فقبل الاخشيد وساطته [3] .

([1]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 151 – 152 .

([2]) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 35 – 36 .

([3]) الزيود ، العلاقات ، ص 306 – 307 .

وعلى اية حال فان اللقاء قد تم كما مر بنا وسار الاخشيد في طريق عودته إلي مصر فمن الرقه إلي حلب حيث ولى من قبله ابا الفتح عثمان بن سعيد بن العباس بن الوليد الكلابي [1] وكانت هذه البدايه اذ أن الكلابيون تحاسدوا فيما بينهم وحسدوا الوالى الكلابي علي ولايته لحلب وهنا لم يجدو من يتجهون إليه الا سيف الدوله الحمداني ذو الماضي القريب المشرق في مجاهدة البيزنطيين حتى لقب بالغازي وبسيف الدوله [2] بل عد البعض نضال سيف الدوله ضد البيزنطيين عمل ذات نكهه خاصه في حياته وغير ما خاضه من صراعات ضد القوى الاخري [3] .

وهذه الدعوه من جانب الكلابيين فتحت لسيف الدوله افاقا واسعه خاصة بعد أن طلب من اخيه ناصر الدوله أن يوليه احدى الولايات فقال له " الشام امامك وما فيه احد يمنعك منه " [4] .

وهنا انتهز سيف الدوله الفرصه فسار إلي حلب ودخلها في ربيع الاول سنة 333 هـ ثم تبع ذلك استيلائه على قنسرين والثغور الشاميه وحمص وانطاكيه واراد أن يضفي على تصرفاته الشرعيه فاقام الدعوى فيما استولى عليه للمستكفي ثم لاخيه ناصر الدوله ثم نفسه [5] ومثلما حدث من قبل ارسل الاخشيد إلي الخلافة يعلمها بما كان منه من اقامه الدعوة للخليفةالجديد واخذ البيعه له وكذلك بما كان من اعمال سيف الدوله فكان رد الخلافة هو خلع للاخشيد ولابنه انوجور على ما كان له

---

(1) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 67 .

2 النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 39 – 40 .

(3) Carl Broklman , History of the islamic people , London , 1959 , p 152 .

(4) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 67 .

(5) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 40 – 41 .

وما اضيف له على اتفاق الخليفه المتقي معه [1] ، أو بمعنى اخر أن الاخشيد كان عليه أن يحل مشكلته مع ابن حمدان بالسيف تماما كما حل مشكلتة من قبل مع ابن رائق بالسيف .

وكانت البدايه حينما سمع الاخشيد بان سيف الدوله يريد حمص ثم دمشق فارسل الاخشيد جيشا عليه اربعة من قواده فذهبوا إلي دمشق وجهزوا عساكرهم ونهضوا للمسير إلي حمص [2] ومن هؤلاء القاده كـــافور ويأنس المؤنسي [3] وفاتك [4] لاسترداد ما فقد من اعمال ولدفع الخطر المرتقب على دمـشـق ولكن الهزيمه حاقت بالعسكر الاخشيدي عند الرســتن من ارض حـمص على نهر العاصي [5] اذ التـحم الجيشان فانهزم الاخشيديون وازدحم جماعة منهم على جسر الرستن وسقط البعض منهم في النهر [6] وكان عدد المحصورين بالجسر اربعة الاف جندي اخشيدي [7] وهنا رفع سيف الدوله السيف وامر غلمانه وجنوده الا يقتلوا احدا من الجنود الاخشيديين قائلا " الـدم لي والـمال لكم " واسر الاربعة الاف ثم ما لبث أن اطلق سراحهم فشكروا له فعله ومضوا [8] اما عن القاده فان المصادر تذكر أن كافور بعد أن نزلت الهزيمه بالاخشيديين هرب إلي حمص ثم دمشق وارسل للاخشيد يعلمه بما حدث في حين صمتت عن القاده الاخرين وربما كانوا ممن اسروا على الجسر ثم اطلق

(1) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 193 .

(2) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 193 .

(3) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 41 .

(4) المقريزي ، المقفى ، ج 5 ، 751 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ج 3 ، ص 293 .

(5) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 41 – 43 .

(6) مصطفى الشكعه ، سيف الدولة الحمداني ، القاهره ، 1959 ، ص 145 .

(7) عبد الرحمن ايوب ، الرستن ، دمشق ، 1991 ، ص 133 .

(8) الشكعه ، سيف الدوله الحمداني ، ص 145 .

سراحهم مع من اطلق سراحه [1] ، وعلى اية حال فان سيف الدوله استطاع بعد هذا النصر أن يدخل دمشق وأن يستقر بها وذلك في رمضان سنة 333 هـ [2] وكتب الاخشيد إليه يلتمس منه الموادعه والاقتصار على ما في يده الا أن سيف الدوله ابى [3] .

فما كان من الاخشيد الا أن عزم على الخروج بنفسه إلي سيف الدوله فخرج وضرب معسكره بالرمله بعد أن استخلف على مصر ابنه ابا القاسم واستخلف له عمه ابا المظفر [4] ، ولما وجد الاخشيد أن سيف الدوله عازما على ما رمى إليه وهو الاستيلاء على الاملاك في الشام فانه استخدم الحيله في حربه ضد هذا المنافس الجديد فاستغل خروج سيف الدوله من دمشق فعمل الاخشيد على تأليب اهلها عليه ،وعندما عاد ادراجه لم يفتحوا له ابوابها وهنا بادر الاخشيد باستغلال هذا الموقف وكان كما مر بنا معسكرا بالرمله [5] فخرج يريد سيف الدوله فلما وصل طبريه عاد سيف الدوله إلي حلب بغير حرب لان اكثر اصحابه وعسكره استأمنوا إلي الاخشيد فاتبعه الاخشيد إلي أن نزل معرة النعمان في جيش عظيم [6] اما سيف الدوله فقد جمع للاخشيد من بني عقيل وبني نمير وبنو كلب [7] وكانت الواقعه بقنسرين في شوال 333 هـ وبدأت المعركه وكان النصر يتارجح مدا وجزرا بين الفريقين فقام الحمداني في البدايه بان حمل على مقدمة جيش الاخشيد شاقا طريقه إلي خيمته راغبا في القضاء على

(1) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 68 .
(2) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 43 .
(3) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 68 .
(4) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 193 .
(5) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 43 .
(6) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 69 .
(7) حمدان الكبيسي ، القائد سيف الدوله الحمداني ، بغداد ، 1989 ، ص 45 .

رأس الجيش حتى يتبعه سقوط الاخشيديين الا أن الاخشيد كان قد اعد عدته ومنذ البدايه وقف في مؤخرة جيشه في عشرة الاف من اعتى رجاله سماهم الصابريه قام بهم وانقض على سيف الدوله وجيشه واعمل فيهم السيف ،حتى أن سيف الدوله نفسه كاد أن يأسر اذ انقض عليه معاذ بن سعيد والي معرة النعمان من قبل الاخشيد الا أن سيف الدوله قتله [1] .

وهناك من اعتبر هذه الانقضاضه في البدايه انه النصر الحمداني في المعركه وأن المعركه لم تنته للاخشيد الا بعد أن حقد الحسين بن حمدان على سيف الدوله الذي استطاع أن يقف للاخشيد وهو ماجعل له النصر في النهاية .

وهنا توجد روايتان عن كيفية سير الامور بعد تلك المعركه بين الاخشيد وسيف الدوله ؛ اما الروايه الاولى فتذهب إلي أن سيف الدوله هرب ولم يتبعه الاخشيديون وانه سار إلي الرقه وقيل انه اراد دخول حلب فمنعه اهلها وتبع ذلك دخول الاخشيد حلب وافسد اصحابه في جميع النواحي وقطعت الاشجار التي كانت في ظاهر حلب والتي كانت عظيمة جدا حيث قيل انها كانت من اكثر المدن اشجارا ،وان عسكر الاخشيد بالغوا في اذى الناس بحلب لميلهم إلي سيف الدوله ثم أن الاخشيد عاد إلي دمشق بعد أن ترددت الرسل بينه وبين سيف الدوله واستقر الامر بان افرج الاخشيد عن حلب وانطاكيه وحمص وأن دمشق تظل للاخشيد مقابل مال يدفعه الاخشيد كل سنه لسيف الدوله [2] .

([1]) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 69 .

([2]) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 69 ؛ النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 44 ؛ محمد راغب الحلبي ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج 1 ، حلب ، 1988، ص 230 .

اما الروايه الثانيه فتذهب إلي أن سيف الدوله لم ينصرف بعد هزيمته في قنسرين وعسكر مواجها للاخشيد فاختار الاخشيد المسالمة والصلح [1] .

غير أننا نرجح الروايه الاولى وذلك لانه فضلا عن أن اغلب المصادر تتفق أن الاخشيد دخل حلب وأن سيف الدوله سار إلي الجزيره فاننا لو سلمنا بان الاخشيد وسيف الدوله عسكرا بمحاذاة بعضهما البعض وعقدا الصلح على هذا الحال، فانه من الثابت أن الاخشيد دخل حلب وفعل بها مافعل فبذلك يكون الاخشيد قد كسر الصلح وهذا ما لم تحدثنا به المصادر لذا فمن المنطقي أن الاخشيد فعلا دخل حلب وأن سيف الدوله لم يعسكر وانما سار إلي الجزيره ثم كان الصلح بعد ذلك [2] ، اما الروايه الثانيه فمن تعضد بها فانه في الاساس صاغ شخصيه سيف الدوله في اطار بطولي وعربي وانه فارس العرب الذي يوحدهم والذي آلمه تفرق العرب وتشتتهم ونظرتهم إليه انه زعيمهم وأن عصره هو العصر الذهبي لهم بعد عصر الانتكاسات المتلاحقه [3] .

وعلى اية حال فان الامر بين الاخشيد وسيف الدوله انتهى بالصلح وانتهى النزاع بينهما على نهايه مشابهه للنزاع بين ابن رائق والاخشيد اذ تزوج سيف الدوله من فاطمه بنت عبيد الله بن طغج اخي الاخشيد اما

([1]) ماريوس كانار ، نخب تاريخيه جامعه لاخبار الامير سيف الدوله الحمداني ، الجزائر ، 1934 ، ص 30 ؛ الشكعه ، سيف الدوله الحمداني ، ص 63 ؛ حسن احمد، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 269 .

([2]) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج 11 ، ص 351 ؛ الكندي ، ولاة مصر ، ص 306 ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، مج7 ، تحقيق : محمد يوسف الدقاق ، بيروت ، 1998، ص 203 ؛ اليافعي ، مرآة الجنان ، ج 2 ، ص 234 ؛ المقريزي ، المقفى الكبير ، ج 5 ، ص 751 .

([3]) A.A.Vasiliev , History of the Byzantine empire , vol 1 , USA , 1970 , p 306 .

معاهدة الصلح فقد تضمنت موافقة الاخشيد على أن يترك لسيف الدوله حمص وحلب وانطاكيه، ويكون للاخشيد دمشق واعمالها وأن يدفع لسيف الدوله مال سنوي نظير احتفاظه بدمشق [1] .

وعلى الرغم من أن الكفه الراجحه كانت للاخشيد الا انه وافق على التسليم بهذه الشروط لشعوره بصعوبة حماية حدوده الشماليه، ولاقتناعه بالدور الهام الذي يلعبه الحمدانيين كحد فاصل بين ممتلكاته في الشام وبين البيزنطيين ، كما أن استمرار العداء لن يفيد الاخشيد الذي كان يجاور الفاطميين الذين كانوا يتحينون الفرصه للاستيلاء على مصر [2] كما أن الحمدانيين كانوا في المجال الحيوي لتوسعهم اي أن الحرب كانت ستطول وتتأرجح الهزيمة والنصر بينهما حتى يجهز احدهما على الاخر فضلا عن أن الاخشيد اثر أن يحصل بالمال على ما لا يحصل به بالسيف[3]، وهكذا تقرر الوضع في ربيع الاول من سنة 334 هـ / اكتوبر – نوفمبر 945 م .

ولكن الاخشيد وافته المنيه في ذي الحجه من نفس العام [4] فاغرى ذلك سيف الدوله وحاول استعادة ما رجع للاخشيد واغار على دمشق واستولى عليها [5] الا أن كافور وانوجور بن الاخشيد سارا إليه واوقفوه عند حده وهزموه وهرب إلي حلب فالرقه بعد أن تتبعوه ودخلوا في

---

(1) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 44 .

(2) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 45 ؛ عبد العظيم رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، القاهره ، 1983 .

(3) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 270 .

(4) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 45 .

(5) محمود اسماعيل عبد الرازق ، محاضرات في التاريخ العباسي ، القاهره ، 1975 ، ص 71 .

مفاوضات انتهت بنفس الشروط السابقه مع الاخشيد فيما عدا المال عن دمشق [1] .

- الاخشيد والبيزنطيين:

كانت الدوله البيزنطيه ايام الاخشيد تعاني من حاله تستدعي أن تتبع سياسة الوفاق واللين فعلى عرش الدوله البيزنطيه قيصر ضعيف هو قسطنطين السابع يتسلط عليه وزيره رومانوس الذي مالبث أن اصبح هو الاخر قيصرا ولا يلبث ابنه اسطفانوس أن اصبح قيصرا هو الاخر اي ثلاثة قياصره على عرش القسطنطينيه ودوله في هذا الحال بالطبع لن تجد الا سياسة الوفاق واللين مع المسلمين في ذلك الوقت ولهذه الغايه عمل القيصر رومـــانوس الحاكم الفعلي فاوفد سفارتين احدهما إلي الخليفه العباسي الـــراضي بالله فسفاره الخليفه سنة 326 هـ اعرب القياصره عن رغبتهم في طلب الهدنه وعقد اواصر الصداقه مع المسلمين فرد عليهم الخليفه بالاجابه إلي ما طلبوا من عقد اواصر الهدنه والصداقه.[2]

اما الرساله الاخرى فكانت للاخشيد ولم تكن ســـفارة صداقه فقط ،وانما تنظيم مسألة فداء للاسرى وتسهيل المعاملات التجاريه في البيع والشراء وارسل القيصر برسالته إلي الاخشيد مع رسوليه نقولا واسحاق ولم يصل الينا نص الكتاب الذي ارسله القيصر للاخشيد ولكن انتهى الينا بالعكس رد الاخشيد على كتابه ؛ومنه علمنا موضوع السفارة وظروفها ومن الظاهر أن كتاب القيصر إلي الاخشيد لم يخل من بعض المآخذ الشكليه فهو يمن فيه على الاخشيد بانه تنازل لمكاتبته مباشرة لان مقامه كقيصر للدوله الرومانيه الشرقيه يحتم عليه الا يكاتب من هو دون

([1]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 270

([2]) محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلاميه ، القاهره ، 1998 ، ص 100 – 101 .

الخليفه ولكنه مع ذلك قد خص الاخشيد بالمكاتبه لما نما إليه من رفيع مكانته وحميد سيرته وموفور عدالته ورحمته .

وقد رد الاخشيد على كتاب القيصر بكتاب شهير من انشاء كاتبه ابراهيم بن عبد الله البجيرمي وكان من ابرع كتاب عصره ويعتبر هذا الرد وثيقه دبلوماسيه من الطراز الاول تفيض إباء وحزما ويطبعها في نفس الوقت طابع بارع من اللباقه والمجامله؛ ذلك أن الاخشيد لم يغضب لما وجهه القيصر إليه من عبارات المن والاستعلاء ،بل بالعكس اكرم وفادة رسوليه وغمرهما بالتحف المختاره هديه إلي سيدهما وبذل لهما كل تسهيل ممكن على انه لم ينس في الوقت نفسه أن يجيب القيصر على منة واستعلاءه وأن يفند اقواله فيما زعمه من تفضله بمكاتبته [1] ورد الاخشيد بجواب ينم عن ترفعه وكبريائه وقوته الكبيره في المنطقه ويفتخر به على الامبراطور ويبين فضل الاخشيديين وملكهم الواسع وحمايتهم للمقدسات الاسلاميه والمسيحيه كما رد قاطعا الطريق عليه وعلى محاولته الراميه لضرب الجبهه الاسلاميه بالايقاع بين الاخشيد والخلافه العباسية مشيراً إلي ولائه للخلافه العباسية ، كذلك وكما سبق القول يوضح هذا الجواب ايضا عن مدى اتساع ملك الاخشيديين حيث شمل مـــصر واليمن واجناد الشام جند حمص وجند دمشق والاردن وفلسطين وتقليده لامر مكه والمدينه .

ورغم ذلك فقد استجاب الاخشيد لطلب البيزنطيين وجهز في سنة 325 هـــ المراكب الحربيه للسير إلي الثغور للفداء بعد أن شحنها بنصارى الروم وانفذ الثياب والطيب والطعام إلي اسرى المسلمين .

لقد كانت الظروف السياسيه المحيطه بالاخشيد دافعا له لقبول هذا الوفاق بينه وبين البيزنطيين في وقت كان يتعرض فيه لخطر الفاطميين واطماعهم في مصر كما كان لنشاط دعاتهم الاثر على جبهته الداخليه

([1]) محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلاميه ، ص 102 .

فحدثت فيها بعض المشاكل وكان في حاجه إلي أن يبث الامن في ربوع ولايته هذا فضلا عن الاخطار التي مالبثت أن تعرض لها من جانب ابن رائق أو الحمدانيين في الشام وما انتهى إليه ذلك من تنازلات من جانب الاخشيد لسيف الدوله ، وليس المعنى أن الاخشيديين قد نفضوا ايديهم من الجهاد : بل لم يهملوا واجبهم المقدس وهم كغيرهم من الفئات الاسلاميه الاخرى التي لم تنس واجبها في الجهاد فكان المتطوعون منهم يتوجهون من جميع ربوع العالم الاسلامي إلي منطقة الثغور .

وكعادتهم لم يكن البيزنطيون في يوم من الايام صادقين في عهودهم اذ خرجت قواتهم حتى وصلت إلي منطقة حلب وهاجمتها وانزلت بها الفساد والخراب ورجعت تجر ورائها خمسة الاف اسير فرد على الفور امير الثغور نصر الثملي من قبل الاخشيديين في سنة 330 هـ بغزوة من نواحي طرسوس إلي بلاد الروم فقتل وسلب وغنم دون أن يحتل اي منطقه وعاد وبين اسراه عدد من البطارقه وعلية القوم والغنائم الكثيره .

وظهرت جهود الاخشيد محمد بن طغج في سنة 334 هـ في الثغور اثر رغبة البيزنطيين في تبادل الاسرى فقد قدم وهو في دمشق ابو عمير عدي بن احمد بن عبد الباقي الاذني ومعه رسول امبراطور بيزنطه لتنظيم هذا الفداء وابو عمير هذا من شيوخ الثغور لعب دورا في الوساطه بين المسلمين والروم [1] الا أن الاخشيد مالبث أن توفى فرجع كافور بالجيش إلي مصر وصحب معه إلي فلسطين ابو عمير ورسول الامبراطور فدفع اليهما ثلاثين الف دينار من مال هذا الفداء وسار الرسولان إلي مدينة صور ثم ركبا البحر إلي طرسوس وكتب نصر الثملي امير الثغور الشاميه إلي سيف الدوله الحمداني ودعا له على الثغور الشاميه : مما يشهد بأن الثغور الشاميه كانت حتى ذلك الوقت تابعه

(1) الزيود ، العلاقات ، ص 286 – 287 .

للاخشيد وأن امير الثغور من قبله لم يدخل في طاعة سيف الدوله الا بعد وفاة الاخشيد ، وبالتالي فان نصر الثملى عندما دعا لسيف الدوله على المنابر جد سيف الدوله من ناحيته باتمام الفداء الذي بدأه الاخشيد فنسب الفداء إلي سيف الدوله [1] .

- **الاخشيد والنوبة :**

من المعروف أن الحمله التي قام بها عبد الله بن سعد والي مصر سنة 31 هـ على بلاد النوبه انتهت إلي عقد اتفاق بين مصر وبين ملك النوبه وهذا الاتفاق يعرف باسم اتفاق القبط .

وكان هذا الاتفاق بمثابة معاهده سياسيه وتجاريه بين مصر ومملكة النوبه المسيحيه قوامها الا يتعدى احدهما على الاخر وأن تؤدي النوبه إلي مصر عددا معينا من الرقيق كل سنه وأن تؤدي مصر للنوبه قدرا معينا من منتجات مصر .

ولكن هذه المعاهده كانت تنقض بين الحين والاخر وكان ملوك النوبه يقدمون على غزو الصعيد الاعلى كلما احسوا من انفسهم القوه على هذا الغزو وظنوا أن السلطة المصريه لن تستطيع أن تصدهم الا بعد فتره يتاح لهم فيها أن يظفروا بما يريدون من السلب والنهب ومع ذلك فقد كانت تجارة الرقيق زاهره بين مصر وبلاد النوبه وحسبنا أن نذكر عدد الجنود الطولونيين والاخشيديين.

وقد كتب المسعودي حين زار مصر في سنة 332 هـ أن النوبيين كانوا لا يزالون يقدمون السبي الذي اتفق عليه في اتفاق البقط وكان يتسلمه نائب امير مصر في اسوان .

([1]) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولنيين والاخشيديين ، ص 271 ؛ السيد الباز العريني ، الدوله البيزنطيه ، القاهره ، 1982 ، ص 418 ؛ محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ الامبراطوريه البيزنطيه ، الاسكندريه ، 1994 ، ص 210 .

وحدث في سنة 344 هـ أن اغار ملك النوبه على اسوان وقتل جمعا من سكانها ونهب قراها فخرج إليه جيش من قبل انوجور وعلى رأسه محمد بن عبد الله الخازن واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبيين وارسل بعض اسراهم إلي مصر فضربت اعناقهم ثم طارد الجيش المصري ملك النوبه وفلول جيشه واستطاع أن يفتح مدينة ابريم وعاد إلي مصر في منتصف جمادي الاول سنة 345 هـ ومعه مائة وخمسون اسيرا وعدد من رؤوس القتلى [1] .

كافور الإخشيدى:

اختلف المؤرخون فى تاريخ مولده فمنهم من ذكر أن مولده كان فى سنة 292هـ/905م ، فى حين رأى فريق آخر أنه ولد سنة 297هـ/910م ؛ أما الفريق الثالث فذكر أنه ولد فى سنة 308هـ/920م على أساس أنه جلب إلى مصر فى سنة 322هـ/934م وهو فى الرابعة عشر من عمره[2].

وكان كافور عبداً أسود اللون دميم الخلقة ضخم الجثة ، وترجع أصوله الأولى إلى بلاد النوبة ، حيث كان يعرف باللابى نسبة على إقليم اللاب من بلاد النوبة[3]، وكان يكنى " أبا المسك " من قبيل التلميح لأن المسك أسود ، أما إطلاق اسم كافور عليه فكان من قبيل الدعابة لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون[4].

---

(1) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 273 .

(2) محمد مرسى الشيخ ، تاريخ مصر الإسلامية ، الإسكندرية 1993 ، ص118.

(2) أحمد عبد الرازق ، تاريخ وآثار مصر، ص154 ؛ محمود الحويرى ، مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة 1996 ، ص131.

(4) على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ، القاهرة 1992 ، ص67.

وكما اختلفت المصادر فى تاريخ مولده فقد اختلفت أيضاً فى كيفية وصوله إلى بلاط الإخشيديين ، فقد ذكر ابن خلكان[1] أن كافور كان عبداً لرجلاً من مصر يدعى ابن عباس الكاتب ثم أشتراه منه محمد بن طغج الإخشيد ، بينما ذكر المقريزى[2] أن ابن عباس الكاتب أرسل كافورا يوماً بهدية إلى الإخشيد فوسم الإخشيد فى كافور الذكاء وأخذه بدلاً من الهدية.

وقد تربى كافور فى قصر محمد بن طغج الإخشيد تربية عاليه ، واختصه الأخير من بين عبيده وأولاه ثقته وأعتقه ، وأخذ يرقيه فى بلاطه وجعله من كبار قادته ، ثم عهد إليه بالوصاية على أولاده من بعده[3].

وقد عكف كافور على الدراسة وتحصيل العلوم المختلفة حتى يكون أهلاً لتربية ولدى الإخشيد ، حتى لقب بلقب " الأستاذ " ، وظل كافور يعتز بهذا اللقب حتى بعد أن صار والياً على مصر. وإلى جانب هذه الثقافة العلمية امتاز كافور بتفانيه فى خدمة سيده حتى صار موضع ثقته فأسند إليه قيادة جيوشه ، ثم عهد إليه بالوصاية على أبنائه[4].

كافور وأبناء الإخشيد:

ولم يلبث محمد بن طغج الإخشيد أن توفى تاركاً على عرش مصر ابنه (أنوجور) الذى لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره. وكان الإخشيد قد تمكن قبل موته من وضع نظام وراثة للعرش من بعده بأن أخذ البيعة من قواده وجنده ومن المصريين بصفة عامة لابنه القاسم أنوجور ، وجعلهم يعترفون جميعاً بولاية العهد لابنه أنوجور[5].

---

(1) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج4 ، ص212.

(2) المقريزى ، الخطط المقريزية ، ج2 ، ص423.

(3) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج4 ،ص5.

(4) أحمد مختار العبادى ، التاريخ العباسى والفاطمى ، ص144.

(5) عصام الدين عبد الرؤوف ، معالم تاريخ وحضارة الإسلام ، ص174.

لكن صغر سن الأخير أدى إلى طمع عمه الحسن بن طغج فى الحكم لكن كافور وبعض رجال الدولة وقفوا له بالمرصاد وأصروا على تنفيذ وصية محمد بن طغج فى تولية ابنه أنوجور من بعده. وبعد أن استقرت الأمور لأنوجور صار كافور مدبر مملكته ، وبلغ من نفوذه أن اسمه صار يذكر فى الخطبة بعد اسم الخليفة العباسى وأنوجور[1].

وفى الوقت الذى كان فيه كافور منشغلاً بوضع أنوجور على عرش مصر استغل سيف الدولة الحمدانى انشغال الإخشيديين فيمن يتولى الحكم وقام بالاستيلاء على دمشق. ولم يتردد كافور فى حماية أملاك الإخشيديين فخرج إلى الشام على رأس جيش كبير وصحبه أنوجور وعمه الحسن بن طغج ، وفى الشام دارت موقعة كبيرة بين الإخشيديين والحمدانيين ، انهزم فيها سيف الدولة الحمدانى ، وانتهى الأمر بالصلح بين الطرفين واستقرار الأمور لصالح الإخشيديين فى الشام[2].

وسارت الأمور بعد ذلك بين كافور وأنوجور فى هدوء ، لكن هذا الهدوء فى العلاقة بين كافور وأبناء الإخشيد سرعان ما عصفت به الأيام ، فبعد أن بلغ أنوجور سن الرشد بدأ يتطلع لأن يدير شئون مملكته بنفسه ويتخلص من سيطرة كافور على الأمور ، لاسيما بعد أن حرضه على ذلك بعض الحاقدين على كافور الذين زينوا للحاكم الشاب سبيل التخلص من كافور وانفراده بشئون الحكم. وتطور الأمر إلى صدام بين الطرفين انقسم فيه الجيش الإخشيدى إلى قسمين: قسم يميل إلى أنوجور ، والأخر يؤيد كافور. وخشت أم أنوجور عاقبة هذا النزاع على ابنها وخافت عليه من بطش كافور فتدخلت فى الأمر وانتهى النزاع بالصلح. ثم لم يلبث أن توفى أنوجور عام 349هـ/960م ويقال أن كافور دس السم له[3].

---

(1) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج4 ، ص377.

(2) سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، ص149.

(3) أبو الحسن الروحى ، بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء ، ص247.

وبعد وفاة أنوجور تولى الحكم أخاه على بن الإخشيد ، وظل كافور على حاله بالتصرف فى شئون الحكم ، بل لقد زاد فى الأمر بإبعاد علـى عن كافة أمور الحكم مما جعل الأخير يفكر فى القيام بنفس ما قام به أخيه أنوجور ، وأدى ذلك لتأزم العلاقة بينه وبين كافور. وسرعان ما لقى على نفس مصير أخيه حين توفى عام 355هـ/966م وقيل أيضاً أن كافور قد دس له السم[1].

اعتلائه عرش مصر:

ولما توفى على بن الإخشيد بقيت مصر لفترة بغير حاكم ويبدو أن كافور كان يتنازعه خلال تلك الأيام تياران أحدهما يدفعه إلى إقامة أحمـد بن على بن الإخشيد فى حكم مصر مكان أبيه ، والآخر يغريـه بـانتزاع الحكم لنفسه . وبعد فترة قصيرة من التفكير رجح كافور الرأى الثـانى ، لاسيما وأن أحمد بن على كان عندئذ طفلاً فى التاسعة منع عمره[2].

وتشاور كبار رجال الدولة فيمن يخلفه فرأوا أن ينصـبوا أحمـد ويظل كافور وصياً عليه لكن الأخير رفض هذا الأمر بحجة صـغر سـن الأمير وانتهى الأمر بالاتفاق على تولية كافور حكم مصر[3]. وبعدها سارع كافور بمراسلة الخليفة العباسى لكى يعطنه والياً على مصر فوافق الخليفة على ذلك ، ورأى البعض أن موافقة الخليفة جاءت لأنه اعتاد على وجود كافور مدبراً لشئون الحكم فى مصر لذا لم يمانع فى أن يصبح حاكم فعلى بدلاً من أن يكون وصياً على العرش[4].

ورغم أنه كان وصياً على العرش بعد وفاة محمد بن طغـج ، ثـم أصبح الحاكم الرسمى لمملكة الإخشيد إلا أنه على ما يبدو ظل يشعر أنـه

---

(1) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج3 ، ص374.

(2) سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، ص151.

(3) ابن خلدون ، العبر ، ج4 ، ص377.

(4) الأزدى ، الدول المنقطعة ، [illegible]

غريب عن هذه الأسرة ، أو أنه لم يصل للعرش بشكل شرعى ، لذلك نراه يحتفظ بلقب الأستاذ حتى لا يصطدم بأهل الرأى فى المملكة ولا يبدو أمامهم فى صورة مغتصب للألقاب بجانب اغتصابه للسلطان. وظهر ذلك فى إحجامه عن نقش أسمه على السكة بعكس جميع الأمراء الإخشيديين الذين حرصوا على نقش أسمائهم على السكة مع اسم الخليفة العباسى[1].

وقد اشتهر كافور بشجاعته وقوة شخصيته ، كما حاز شهرة واسعة فى فنون القتال خاصة الرمى بالسهام. كذلك اشتهر بعدله فقد عرف عنه مداومة الجلوس صباحاً ومساءا لقضاء حوائج الناس ، وكذلك التواضع حتى أنه كان يمرغ وجهه فى التراب وهو ساجد ويقول " اللهم لا تسلط على مخلوقاً ".

وقد حاول كافور أن يتقرب إلى قلوب الرعية فخص أهل البيت والعلويين بالتكريم ، وقد امتاز كافور بكرم زائد على عكس مولاه الإخشيد الذى عرف ببخله ، فكانت له بعض المواقف فى الجود والكرم التى اشتهرت عنه فى سبيل التقرب إلى عامة الناس ومنها أنه كان قد مرض قبل أن يلمع اسمه فى بلاط الإخشيد وداواه أحد الأطباء ، فلما دانت الأمور لكافور بحث عن هذا الطبيب ليكافئه فلم علم بموته وأن له ابنتان واحدة متزوجة والأخرى بكر ، اشترى لهما دار بأربعمائة دينار وأعطى للبكر مائتى دينار تتجهز بها. كما كان يحرص على توزيع الذهب على الناس فى الأعياد فكان صاحب الشرطة يطوف من بعد العشاء على المنازل ويقول لمن يطرق بابه " الأستاذ أبو المسك كافور يهنئك بعيدك ويقول لك اصرف هذا فى منفعتك ويدفع له بعض المال " ، كما كان يرسل الأموال والطعام فى كل عام مع ركب الحجيج ليوزع فى الحجاز[2].

---

(1) ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة ، ج1 ، ص201.

(2) مرسى الشيخ ، مصر الإسلامية ، ص119.

كما حرص على أن يتظاهر أمام الناس بكل ما يحببه إلى قلوبهم ، فقد قيل أن خطيباً قد عرض به فى إحدى مواعظه فسمع كافور بذلك فأرسل إليه خلعة ومائة دينار ، فصار الواعظ بعد ذلك يقول : " ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة : لقمان وبلال المؤذن وكافور "[1].

وقد عرف عن كافور حبه للموسيقى والغناء شأنه فى ذلك شأن جميع الزنوج ويقال أنه طرب يوماً فنسى نفسه ومركزه وأخذ يهز كتفيه طرباً ، فلما أفاق لنفسه خجل من الحاضرين وصار منذ ذلك الوقت يحرك كتفيه من حين لآخر حتى يظن الناس أنها مجرد عادة ملازمة له أو حركة لا إرادية[2].

وأدى صعوده من مرتبة العبودية إلى عرش مصر إلى نسج العديد من الروايات حول بداياته الأولى ومنها رواية تذكر أنه مر على السوق يوماً ومعه عبد أسود آخر ، فقال هذا الأخير : " كنت أتمنى أن أباع لطباخ حتى أصبح شبعاناً طيلة عمرى " ، فرد عليه كافور قائلاً : " وأنا أتمنى أن أملك هذه المدينة يوماً ". ثم مرت الأيام وحقق كافور مراده فمر يوماً على السوق فرأى زميله القديم فى ثياب الطباخين وه يحرك القدر فضحك وقال " أدرك كل واحد ما أمله "[3].

كما أن هناك رواية زعمت أن كافور فى بدايته أصيب بمرض جلدى (جرب) اضطره إلى عدم الظهور أمام الناس مما أضطر سيده إلى طرده ، فهام على وجهه فى الشوارع إلى أن مر بأحد الأسواق وطلب من أحد الطباخين بعض الطعام فضربه الطباخ بالمغرفة على يده وهى حارة

(1) الحويرى ، مصر فى العصور الوسطى ، ص132.

(2) أحمد عبد الرازق ، مصر الإسلامية ، ص159.

(3) الأزدى ، تاريخ لدول المنقطعة ، تحقيق على عمر ، القاهرة 2001 ، ص80 – 81.

فرق له رجل طيب القلب فداواه حتى شفى ثم سار به إلى سيده ورفض أن يأخذ من الأخير أجر العلاج قائلا : " إنما أجرى على الله "[1].

ومن سوء حظ كافور أن توالت على مصر فى عهده العديد من المصائب ؛ فقد تعرضت الشام لغزو القرامطة ، كما وقعت بمصر زلازل مروعة وشبت نيران هائلة ودمرت نحو ألفى منزل من منازل الفسطاط. كما أغار ملك النوبة على مصر فجأة وعاث فساداً فى المنطقة الواقعة بين الشلال الأول وأخميم فى مديرية سوهاج، وصاحب ذلك انخفاض فى منسوب ماء النيل. وترتب على ذلك كله أن أصاب البلاد الأوبئة والقحط واشتد الغلاء وكثر الموت[2].

وبرغم ذلك فعند وفاته ترك ثروة ضخمة تقدر بنحو مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعة ولدينا وصف ورد فى أحد المصادر عن حجم مصروفات كافور ندرك منه مدى ثراء هذا الرجل فيقول " بلغ مما كان يعمل فى مطبخ كافور لما قوى سلطانه وكثرت أمواله فى كل يوم من اللحم ألفان وسبعمائة رطل ، وخمسمائة طائر دجاج ، وألف طائر حمام ، ومائة طائر أوز ، وخمسون خروفاً ، ومائة جدى سمين ، وعشرون فرخاً سمكاً ، وخمسمائة صحن حلوى فى كل صحن عشرون رطلاً ، ومائتان وخمسون طبقاً فاكهة ، وعشرة أفراد نقل وخمسمائة كوز فقاع كبير ، ومائة قرابة سكر وليمون "[3].

وفى أواخر عهد كافور ظهرت أطماع الفاطميين فى مصر ، حيث عملوا على نشر دعوتهم بها بل وطلبوا من كافور الدخول فى دعوتهم ، ولم يرفض كافور طلبهم بصورة مباشرة ، ولكنه أظهر معهم أسلوب الدهاء وتظاهر بالقبول ، وكان فى ذلك سياسياً بارعاً حتى أن ابن تغرى

(1) الكندى ، ولاة مصر ، ص311.

(2) الجمل ، مصر الإسلامية ، ص58.

(3) سيدة إسماعيل الكاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص165.

بردى[1] قال عنه *"كان خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جيد العقل داهية .. فكان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله له ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر".*

وظهر ذكائه هنا فى أنه أدرك صعوبة موقفه بين قوتين كبيرتين متعاديتين هما الخلافة العباسية السنية فى الشرق والخلافة الفاطمية الشيعية فى الغرب ، فأمسك العصا من الوسط ولم يتورط فى معاداة إحدى القوتين[2].

وقد توفى كافور الإخشيدى عام 357هـ/967م ، ودفن بالقرافة الصغرى ، وكانت مدة حكمه سنتين وأربعة أشهر ، وقد كتب على قبره بيتين من الشعر جاء فيهما :

ما بال قبرك يا كافور منفردا   بصائح الموت بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك من أدنى الرجال وقد   كانت أسود للشرى تخشاك من الكتب[3]

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية

الدولة الفاطمية

رأي الفاطميون بعد أن أمتد نفوذهم فى بلاد المغرب أن هذه البلاد لاتصلح مركزاً لدولتهم، ففضلاً عن ضعف مواردها كان يسودها الأضطراب من حين لأخر لذا أتجهت أنظارهم إلي مصر[4] .

ففى السنوات الأولى من حكم الخليفة المهدى[5] ، طمع فى إتخـاذ قاعدة للهجوم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية ،لعدة أسباب تميزت بها

---

(1) النجوم الزاهرة ، ج4 ، ص6.

(2) سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، ص151.

(3) سيدة إسماعيل الكاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص286.

([4]) محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ص 59 .

([5]) ايمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية فى مصر " تفسير جديد " ، الدار اللبنانية ، ط 1 ، 1413 هـ -1992 م ، ص 58 .

مصر فى ذلك الوقت من ثرواتها وهدوء الأمر فيهـا، وأهميـة موقعهـا الجغرافى من الناحيتين السياسية والحربية، وقربهـا مـن بـلاد الشـام. فلسطين والحجاز، التى كانت تابعة لمصر منذ عهـود قديمـة [1] . وفـى السنوات الأولى من حكم الخليفة المهدى باءت محاولتـان لفـتح مصـر بالفشل سنة (301هـ-913م)، (307هـ-919م) [2] .

فلما كانت سنة 301هـ جهز المهدي الجيوش من إفريقيـا مـع ولده أبي القاسم إلي مصر، فساروا إلي برقة واسـتولوا عليهـا فـي ذي الحجة، ثم إلي الاسكندرية والفيوم فضيق على أهلهما، وبعث المقتدر بالله العباسي مؤنساً الخادم في جيش كثيف فحاربهم وأجلاهم عن مصـر إلـي المغرب [3] .

رأى عبيد الله المهدى أن يعاود الكرة لغزو مصر؛ فأخـذ فـي إعـداد الجيش لفتحها، وأوفد أبا القاسم على رأس هذا الجيش فى أواخـر سـنة 306هـ ، فأستولى على الأسكندرية سنة 307هـ (919م) دون عناء، ثم سار إلي الجيزة، وأخذ الفاطميون يتوغلون فى بلاد الوجه القبلـى حتـى تمكنوا من الإستيلاء على الأشمونين والفيوم.

على أن الخليفة المقتدر العباسي ما لبث- بعد أن بلغه نجاح الفاطميين فى الزحف على مصر- أن أرسل قائده الخادم على رأس جيش إلي تلـك البلاد، فأنتصر عليهم، وأستولى على سفنهم وأحرقها وبذلك حلت الهزيمة

---

(1) حسـن ابـراهيم حسـن ، تـاريخ الاسـلام " السياسـى ، دينـى ، الـدينى ، الثقافى،الاجتماعى " ، جـ3 ، ط 13 ، دار الجيل ، مكتبة النهضة المصرية ، بيـروت 1991م، ص155 .

(2) ايمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية " تفسير جديد " ، ص 58 .

(3) المقريزى ، اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين ، جـ6 ، ص 19.

بالحملة الفاطمية، وكان من أهم عوامل إخفاقها أن الخطة التـى وضـعها المهدى لغزو مصر لم تنفذ بدقه، ذلك أن أبا طاهر الجنابي أمير القرامطة ببلاد البحرين لم يتقدم بجيشه إلي مصر ليعاون جيش الفاطميين[1] .

وتكررت المحاولات فى زمن أبنه القائم بأمر الله (323هـ-934م) ولكنها لم تحقق شيئاً على الأطلاق، بل نبهت الخلافة العباسـية إلـي أن أستمرار هذه المحاولات يتطلب وجوداً عسكرياً فى مصر، فقـد أكتشـف القائد مؤنس الخادم الذى تصدى لهجوم الفاطميين المتتالى، أن للفـاطمين عملاء كثيرين بمصر.

فأسند العباسيون إلي محمد بن طغج الاخشيد ولاية مصر بالأضافة إلي ولايته على الشام، ولم يكن تعينه فى الواقع سوى العـودة إلـي النظـام الطولونى الذى سقط 292هـ-904م [2] .

وتلك الغزوات وأن كانت قد فشلت من الناحية الحربية، إلا أنهـا قـد مهدت السبيل لنشر الدعوة الشيعية فى مصر. فقد أصبح فيها عدد كبيـر يعطف عليها، وكاتبوا الفاطميين وطلبوا إليهم غزو مصر ووعدوهم العون على فتحها. يدل على ذلك الخطبة التى ألقاها المعز على رؤسـاء كتامـة قبيل رحيل جوهر إلي مصر. فقد جاء فيها:" وانى مشغول بكتب ترد عليّ من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطى". مما يدل علي أن الشيعيين فى مصر أرسلوا إلي المعز كتباً جاء فيها:" إذا زال الحجر الأسود فقـد ملـك مولانا المعز الدنيا كلها" وكان لهذه المكاتبات التى دارت بين المصـريين والمعز أثر عظيم فى تسهيل فتح مصر على يد جوهر [3] .

المعز لدين الله :

(1) جمال سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 59 و60 .

(2) ايمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية " تفسير جديد " ، ص 58 .

(3) على ابراهيم حسن ، تاريخ جوهر الصقلى ، ص 53 و54 .

هو أبو تميم معد ابن المنصور أبي الطاهر بن القائم أبي القاسم محمد ابن عبيد الله المهدي ، ولد سنة 319هـ. في مدينة المهدية... وتسلم الخلافة سنة 342هـ عندما كان عمره 23عاما بعد وفاة أبيه المنصور سنة 341هـ [1] . وكان ذكياً يتقن لغات كاللاتينية واليونانية والسودانية، فضلاً عما تمتع به من صفات السياسة والبساطة، فهو يوصف بجبار بيت الشيعة.

وفي عهده دانت له قبائل البربر كافة، ولا سيما قبيلتا بني كملان وبني مليلة من قبائل هوارة، وقد أبتا أن تذعنا للخلفاء الفاطميين من قبله. ويرجع الفضل في امتداد نفوذه على كافة بلاد المغرب إلي جوهر الصقلي. الذي بعثه على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة لفتح ما بقى من بلاد المغرب. فوصل إلي ساحل المحيط الاطلسي، وأرسل إلي مولاه المعز هدية من سمك هذا المحيط إشعاراً ببلوغ نفوذه أقصى بلاد المغرب غرباً.ولما دانت بلاد المغرب للمعز فكر في فتح مصر[2] .

<u>الاحوال الداخلية في مصر قبيل الفتح الفاطمي:</u>

كانت السلطة الحقيقية في مصر خلال عهد الأخشيدين عقب وفاة محمد بن طغج، في يد كافور العبد الأسود الخصي الذى أصبح قائد الجيوش ومدبر أمر مملكتهم.

وقد أثار الفاطميون إلي جانب الحمدانيين الخلافات في ممتلكات كافور الذى تمكن من الأحتفاظ بسيطرته عليها بفضل حنكته السياسية. فقد

([1]) عارف تامر ، المعز لدين الله الفاطمي " واضع اساس الوحدة العربية الكبرى " ، دار الافاق الجديدة ، ط 1 ، بيروت 1402 هـ - 1982 م ، ص 67 .

([2]) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ص 155 .

كثر دعاة الفاطميين فى مصر ونجحوا فى أستمالة عدد كبير من أهل البلاد، حتى أن يوم عاشوراء كان لايخلو من الفتن حول قبر كلثوم وقبر السيدة نفيسة، وكثرت المنازعات بين الجند السودان وجماعات من الرعية كان الجنود يتعصبون فيها على الشيعة. وبشر هؤلاء الدعاة بقرب قدوم الجيوش الفاطمية متى ذهب الحجر الاسود يعنون كافور.

وأجتمعت عدة عوامل مهدت الطريق لتحقيق هدف الفاطميين فى غزو الشرق، كان على رأسها الحالة الأقتصادية السيئة التى كانت تمر بها مصر فى أواخر حكم الأخشيدين (352-358هـ/963-968م) وضعف الخلافة العباسية المتزايد تحت سيطرة الشيعة البويهيين، وجاءت وفاة كافور فى سنة (357 هـ/ 968 م) لتزيل أخر عقبة امام الفاطميين نحو تحقيق هدفهم، فلم توجد شخصية قوية تخلف كافور فى البيت الأخشيدي، وتولى زمام الأمور الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات فعجز عن تلبية رغبات الطائفتين الكافورية والأخشيدية، فى نفس الوقت الذى أستمر فيه نقص مياه النيل وتزايد فيه الغلاء وأضطربت الأسعار مع هبوط قيمة الخراج.

فضاق قوم من المصريين بالأوضاع وكتبوا إلي المعز بأفريقيا يدعونه لأرسال جنوده ليسلموا إليه مصر، ولم يقصد هؤلاء المصريون المعز الا لأدراكهم مدى ضعف الخلافة العباسية. وقوة فتيه قادرة على تدارك ما اعترى البلاد من تدهور وفساد.

وقد حاول الوزير أبن الفرات إصلاح بعض هذا الفساد، فخانه سوء تدبيره وأدى به إلي محاصرته فى داره وتهديد حياته من قبل الأخشيدية والكافورية، بعد أن قبض على جماعة وصادرهم وكان من بينهم يعقوب بن كلس- وهو يهودي من العراق أسلم فى زمن كافور- ولكنه تمكن من الهرب مستتراً إلي أفريقيا حيث التقى بالخليفة المعز وأطلعه على ما تمر به مصر من أزمات سياسية وأقتصادية، فوجد المعز

الفرصة مناسبة لإرسال جيشه لفتح مصر. ومن الممكن أن يكون بن كلس قد أعتنق المذهب الأسماعيلي وهو ما يزال بمصر على يد الدعاه. ولقد لعب دوراً بارزاً فى تثبيت دعائم الدعوة الفاطمية فى مصر، حيث أسند له المعز-بعد أن دخل مصر- أمر تنظيم الأدارة الحكومة الفاطمية والإشراف على الدعوة نفسها [1].

أستعدادات المعز لفتح مصر :-

أعد المعز العدة لفتح مصر قبيل وفاة كافور؛ ففى سنة 356هـ (967م) أمر بإنشاء الطرق وحفر الأبار فى طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة [2] .

وحينما شرع في تجهيز عسكره سألته أمه تأخير ذلك لتحج خفية فأجابها وحجت فلما وصلت إلي مصر أحس بها كافور الأخشيدي الأستاذ فحضر اليها وخدمها وحمل اليها الهدايا وبعث فى خدمتها اجناداً ، فلما رجعت من حجتها منعت ولدها من غزو بلاده،وأستجاب المعز لذلك حتى وصلته الأخبار بوفاة كافور سنة 357هـ ،وحينئذ أخذ فى إعداد المال اللازم لتجهيز حملته لفتح مصر، والتى يقال انها بلغت أربعة وعشرين مليون دينار، كما بعث إلي دعاته بالبلاد المصرية أعلاما وأمرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما قربت عساكره من مصر.

وعهد المعز لدين الله إلي جوهر الصقلى بقيادة الحملة التى أعدها لفتح مصر وخرج لوداعه يوم رحيله من القيروان فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة 358هـ [3]: فوقف جوهر أمام خليفته؛ ليقبل يده

([1]) ايمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية " تفسير جديد " ، ص 64 .

([2]) محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 63 و64 .

([3]) محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 64 .

وحافر فرسه، فأمره المعز، وقال له أركب، فركب. وقد خرج المعز لـدين الله بنفسه لوداع الجيوش بقيادة جوهر، وقال كلمة تظهر مدى ثقته فـى قائده واستشرافه للنصرعلى يديه:" والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر، وليدخلن مصر بالأرديه من غير حرب، ولينزلن في خرابات ابن طولـون ويبنى مدينة تقهر الدنيا" [1] .

وفي الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة 358هـ، سـار جوهر نحو مصر، ومر على برقة، ثم استأنف المسير إلـي الأسـكندرية، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة، ومنع جنده من التعـرض للأهـالي، وأستطاع أن يكبح جماح عساكره الذين وسعت لهم الارزاق [2] .

وتوالت الأخبار في مصر بقدوم جوهر، فجمع الوزير أبو الفضـل القواد وشاورهم فوقع رأيهم على تقديم نحرير سويدان فأسـتدعوه مـن الأشمونين وعقدوا له رئاسه عليهم .

ووصل الخبر بوصول جوهر برقه فتجمع رأي الجماعة علـى أن بعثوا أبا جعفر مسلماً الحسني وأبا إسماعيل بن أحمد الزبيني وأبا الطيب العباس بن أحمد العباس والقاضي أبا ظاهر وغيـرهم، ليلقـوا جـوهراً ويقرروا معه الصلح وتسليم البلاد وبالفعل أرسل لهم جوهراً الأمان علـي أموالهم وأنفسهم .

على أن أهل الفسطاط لم يقبلوا هذا الأمان كما تبين مـن الوقـت نفسه أن طائفة كبيرة من الجند كانت غير راضية عن عقد الصلح وقالوا ((ما بيننا وبين جوهر إلا السيف)) ؛ وتزعم (نحرير) المقاومـة، وعلـم بذلك جوهر فتقدم بجيشه إلي الجيزة واستطاعت فرقة من جنـده عبـور النيل عند منية شلقان (شرقى القناطر الخيرية)، ودار القتال بينهما وبـين

([1]) اسامة حسن ، جوهر الصقلى " قائـد المعزلـدين الله " ، دار الامـل ، القـاهرة ، 1997، ص 30 .

([2]) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ص 155 .

الجند المصريين فقتل منهم عدد كبير ، فاستقر رأى المصريين على مطالبة الشريف أبى جعفر مسلم الحسينى بالكتابة إلي جوهر فى إعادة الأمـــان ، فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد فأجاب القائـــد الفـــاطمى دعوة الشريف وأعاد الأمان وأذاع على الجند منشوراً يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال السلب والنهب، ثم خرج أبو جعفر مسلم وجعفـــر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء ووجوه التجار والأعيان إلي الجيزة لاستقبال جوهر وهدأت الحالة فـــي الفســـطاط وعـــادت الأعمـــال التجارية إلي ما كانت عليه وهكذا بدأ حكم الفاطميين فى مصر وزال عهد الدولة الإخشيدية [1] .

ظلت مقاليد الأمور فى مصر بيد جوهر حتى قدم المعز فى ســـنة 362 هـــ. وقد أستأثر المعز بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ، على أن جوهراً بقي بجانب المعز يدله على أحوال البلاد ويشير عليه بما تتطلبه من وجوه الأصلاح.

ولم يذكر التاريخ شيناً يدل على أن المعز قد حفظ لذلك الفاتح العظيم ما كان له من الأيادى البيضاء على الدولة الفاطمية، وما قام به مـــن فـــتح مصر والشام وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين فيها ونشر الدعوة لهـــم بها، وصد غارات القرامطة عن مصر، تلك الغارات التى كادت تقضي على الدولة الفاطمية الناشئة.

وكل ما حفظه لنا التاريخ أن المعز- على الرغم مما حبا به جوهر من العطف وأولاه من الثقة وحسن التقدير- قد اقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة كالخراج والحسبة والسواحل والأعشـــار والجـــوالي والأحبـــاس والمواريث والشرطتين وغيرها، وقلدها يعقوب بن كلس وعســـلوج بـــن الحسن.

([1]) جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 65 .

378هـ / 988م استأذنه بن كلس فى أن يعين جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة فى أوقات منتظمة مستمرة، على أن تعقد حلقاتهم بالأزهر كل يوم جمعة وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيهاً ، وقد رتب لهم العزيز أرزاقاً وجرايات شهرية ثابتة وبنى لهم داراً لسكناهم بجوار الجامع الأزهر . اشتد المرض على الخليفة العزيز فجأة ومات فى سنة 386هـ / 996م .

الحاكم بأمر الله:-

وقد تولى الوزارة للحاكم بأمر الله أبو عمار أحد العناصر المغربية من قبيلة كتامة وكان رجلاً مستبداً بأمور الحكم على، وقام بمحاباة العنصر المغربى على العنصر التركى وكان يوقف الوظائف على المغاربة ويقيل منها الأتراك ،لذا تعاظمت سطوة طائفة المغاربة على طوائف الجيش الأخرى وعاثوا فساداً فى البلاد؛ وزادت سطوته عندما كان يدخل قصر الحاكم ويتعرض لجوارى القصر بالبيع والأخذ وكأنها ملك يديه، وقد أشار عليه بقتل الحاكم إلا أنه لم يفعل احتقاراً للحاكم واستصغاراً له(1).

---

(1) مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، الجزء الأول ، ت: جمال الدين الشيال ، الطبعة الثانية، القاهرة 1965 ، ص 131؛ الأزدى ، أخبار الدول المتقطعة، تحقيق : على عمر، الطبعة الأولى ، القاهرة 2001 ، ص 119 ؛ إبراهيم رزق الله ، التاريخ الفاطمى السياسى، القاهرة ب.ت ، ص 241-242؛ أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية فى مصر، لبنان 1992، ص 97-98؛ عبد المنعم ماجد ، الخليفة المفترى عليه، القاهرة 1959، ص 29-30،محمد جمال= =الدين مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة 1960، ص 59-60؛ محمد عنان، الداكم بأمر الله÷ ص 91-92-93؛

B. Lewis, V.I. Menge, CH. Pellt and J. Schacht, EI^2, pp. 76, 77; Stnleylane, Poole, M.A., Littid, History of Egypt, p. 124; Hassan, Islmic History, p. 240.

بيد أن الصراع نشب بين برجوان وبين ابن عمار؛ أو الصراع بين الأتراك وبين المغاربة والذى انتهي بتنحية ابن عمار وتولية برجوان مقاليد الوساطة وقد استبد برجوان بالحكم كابن عمار وتجبر وأقصى الحاكم عن الحكم فلما ضاق الحاكم ذرعاً أوعز إلى زيدان الصقلبى بقتله فقتله، وعندئذ اعتبر الأتراك أن هذه ضربة لهم من بربر كتامة فاجتمعوا حول قصره مخاطبين الخليفة فخرج لهم ووجه حديثه إليهم وطلب إلى الكافة الولاء والطاعة، كما أمر كاتب الإنشاء بكتابة سجل يبرر فيه قتله لبرجوان[1].

وقد كان للحاكم معاملة خاصة مع أهل الذمة ومع المخالفين للمذهب الشيعى وقد قويت شوكة المسيحيين فى هد أبيه العزيز لأنه تزوج من امرأة نصرانية فأحب مجاملة النصارى لخاطرها وعندما تولى الحاكم الخلافة وجد أهل الذمة وقد قويت شوكتهم واشتد بأسهم بين المسلمين ، فألزمهم بالتمييز عن المسلمين بعلامات خاصة عرفت بالغيار، وجعل القبط يحملون صلباناً ، واليهود يحملون الخشب ومنعهم من ركوب الخيل وألزمهم بركوب البغال والحمير، كما أمرهم أن يتميزوا فى الحمامات عن المسلمين ثم أفرد لهم حمامات على حدة، ولكن أهل الذمة نزعوا الغيار، وتشبهوا بالمسلمين حتى لا يعرفوا مما آثار غضب الحاكم عليهم وأتخذ نحوهم قوانين صارمة لم تعرف قبلاً ، وذلك بأن جعل النصارى يحملون

---

(1) الدودارى ، كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، ت : صلاح الدين المنجد ، القاهرة 1961، ص 265؛ إبراهيم رزق الله ، التاريخ الفاطمى ، ص 42؛ أحمد عبد الرازق، تاريخ وآثار مصر، ص 182؛أيمن ، الدولة الفاطمية ، ص 98-99؛ ماجد ، الحاكم بأمر الله، ص 31-32-33؛ سرور، مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص 60؛ عنان ، الحاكم بأمر الله ، ص 93-94؛

B. Lewis, V.I. Menage, CH. Pellt and J. Schacht, EI^2 p. 77; Stanleylane. Poole, M.A., Liteid, History of Egypt, p. 125; Haassn, Islamic History, p. 239.

صلباناً ثقيلة طولها ذراع ونصف ووزنها خمسة أرطال بعد أن كان طولها شبراً وختمها بالرصاص ، أما اليهود فجعلهم يلبسون الزنـــار ويحملـــون الخشب الثقيل، كذلك منع النصارى من تقديم النبيذ فى قرابينهم ، وأمـــر بأن يمحو الناس الصلبان المرسومة على أيديهم وسواعدهم، وأكثر مـــن ذلك أمر بهدم الكنائس والبيع والأديرة فى مصر وصـــادر أملاكهـــا، كمـــا أصدر سجلاً إلى واليه على القدس يأمره بهدم كنيسة القيامة : جاء فيـــه "أمر الإمامة إليك بهدم قمامة فاجعل سماءها أرضاً وطولها عرضاً" ولعل السبب وراء هدم الحاكم لهذه الكنيسة هو قيام ملك الـــروم بهـــدم جـــامع القسطنطينية ، ورغم هذا فإن الحاكم فى آخر سنة من حكمه عدل علـــى الشروط العمرية واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار فقط وهـــى العلامـــة المميزة لهم وأصدر بذلك عدة سجلات يأمر فيها ببناء ما تهدم من الكنائس ورد أوقافها، كذلك أعيد بناء كنيسة القيامة وإن قيل ابنه الظاهر هو الذى وافق على ترميمها.

وقد كان للحاكم أعمال ومواقف حسنة تشهد له مثل زهده وتقشفه الذى تجلى فى رفضه للتعليم الذى تركه أبوه وجده ، لذا خرج من قصـــره جماعة من حظاياه ، وأعتق كافة مماليكه من الإناث والذكور كمـــا أخـــذ جواهر وأملاك والدته واخوته وزوجته محتذياً فى ذلك بالخليفة عمر بـــن عبد العزيز وكذلك أبطل ما كان يستعمل رسمه من الثياب البياض ، شعار الفاطميين ثم أصبح السواد مع عمامة زرقاء، ثم جعلها أيضاً سوداء زيادة فى التقشف ، وصار يركب من غير زينة، بل صار يركب الحمير بدلاً من الخيل مخالفاً عادة آبائه السابقين، ونهى عن تقبيل الأرض بين يديه وكذا تقبيل اليد والانحناء بالسجود إلى الأرض وقد اعتبر ذلك من صنيع الروم، وأمر ألا يصلى أحد عليه فى مكاتباته كما جرت عليه العـــادة مـــن قبـــل. والحق أن كل هذه الأمور قد قلبت الأوضاع المتعارف عليها فى عصره.

أما عن دار العلم ، فقد أقام الحاكم مكتبة دعاها دار العلم أو دار الحكمة جلس فيها الفقهاء والعلماء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ودخل الناس إليها فكانوا بين ناسخ ومطلع؛ فكانت تغص بالجماهير من جميع أنواع طلبة العلم بين منجمين ونحويين وفقهاء وغيرهم وكانت تلك الدار مزخرفة بالستائر والنقوش والفرش الثمين وجعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر والأقلام والورق . وكان الحاكم يدعو إليه العلماء والأطباء والفقهاء كل فئة على حدة للمناظرة بين يديه .

وعلي أية حال قتل الحاكم سنة411هـ ولم يعثر له علي جثة وقيل في ذلك أقاويل كثيرة منها أنه أراد إخفاء نفسه ليحيطها بسياج من التقديس. وعندما علم الرعية باختفاءه صارت جماعة من الجهال المغفلين من وادى القيم من نواحى الشام يعتقدون حياة الحاكم إلى الآن ويقولون لابد أن يظهر فى آخر الزمان ويعود إلى الخلافة وأنه هو المهدى لا محالة، ويحلفون إلى الآن بغيبة الحاكم.

خلافة المستنصر:

هو أبو تميم معد الملقب بالمستنصر بالله؛ وقد اتفق جميع المؤرخين على أن مولده كان فى السادس عشر من جمادى الأخرى فى 420هـ وقد تولى الخلافة فى ليلة النصف من شعبان فى سنة 427 هـ وكان يبلغ من العمر سبع سنين ، هذا وقد استمر فى الخلافة حوالى ستين سنة وأربعة اشهر وتعد هذه المدة أطول مدة حكم يمكن أن يسمع بها أى إنسان فى عصره[1] .

---

[1] ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، المجلد الخامس ، ص229 ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ2 تحقيق : عبد القادر أحمد= =عطا ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، ب. ت ص45 ؛ الخطط المقريزية ، جـ1 ، دار صادر (بيروت) ، ب. ت ، ص355 ؛ جـ2 ، ط1 ، دار الكتب العلمية ،

كذلك لُقب المستنصر بالإمام اقتضاء بإمامة جده على بن أبى طالب وقد تمسك الفاطميين بهذا اللقب لما فيه من معنى دينى فى إمامة المسلمين كإقامة الصلاة وفضلوه على لقب الخلافة الذى كان يعنى النيابة وحدها والاستخلاف فى الزمن ، هذا وقد اختير للإمام لقب المستنصر بالله بمعنى أن الله فى نصرته ، وقد قيل أن المعز عندما جاء إلي مصر طلب من علمائها أن يكتبوا مجموعة من الألقاب تصلح لتسمية الخلفاء منهم ، فكتب له العلماء ألقابًا كثيرة.

هذا وقد جرت العادة فى ذلك الوقت أن تصدر سجلات إلي حكام الولايات والدعاة تعلن فيها أخبار بيعة الإمام الجديد؛ وبالفعل أُرسلت هذه السجلات وبُين فيها ما تم به المستنصر من الفضائل ، وكذلك دعى له على المنابر ونقش اسمه على النقود ، وطرز على رايات الجيش وبنوده ، وعلى الملابس الرسمية "الطراز" وبذلك تمت توليت الإمامة بكل الرسوم والتقاليد الفاطمية فى مصر.[1]

أ- <u>تحكم أم المستنصر فى شئون البلاد :</u>

تعتبر أم المستنصر ثانى الشخصيات النسائية التى لعبت دورًا أساسيًا فى تدبير شئون البلاد ، فقد قامت بالوصاية قبل ذلك على الظاهر والد المستنصر ست الملك وقامت بتدبير شئون البلاد وأن كانت ست الملك

ب. ت ، ص193 ؛ العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق : فهيم محمد علوى شلتوت ، مراجعة : محمد مصطفى زيادة ، ط2 ، دار الكتب المصرية ، 1998 ، ص162 ؛ أحمد عبد الرازق ، تاريخ وآثار مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى ، دار الفكر العربى ، 1999 ، ص189.

GIBB and P.KRAUS, ART AL - Mustansir, EI2, VOL.VII, LEIDEN-NEWYORK-E.J.BRILL, 1993, P.729.

(1) ماجد ، المستنصر ، ص15-19

وصفت بأنها أعقل النساء وأحزمهن ، والحقيقة أن أم المستنصر لم تكـن لها مواصفات ست الملك فى الحزم والعقل بل استغلت وصايتها على ابنها بحكم صغر سنه وأخذت تحجر عليه حتى بلوغه سن الرشد حيث تحولـت هذه الوصاية إلي رغبة شديدة للسيطرة على الحكم، وأحاطت نفسها بعدة مظاهر تؤكد سيطرتها على الأمور ، فاتخذت العلامة للتوقيع على الأوراق الرسمية وكانت علامتها " الحمد لله ولى كل نعمة".[1]كما تلقبت بعدة ألقاب تدل على أهميتها مثل : السيدة الملكة وكانت تخاطب من قبل الخليفة وكبار رجال الدولة "بمولاتنا" ويشار إليها بالجهة الجليلة والستر الرفيع.

والحقيقة أن الرغبة الشديدة لدى أم المستنصر للاستئثار بالحكم قد حجزها فى أول الأمر وجود وزير قوى هو أبو القاسم بن الجرجرانـى ، حيث إننا لم نسمع طول مدة وزارته أن أم المستنصر تمكنت من التـدخل فى شئون البلاد.[2]

أضف إلي ذلك وقوع الخليفة تحت سيطرة نفـوذ رجـال يصـفهم المؤرخون بأنهم رجال سوء من الأوغـاد والرعـاع والأرزال وذلـك لأن الخليفة كان يرى أن الوزراء ليسوا وزراءه وإنما وزراء أمه ، كذلك تدخل الوسطاء والأعوان فى الحكم وخربت الأعمال وطغى الأكابر مما أدى فـى النهاية إلي وقوع البلاد ومرورها بأشد أزمة عُرفت فى ذلك الوقت وهـى التى عُرفت بالشدة العظمى أو (الشدة المستنصرية).[1]

---

(1) ماجد ، المستنصر ، ص23 ؛ نريمان عبد الكريم أحمد ، أحوال المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ، رسالة ماجستير منشورة بآداب عـين شـمس ، 1984 ، ص164.

(2) ماجد ، المستنصر ، ص19-23 ؛ نريمان ، أحوال المرأة ، رسالة ، ص164-167.

(1) المقريزى . الخطط . جـ1 ، ص356 ؛ جـ2 ، ص195 ؛ ماجد ، المستنصـر ، ص24.

ب- الصـــراع بين الأتراك والسودانيين :

ناهيك عما سبق فقد وقعت في البلاد مظاهر أخري من مظاهر الفوضـــي تمثلت في الصراع بين الأتراك والسودانيين؛ وكان السبب المباشر الـــذى أدى إلي اندلاع الفتنة بين الطائفتين هو أن المستنصر من عادته فى كـــل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلي جب عميرة وهو موضع نزهة ، فيخرج إليه بهيئة أنه خارج إلي الحج على سبيل الهزء والمجانة ومعه الخمر عوضًا عن الماء ويسقيه الناس كما يفعل بالماء فى طريـــق مكة.(2)

فلما كان من جمادى الآخرة خرج كالعادة المذكورة فقام احد الأتراك برفع سيفه على أحد السودانيين الذين كانوا فى ركاب المستنصر خـــارج القاهرة ، فهجم عليه كثير من العبيد وقتلوه، بالطبع هذا التصـــرف أثـــار غضب الأتراك ، فذهبوا إلي المستنصر وقالوا له : " أن كـــان هـــذا عـــن رضاك فالسمع والطاعة وأن كان من غير رضى أمير المؤمنين فلا نرضى بذلك" فأكد لهم المستنصر إنه برئ مما حدث.(3)

هنا اصطدم الأتراك بالسودانيين واستطاع الأتراك هزيمة السودانيين هزيمة ساحقة بناحية كوم شريك ، فاستاءت أم المستنصر لذلك لأنها كانت تأخذ من السودانيين وسيلة لفرض سيطرتها ،ولذلك قامت بمدهم بالسلاح والأموال سرًا ،وعندما عرف الأتراك بذلك عادوا ثانية لمحاربة السودانيين فأنكر المستنصر على أمه ما فعلته ، وقام بعزل البابلى وعين بـــدلاً منـــه

(2) ابن ميسر ، المنتقى ، ص24 ؛ المقريزى ، الخطط ، جـــ1 ، ص335 ؛ ابـــن تغرى ، النجوم ، جـــ5 ، ص21 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص52.

(3) ابن ميسر ، المنتقى ، ص24 ؛ المقريزى ، الخطـــط ، جـــ1 ، ص335 ؛ ابـــن تغرى ، النجوم ؛ جـــ5 ، ص21 ؛ جمال سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص274 ؛ ماجد ، ظهور خلافة الفـــاطميين وســـقوطها فـــى مصـــر (التـــاريخ السياسى)، طـــ2 ، ب.م ، 1985 ، ص280 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص52.

محمد بن جعفر المعروف بالمغربى وطلب منه التدخل لتهدئة الموقف ونجح المغربى فى تهدئة الموقف ولكن إلي حين.[1]

والحقيقة أن أم المستنصر لم تستسلم لذلك فقامت بالإرسال إلي العبيد تحرضهم على الأتراك وبالفعل تقابل السودانيين والأتراك فى الجيزة ولكن هذه المرة كان يقود الأتراك ناصر الدولة بن حمدان واشتبك الفريقان فى عدة معارك انتهت هذه المعارك بهزيمة السودانيين وكان من نتائج ذلك أن طلب الأتراك من المستنصر إبعاد السودانيين، وبالفعل قام المستنصر بتنفيذ طلباتهم ، فاستقر حوالى خمسة عشر ألفًا منهم فى الصعيد ومنهم من استقر فى الوجه البحرى فعاثوا فى الأرض فسادًا وقاموا بأعمال السلب والنهب وتعالت صيحات الفلاحين ولكن دون مجيب.[2]

وكان من نتائج الهزائم التى لحقت بالسودانيين ، أن عظم أمر الأتراك وأخذوا يطالبون المستنصر بزيادة مرتباتهم حتى بلغت أربعمائة ألف دينار غير إنهم لم يقتنعوا بالمرتبات التى قررها لهم المستنصر رغم الزيادة من ثمانية وعشرون ألف دينار إلي أربعمائة ألف ، بل ألحوا فى زيادة مخصصاتهم.

---

(1) ابن ميسر ، المنتقى ، ص25؛ المقريزى ، الخطط ، جـ1 ، ص335 ؛ ابن تغرى ، النجوم ، جـ5 ، ص21 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص137 ؛ سرور ،عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص274- 275 ؛ ماجد ، ظهور الفاطميين ، طـ2 ، ص280 ؛ أحمد مختار العبادى ، التاريخ العباسى والفاطمى ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص301 ؛ الصاوى ، مجاعات ، طـ1 ، ص52 .
CH.A.R.GIBB and P.KRAUS, ART AL - Mustansir, EI, VOLUMEVII, LEIDEN-NEWYORK-E.J.BRILL, 1993, P,729.

(2) المقريزى ، الخطط ، جـ1 ، ص335- 336 ؛ جمال سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر (سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها) ، دار الفكر العربى ، 1999 ، ص94-95 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص138 ؛ الخربوطلي ، مصر العربية الإسلامية ، ص164 ؛ جمال سرور ،عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص275.

كذلك قام ناصر الدولة بقطع الميرة عن مصر برًا وبحرًا فغلت الأسعار بها ، وعندما أظهر المستنصر لهم عجزه عن تلبية طلباتهم لقلة إيرادات الدولة ألزموه ببيع ذخائره، فأخرج ما كان بقصره من الذخائر وأخذ الأتراك يقومونها بأبخس الإثمان ، بل أيضًا ارتكبوا أعمال العنف والشدة ونهبوا قصر الخليفة واخذوا ما كان به من أسلحة وأواني مصنوعة من الذهب والمرصعة بالأحجار الكريمة ، كما أغاروا على المكتبات ونهبوا ما فيها من كتب.[1]

هذا وصار العبيد متفرقين فى البلاد واستبد ناصر الدولة بالحكم وقبض على والدة المستنصر وصادرها بخمسين ألف دينار وتفرق عن المستنصر أولاده، بل بالغ فى إهانة المستنصر حتى صار يجلس على حصيرة لا يقدر على غير ذلك ، حتى إنه وصل الأمر بأن ابنة أبى الحسن طاهر بن أحمد النحوى كانت تبعث إليه كل يوم برغيفين.

وبعد ما تخلص ناصر الدولة من السودانيين أراد أن يستبد بالأمور دون الأتراك فاستولى على أموالهم وكان ذلك مما جعلهم يسعون للتخلص منه فقاموا بالشكوى من تصرفاته إلي خطير الملك وزير المستنصر ، فطلب منهم الخروج عليه ومناهضته ، ثم قاموا بالشكوى إلي المستنصر فطلب المستنصر من ناصر الدولة الرحيل من مصر ، ولكنه توجه إلي

(1) ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، جـ1 ، طـ2 ، الطبعة الحيدرية – النجف ، 1969 ، ص523 ؛ أبى الفدا ، المختصر فى اخبار البشر ، ترجمة : المؤلف ، جـ2 ، مكتبة المتنبى ، ب.ت ، ص189 ؛ ابن ميسر ، المنتقى ، ص32؛ المقريزى ، الخطط ، جـ1 ، ص336 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص138 ؛ الصاوى ، مجاعات ، طـ1 ، ص54 ؛ ماجد ، ظهور الخلافة ، ص283– 286 ؛ سرور ،عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص275.

الجيزة وخرج الخليفة على رأس فرقة لمحاربته وبالفعل استطاع هزيمتـه ففر مهزومًا إلي إقليم الجيزة حيث انضم إليه فريق من الإعراب. [1]

وبالرغم من الانتصار الذى حققه المستنصر على ناصر الدولة إلا أن سلطته لم تتعدى عاصمته ، فبينما كـانوا الجنـد السـودانيين يثيـرون الاضطرابات فى الوجه القبلى كان نحو أربعين ألف فارس من قبيلة لواته والإعراب بزعامة ناصر الدولة يغيرون على الوجه البحرى وينهبون البلاد ويحطمون الجسور مما أدى إلي انقطاع المؤن والإمدادات عـن القـاهرة والفسطاط.[2]

وبلغ من استهانة ناصر الدولة بالخليفة المستنصر إنه بعث إلي آلب ارسلان السلطان السلجوقى يستدعيه إلي مصر وعمل على إقامة الـدعوة العباسية فى مصر وإزالة خلافة الفاطميين منها.[3] وحقيقة لقد تنبأ بعض الأتراك الموجودين فى ذلك الوقت مثل الدكز وبلدكوش لمدى خطورة ناصر الدولة باستبداده على أمور البلاد ورغبته فى إزالـة الخلافـة الفاطميـة وإقامة الدعوة العباسية.لذا قاموا بتدبير مؤامرة له لقتله وبالفعـل ركـب فريق منهم ذات ليلة وانقضوا عليه بسيوفهم ولم يكتفوا بذلك بل تتبعوا كل أفراد أسرة بنى حمدان بمصر وتخلصوا منهم ، والحقيقة لم يكـن حـال

---

(1) ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، جـ1 ، طـ2 ، ص523 ؛ أبـى الفـدا ، المختصر ، جـ2 ، مكتبة المتنبى ، ص190 ؛ المقريزى ، الخطـط ، جـ1 ، ص336 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص138 ؛ جمال سرور ،الدولة الفاطمية ، ص95 ؛ عصر الفـاطميين ، موسـوعة ، ص275- 276 ؛ اتربـى ، الـدر المنتخب، جـ1 ، ص171.

(2) جمال سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص276.

(3) أبى الفدا ، المختصر ، جـ2 ، ص190 ؛ ابن ميسر ، المنتقى ، ص35 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص138 ؛ جمال سرور ، عصـر الفـاطميين ، موسـوعة ، ص276.

المستنصر مع الدكز وبلدكوش خيرًا من حاله مع ناصر الدولة ، حيث فرضوا عليه نفوذهم وعمل بلدكوش على سد منافذ القاهرة مما أدى إلى انعدام الأمن وكثرة النهب والسرقة فى البلاد حتى ضاق المستنصر ذرعًا مما يجرى حوله.وبقى الحال على ذلك إلي أن جاء بدر الجمالى أمير الجيوش فتخلص من هؤلاء الأتراك واستقامت أمور البلاد.(1)

مرت البلاد بكثير من الأوبئة والمجاعات والأزمات الاقتصادية ولعل اكبر مجاعة حدثت فى عهد الخليفة المستنصر ، فمرت البلاد فى عهده بكثير من الأوبئة والأزمات الاقتصادية الواحدة تلو الأخرى فى السنوات 1052/444، 1054/446، 1055/447، 1056/448 وفى 1058/450. وتعد مجاعة 1065/457 إلي 1071/464 أطول وأبشع المجاعات التى تعرضت لها البلاد إذا امتدت سبع سنين وعرفت بالشدة المستنصرية نسبة لهذا الخليفة أو "الشدة العظمى".

وأن كان هناك من يرى أن هذه المجاعة امتدت ثمانى سنين (446-454هـ) وهناك أيضًا اختلاف فى الآراء حول الوقت الذى بلغت فيه هذه المجاعة أشدها فمنهم من يرى إنها بلغت أشدها فى 1069/462 ومنهم يرى فى 1069/461، ويقال أن هذه المجاعة تعادل المجاعة التى حدثت فى أيام يوسف الصديق.(2)

---

(1) أبى الفدا ، المختصر ، جـ2 ، ص190 ؛ جمال سرور ،الدولة الفاطمية ، ص98 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص138- 139 ؛ سرور ، عصر الفاطميين، موسوعة ، ص278 ؛ اتربى ، الدر المنتخب ، جـ1 ، ص171؛ الصاوى ، مجاعات ، ص58- 59 .

(2) إياس ، بدائع الزهور ، جـ1 ، ص73 ؛ ماجد ، المستنصر ، ص155 ؛ ظهور الخلافة ، ص369- 370 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص139 ؛ حسن إبراهيم ، الدولة الفاطمية ، ص171 ؛ تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى= =والاجتماعى ، جـ4 ، طـ14 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1996 ، ص171 ؛، جـ3 ، طـ15 ، ص162 ؛ نريمان ، أحوال المرأة ، رسالة ،ص72 .

والحقيقة أن تلك المجاعات حدثت فى عهد وزارة اليازورى الذى عمل على إيجاد حلول مؤقتة من أجل التقرب من الخليفة ، فعمل على تخـزين الغلال فى مخازن ويتاجر فيها ويبيعها للتجار بالسعر الذى يريده؛ وكـان هذا الاحتفاظ بهذه الغلة أشبه باحتياطى البلاد ، كذلك عمل علـى توزيـع الغلال على الاهلين ،كما قام بنصيحة المستنصر بألا يخـزن الغـلال وأن يخزن غيرها من المواد التى تأتى بربح أكبر مثل :

الخشب والحديد والرصاص والصابون والعسل وعندما حدثت المجاعة لـم يعد يوجد احتياطى من الغلال فى حوزتهم فى الوقت الـذى تلاعـب فيـه التجار بأسعار الغلال ، وقد أدرك اليازورى خطأه فعمل على مصادرة مـا فى مخازن التجار وختم عليها.

كذلك لجأ إلي المفاوضات مع ملك الروم قسطنطين التاسع فى سـبيل استيراد ما مقداره أربعمائة ألف أردب من الحبوب ولكن عندما مات هـذا الملك تولت بعده ثيودرة وعاقت إصدار القمـح، علـى كـل حـال هـذه الإجراءات السريعة التى قام بها اليازورى خففت من حدة المجاعات فـى البلاد.[1]

بالرغم من المجهودات التى بذلها اليازورى من أجل التقليل من حدة المجاعات ولكن بعد وفاة اليازورى قد خُلقت الأسباب التى أدت فى النهاية إلي دخول البلاد على أطول وأبشع المجاعات التى عُرفت أو مـا عُرفـت باسم الشدة العظمى .

<u>أولاً : أسباب الشدة العظمى :</u>

---

(1) المقريزى ، الخطط ، جـ1 ، ص335 ؛ ماجد ، المستنصـر ، ص155- 156؛ ظهور الخلافة ، ص369- 370؛ جمال سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص274.

بالطبع هناك عوامل قد أدت بدورها إلي حدوث الشدة العظمى وسنحاول سرد هذه العوامل قدر المستطاع ويأتى على رأس هذه العوامل :

1- ضعف السلطة المركزية :

يرجع سبب هذه المجاعات وقبل كل شئ إلي ضعف شخصية المستنصر الذى ولى الخلافة وعمره سبع سنوات فقد وقع الخليفة تحت نفوذ رجال من الأوغاد والرعاع والأرزال كما يصفهم المؤرخين وربما لأن الخليفة كان يرى أن الوزراء ليسوا وزراءه وإنما وزراء أمة ، هذا وقد أدى ضعف الخليفة إلي عدم قدرته على التصدى على سيطرت وطموح رجال البلاط والقواد والخصيان الذين كانوا يحيكون الدسائس وساعد على ذلك انسياق المستنصر لما يسمعه من شكايات.

وليس أدل على مدى الضعف من إننا نجد كثرة فى تغير الوزراء حتى أن الوزارة قد شُغلت بأربعون وزيرًا خلال تسع سنوات ونجد أن بعضهم قد قضى فى منصبه يومًا واحدًا ، وفيما يبدو أن تغيير الوزراء بدأ فى عام 450هـ / 58 - 1059م.

ولم يقتصر الأمر على الوزارة فقط بل أيضًا على القضاء فقد بدأ تغير القضاة فى453هـ / 1061م ، وطبيعى أن كثرة تغيير الوزراء والقضاة قد أدى إلي إضعاف قوة الوزراء وأعجزهم عن تدبير الأمور.

وهناك من يرى أن تولية الوزراء والقضاة استمرت طوال الفترة الممتدة من 1058/450 إلي 1073/466 وأن الوزراء قد وصل عددهم إلي أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا ، هذا بخلاف أن المستنصر لم يكن يشارك وزراءه فى المسئولية بل ترك كل شئ تحت تصرف أمه فكانت تتحكم فى تغيير الوزراء كما تريد.[1]

---

(1) المقريزى ، الخطط ، جـ2 ، ص195 ؛ جـ1 ، ص356 ؛ ماجد ، المستنصر ، ص24، 155 ؛ راشد البراوى ، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ط1 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1948 ، ص88 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ،

2- الفتـن والمنازعـات:

زاد الطين بلة حدوث نزاع بين طوائف الجيش الفاطمى ؛الذي كـان يتكون من عناصر متعددة الجنسية وليس عنصـر واحـد فقـط ؛فمـنهم المغاربة وهو أطلق عليهم نسبة إلي بلادهم وهى بلاد المغـرب حيـث أن الفاطميين اعتمدوا عليهم بشكل أساسى لكى يعملوا على استقرار ملكهـم فى مصر.ثم ظهر ميل الفاطميين لاستخدام عناصر أخرى موجـودة فـى الشرق عُرفت بالمشارقة لأنهم من الشرق وهم من الديلم والأتراك كـانوا يعملون كجنود مرتزقة فى جيوش المسلمين.

كذلك كان فى الجيش السود الذين كانوا نصفهم من الزنوج والنصف الآخر من العبيد الذين يشترون من تجار الرقيق ، كـذلك اسـتعانوا فـى الجيش بعناصر أجنبية كالروم أى اليونان وكانت لهم حارات مثـل بقيـة الجيش نذكر منها : حارة الروم والتى أصبحت حارتين : حارة الروم العليا وحارة الروم السفلى.

كذلك استخدم الفاطميين البدو والذين كانوا يؤلفون طلائـع الجـيش الفاطمى وقت الحرب ، وكذلك استخدم الفاطميون المصريين وربما عُرفوا باسم السرائيين حيث يذكر ناصر خسرو بأنهم جاءوا من كل ولاية ولهم قائـد خـاص وكـل مـنهم يسـتعمل سـلاح ولايتـه ، ولعل أسرع الطوائف إلي الفتنة هم الإعراب ولاسيما قبيلة بنى قرة الذين هم عدة بطون من قيس وهلال.[1]

ص139 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص50 ؛ حسن ابراهيم ، الدولـة الفاطميـة ، ص171 ، محمد بركات البيلى ، صفحات من تاريخ الدولة الفاطمية منذ قيامهـا فى المغرب حتى سقوطها فـى مصـر ، مركـز الدراسـات الشـرقية ، ب.ت ، ص123.

(1) ماجـد ، المستنصـر ، ص160- 164 ؛ ظهـور الخلافـة ، ص373- 378 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص51 .

ولعل أبرز صراع حدث بين طوائف الجند فى عهد المستنصر كان الصراع بين الأتراك والسودانيين كما سبق وأن ذكرنا قبل ذلك والذى نتج عنه أن الجند الأتراك اجبروا المستنصر على تزويد مرتباتهم من 28 ألف دينار إلي 400 ألف دينار؛ وكذلك أجبروا المستنصر على بيع محتويات خزائنه من أجل تسديد رواتبهم فأخذوها بأبخس الأثمان.(2)

هذا وقد تعددت الأسباب المؤدية إلي حدوث الشدة منها نقص فيضان نهر النيل، والحقيقة أن الآراء حول هذا العامل قد تعددت فمنهم من يرى أن نقص فيضان النيل عامل أساسى، ويدلل على الرأى هذا بأن النيل فى تلك السنوات لم يبلغ فى السنوات التى حدثت بها المجاعات من الزيادة إلا اثنى عشر ذراعًا وأحد عشر أصبعًا وكان القاع ثلاثة أذرع وأحد عشر اصبعًا.

كذلك رأى أخر يرى أن نقص فيضان النيل يعد عامل من العوامل المؤدية للشدة ولكن ليس العامل الأساسى لأن النيل لم يقل عن 16 ذراعًا إلا فى المرتين (446 ، 460 هـ) وتعدى خلالها 15 ذراعًا ، كذلك من ضمن الآراء التى عُرضت حول ذلك العنصر أن النيل كان يمد خلال سنوات المجاعة السبع ويطلع وينزل فلا يجد من يزرع أراضى مصر من اختلاف العسكر وانقطاع الطرقات فى البر والبحر إلا بالحقارة الثقيلة.

كذلك نجد العديد من الأسباب الأخرى مثل الجفاف وخروج جند الخليفة من الأتراك عن إرادته، كذلك اختلاف الكلمة وانعدام الأمن والحروب الناشئة بين طوائف الجند، والحقيقة أن الأرض صارت بائرة لم تزرع بسبب عدم وجود الرجال أى عدم وجود

(2) المقريزى ، الخطط ، جـ1 ، ص335- 336 ؛ ابن تغرى ، النجوم ، جـ5 ، ص21- 22 ؛ راشد ، الحالة الاقتصادية ، ص89- 92 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص51- 61 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص138.

الفلاحين إما بسبب موتهم أو لفرارهم من الحقول ، فتجد أن الجندى كان يخرج بنفسه هو وعائلته لزراعة الأرض.

كذلك الاختلاف بين عبيد الدولة وضعف قوة الوزراء وقد عجزوا عن تدبير مصالح الدولة وأيضًا سبب أخر غاية فى الأهمية وهو أن المخـازن السلطانية كانت فارغة من الغلال فاشتدت لذلك سوء الأحوال، وكما ذكرنا قبـل ذلـك بـأن اليـازورى أشـار علـى المستنصـر بـأن يقوم بتخزين أشياء أخرى غير الغلال ، هذا ويعرض لنا المقريزى أسباب الأزمة أو المجاعات ومنها الآفات السماوية والتى تتمثل فى قصور النيـل وعدم نزول المطر وتعرض الغلال للقحط أو الرياح أو الجراد أو ما شابه ذلك ، كذلك شراء المناصب والمراكز الحكومية بالمال وفى النهاية العامل النقدى.(1)

ثانيـاً : مظاهـر الشدة :

أول مظاهر هذه الشدة ارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية ارتفاعًا شديدًا ، حيث وصل الأمر بأن رغيف الخبز كان يباع بخمسين دينارًا وقيل خمسة عشر دينارًا بل أيضًا قيل أربعة عشر دينارًا أو درهمًا.

وكذلك كان يباع أردب القمح بمائتى دينـار وقيـل ثمـانين دينـارًا والحقيقة أن نتيجة قلة الأقوات كثر عدد الموتى فكان يموت فـى اليـوم الواحد عشرة آلاف ،وكذلك قيل وصل عدد الموتى فى اليوم ثمانية عشـر ألف ويبدو أن من جراء هذه الأزمة فنى ثلث أهل مصر.

---

(1) إياس ، بدائع الزهور ، جـ1 ، ص73 ؛ إغاثة الأمة بكشـف الغمـة ، الهيئـة المصرية العامة للكتاب ، 1999 ، ص22- 31 ؛ اتعـاظ ، جـ2 ، ص130 ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصـر الفاطمى ، دار المعـارف ، 1967 ، ص243 ؛ راشـد ، الحالـة الاقتصـادية ، ص93؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص140 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص61- 62.

والحقيقة أن المستنصر لم يكن أحسن حالاً من أهل البلاد بل إنه هو أيضًا لم يجد ما يقتات به فكانت امرأة ترسل إليه برغيفين فى اليوم أو ببعض الأكل الذى يقتات منه مرة واحدة فى اليوم.

كذلك كان المستنصر أثناء الأزمة يركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجلين لم يكن لهم دواب يركبونها ، بل كان المستنصر يأخذ من أبن هبة الله صاحب ديوان الإنشاء بغلته ليركبها صاحب مظلته.

وقد كان الناس يمتوتون ويتساقطون فى الطرقات من الجوع وكانت النساء تخرج ناشرات شعورهن تصحن: الجوع ! الجوع أو تردن المسير إلي العراق فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعًا ،كذلك المستنصر نفسه ترك القصر وذهب إلي الجامع.

كذلك من المظاهر التابعة للشدة أن أكل الناس الكلاب والقطط وقد أبيع الكلب بخمسة دنانير والقطط بثلاث دنانير ، كذلك أكل الناس الدواب فقد أكُلت بأسرها؛ فلم يبق للمستنصر سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة.

ففى يوم نزل الوزير عن بغلته وغفل عنها الغلام لضعفه من الجوع فأخذها ثلاثة فذبحوها واكلوها فقام الوزير بالقبض عليهم وصلبهم فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم لأن الناس أكلوا فى تلك الليلة لحومهم.

إذن فإننا لا نبالغ إذا ذكرنا بأن الناس لم تأكل الحيوانات فقط؛ بل أيضًا أكلت بعضها البعض فمن شدة الجوع صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويشويه ويأكله ولا ينكر ذلك ، بل صارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب فإذا مر بهم أحد من الناس ألقوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب ، فإذا صار عندهم ذبحوه فى الحال واكلوه بعظامه أو شرحوه وأكلوه وعُرف الزقاق الذى يجلسون فيه بزقاق القتل، ولكن الدولة تعقبتهم وعملت على شنقهم ، كذلك ظهر بعض الطباخين كانوا يقومون بذبح الصبيان والنساء

وأكل لحومهم بل وبيعها بعض طبخها. وزاد الطين بلة أن صاحب هذه المجاعة انتشار الأوبئة والأمراض ولاسيما الجدرى الذى مات منه كثيرون. (1)

ثالثاً : النتائج التى ترتبت على الأزمة الاقتصادية :

كان لهذه الأزمة الطاحنة أثار سياسية واقتصادية وغيرها وأن كانت هذه الآثار متشعبة النواحى وسنحاول أن نعرض لبعض هذه الآثار ومنها: كما سبق وأن ذكرنا أن الوباء قد أدى إلي موت كثير من أهل ريف مصر ومدنها ومن الطبيعى أن ينقضى وقت طويل حتى تعود لحالتها الأولى ففى ذلك الوقت انتقلت ملكية مساحات واسعة من الأراضى إلي بيت المال نتيجة لهلاك أصحابها وانعدام ورثتهم فزاد نظام الحيازة على الملكية الخاصة ،هذا وقد حدث تعديل فى نظام إقطاع هذه الأراضى فأصبحت ابتداء من أيام الوزير المأمون البطائحى تمنح لمدة ثلاثين سنة بعد أن كان الأمر قاصرًا على أربع سنوات، وأصبح أغلب المقطعين من الأمراء والإجناء وكبار الموظفين من أصحاب الرواتب الثابتة.

أما عن إيرادات الحكومة فقد تضاءلت خلال سنوات الأزمة ولما انتهت الأزمة كان على النواحى مبالغ طائلة لم تدفع إلي بيت المال ، كذلك

---

(1) القلانسى ، ذيل دمشق ، ص97- 98 ؛ ابن خليكان ، وفيات ، ص230 ؛ إياس، بدائع الزهور ، جـ1 ، ص73- 75 ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ2 ، ص128- 130 ؛ الخطط ، جـ1 ، ص337 ؛ ابن تغرى ، النجوم ، جـ5 ، ص18- 20 ؛ راشد ، الحالة الاقتصادية ، ص93- 95 ؛ محمد عبد الله عنان ، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ط2 ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ، 1969 ، ص151 ؛ ماجد ، المستنصر ، ص157- 159 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ط1 ، ص139- 140.

النكبة التى أصابت الزراعة واستمرت آثارها زمنًا طويلاً فكان من الطبيعى أن يؤدى ذلك إلي نقص الضرائب العقارية.
كذلك كان للازمة آثار سلبية على الأحياء الشمالية للفسطاط (العسكر والقطائع)، فقد خربت القطائع أثناء الشدة العظمى بالرغم من ازدهارها فى أوائل عهد المستنصر حسب أقوال الرحالة وكانت القطائع وحدها بها مائة ألف دار فصار نتيجة هذا الخراب لا توجد إلا كيمان فيما بين مصر والقاهرة.

كذلك ترتب على هذه المجاعة أن منعت مصر ما كانت ترسله إلي الحجاز من مؤن وغلال ،وكذلك قطعت الخطبة للمستنصر فى مكة والمدينة وخطب للخليفة العباسى ، كذلك قُطعت الخطبة فى بغداد والعراق بعد أن أقيمت عشرة أشهر، ثم قطعت فى الحجاز لمدة سبع سنوات وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة ، وأيضًا دخل النورمان صقلية واستولوا عليها فخرجت صقلية بذلك عن حكم الفاطميين بعد أن ظلت جزءًا من أملاكهم منذ أن قامت دولتهم ، ومن أكبر الخسائر التى مرت بها البلاد أثناء الشدة العظمى هى تلك النفائس والذخائر التى خرجت من قصر المستنصر حيث نُهب الكثير من قصره على يد الجنود الأتراك وزعيمهم ناصر الدولة حتى عجز الرواة عن إحصاء ما نُهب أو بيع من خزائن الكسوات والفرش والأمتعة والطيب والجوهر والسروج.

كذلك من أهم النتائج التى ترتبت على هذه الأزمة هو أن المستنصر عندما عجز على السيطرة على البلاد والقضاء على الاضطرابات ؛قام بالإرسال إلي وزيره بدر الجمالى من عكا وبمجئ ذلك الوزير يكون قد بدأ عهد وهو ما عُرف باسم عصر الوزراء العظام.(1)وفى النهاية توفى

(1) ابن خليكان ، وفيات ، المجلد الخامس ، ص230 ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ1 ، ص337 ؛ راشد ، الحالة الاقتصادية ، طـ1 ، ص97 ؛ ماجد ، المستنصر ،

المستنصر بالله سنة 487هـ / 1094م لتبدأ بعده الدولة الفاطمية طور التداعي والانهيار .

سقوط الدولة الفاطمية :-

قُدر لمسرح الحروب الصليبية أن يشهد مولد شخصية هى الأبرز من بين شخصياته التى لعبت دوراً هاماً ومؤثراً فى تاريخ هذه الحروب ؛ وهى شخصية صلاح الدين الأيوبى(2)[1]. ولا تعد فترة حكم صلاح الدين مجرد فصل من الفصول التى يضمها تاريخ الحروب الصليبية ، بل هى بمثابة لحظة من اللحظات النادرة والمثيرة فى تاريخ البشرية إذ حلت - لفترة وجيزة - العزيمة الأخلاقية ووحدة الهدف محل سوء الظن وخيبة الأمل اللذين ولدتهما معاناة طويلة من جراء طموحات الأمراء الأنانية ، ولولا هذا الأساس لما أمكن لجيوش المسلمين الصمود فى ذلك النضال المضنى ضد الحملة الصليبية الثالثة ، ولو شئنا أن نتصور هذا الانجاز ونفهم مغزاه فى إطاره التاريخى ، فلا بد من بذل محاولة نوضح من خلالها كيف أن صلاح الدين باستخدامه للأدوات المتاحة له فى إطار الظروف السياسية لعصره ؛ قد تخطى كل العقبات التى صادفته فى سبيل إقامة وحدة معنوية ، وأثبت أنها وحدة - وأن كانت لم تصل إلي حد الكمال

ص159 ؛ جمال الشيال ، مصر الإسلامية ، ص244 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص141.

(2)عن شخصية صلاح الدين الأيوبى وبداياته أنظر : عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة 1962 ؛ سعيد عاشور ، صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة 1965؛ إبراهيم طرخان ، صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة 1968 ؛
Lyons, M. & Jackson, D., Saladin : the political of the holy war , (Cambridge , 1982).

على الإطلاق – إلا أنها قد بلغت من القوة ما يكفى لمواجهة التحدى القادم من الغرب[1].

ويجدر بنا أن نستعرض نشأة صلاح الدين قبل أن نرصد دوره التاريخى، فقد كان أبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه قد التقيا بعماد الدين زنكى سنة 527هـ/1132م عقب هزيمته فى الحرب التى نشبت بينه وبين الخليفة العباسى المسترشد ؛ وأراد زنكى عبور نهر دجلة حتى لا يقع فريسة باردة فى يد أعدائه من جنود الخلافة العباسية والسلاجقة ، فساعد نجم الدين الأتابك المهزوم على عبور النهر بسلام ، وكانت هذه الخدمة سببا فى توطد العلاقات بينهما فيما بعد[2]. وفى بلاط نور الدين محمود بلغ الأخوان أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب ذروة المجد ، فقد تولى شيركوه وظيفة نائب السلطنة فى حلب ، كما صار نجم الدين أيوب حاكما على دمشق ، أما الشاب صلاح الدين فقد رافق عمه فى حلب[3]. وهكذا كان أيوب والد صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من أهم رجال البيت الزنكى ، فقد عملا فى خدمة عماد الدين زنكى ومن بعده ابنه نور الدين فى مواجهة الصليبيين. وكان من الطبيعى أن يشب صلاح الدين على نهج أسرته فى العمل فى خدمة هذا البيت تحت إمرة عمه شيركوه.

والواقع أن ما حدث فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى من أحداث ، جعل النزاع بين الصليبيين والمسلمين ينتقل إلي مصر. إذ تطلع نور الدين لضم مصر إلي أملاكه لغناها بالمال والرجال ، وبعد أن تأكد من

---

(1) هاملتون جب ، ظهور صلاح الدين 1169 – 1189م ، ت. سعيد عبد المحسن ، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية ، رام الله 2004 ، ص222.

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج1 ، ص11.

(3) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج2 ، ص10 ؛ قاسم عبده قاسم ، على السيد على الأيوبيون والمماليك ، التاريخ العسكرى والسياسى ، القاهرة (ب.ت)، ص21.

ضعف الخلافة الفاطمية هناك ، وكان هذا المشروع يراود نور الدين بإلحاح نظراً لأهمية مصر فى مشروعه بتوحيد الجبهة الإسلامية فى مواجهة الصليبيين ، ذلك أنه إذا استطاع أن يستولى على مصر استطاع أن يضيق الخناق على الصليبيين ويطردهم من الشام ، بجانب الإلحاح المستمر من جانب الخليفة العباسى بالقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر[1].

وقد جاءت الرياح بما تشتهيه سفن نور الدين حين وقع النزاع بين وزيرين مصريين : أحدهما اسمه ضرغام ، والآخر اسمه شاور ، وقام الأول بطرد الأخير من مصر فاتجه بدوره يطلب المعونة من نور الدين عام 558هـ/ 1163م فى مقابل أن يحكمها باسمه ويكون له ثلث خراجها . واهتبل نور الدين الفرصة وسارع بإرسال جيش إلي مصر بقيادة شيركوه واستطاع الأخير إعادة شاور إلي الوزارة وانتظر أن يفى بتعهداته لنور الدين لكن شاور تنكر لوعوده ، بل وطالب شيركوه بسحب جيشه والعودة من حيث أتى[2].

على الجانب الآخر لم يغب عن أذهان الصليبيين مدى خطورة أن تقع مصر فى أيدى نور الدين ، وما يعنيه ذلك من وقوعهم بين فكى القوى الإسلامية فى مصر والشام ، لذلك لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام ذلك ثم حدث فى أوائل عام 557هـ/1162م أن توج عمورى الأول Amauri I ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية ، مما يعتبر بداية مرحلة جديدة فى سياسة الصليبيين تجاه مصر ، ذلك أن عمورى اتصف بالشجاعة

---

(1) عطيه القوصى ، المسلمون والعدوان الصليبى ، القاهرة 2000 ، ص181؛ السيد الباز العرينى ، الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، الأيوبيون ، بيروت 1967، ص 26.

(2) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج1 ، ص137 ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج1 ، ص418 – 420.

والجرأة والدهاء ، وهى صفات أجمع على وصفه بها المؤرخون المعاصرون من المسلمين والمسيحيين سواء. وقد أدرك عمورى أن سيطرة نور الدين محمود على حلب ودمشق وحماه وحمص شكلت سدا فى وجه الصليبيين ، وحالت دون توسعهم فى شمال الشام ، وبذلك صار الطريق الطبيعى الوحيد الذى بقى مفتوحا أمام حركة الصليبيين التوسعية هو طريق مصر[1].

لذلك سارع عمورى الأول بعرض المساعدة على ضرغام خلال الصراع الذى نشب بينه وبين شاور قبل تد: ر الدين ، كما اهتبل فرصة استنجاد شاور به ضد شيركوه فأرسل جيشاً صليبيا إل مصر على وجه السرعة حاصر شيركوه وجيشه فى مدينة بلبيس، لكن الأنباء تطايرت بتحرك نور الدين فى بلاد الشام ضد مملكة بيت المقدس فى محاولة للتخفيف عن قواته المحاصرة فى مصر ، حيث ضرب نور الدين الحصار علي مدينة حارم وأسقطها عام 595هـ/ 1164م وأرسل راياتها الصليبية إلي شيركوه الذي سارع بنشرها علي أسوار المدينة فعرفوا ما حل بأملاكهم فما كان من عموري إلا أن سارع بطلب الهدنة وتم الاتفاق بين الطرفين علي مغادرة البلاد سويا خصوصا وأن الزاد والمؤن بدأت في النفاد في المعسكر النوري[2].

لم تفت هذه الأحداث فى طموح نور الدين فى ضم مصر مرة أخرى فقام بإرسال شيركوه مرة أخرى إلي مصر عام562هـ/ 1167م ، وجاء شيركوه إلي مصر هذه المرة وفى صحبته ابن أخيه صلاح الدين فى

(1) سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة 1996، ص11.

(2) المقريزى ، الخطط المقريزية ، ج2 ، القاهرة 1326هـ ، ص147 ؛ عبد المنعم ماجد ، الدولة الأيوبية فى تاريخ مصر الإسلامية ، القاهرة ، 1997 ، ص79.

زيارته الأولى لمصر[1]. وأمام هذا الإصرار من جانب نور الدين عاود شاور الاستنجاد بالصليبيين ، فسارع عمورى بإرسال جيش جديد إلي مصر ، ومن جديد اصطدم الجيشان النورى والصليبى دون تحقيق نصر حاسم ، وهنا لجأ نور الدين كعادته فى الضغط على الجبهة الصليبية فى بلاد الشام مما دفع عمورى مرة أخرى لطلب الصلح مقابل انسحاب الطرفين من مصر ، وأن كان قد اتفق سرا مع شاور على بقاء حامية صليبية صغيرة فى مصر مقابل مبلغ من المال[2].

ولم تكد الأمور تهدأ حتى عاود عمورى تفكيره فى غزو مصر ، بعد أن يسرت له الأمر الحامية الصليبية التى تركها بمصر ، وحذرته من تركها عرضة لأطماع نور الدين ورجاله ، لذلك خرج فى العام التالى563هـ / 1168م على رأس جيش جديد لغزو مصر. وفى هذه المرة لم يجد ترحيباً من شاور ، بل أن الأخير توجس خيفة من هذا الهجوم وأصدر أوامره بإحراق القاهرة حتى يفوت الفرصة على الصليبيين فى احتلالها بسهولة[3]. على الجانب الآخر لم يقف نور الدين مكتوف الأيدى أمام هذه المحاولة خاصة بعد استنجاد الخليفة الفاطمى العاضد به وطلبه التدخل ، وسارع نور الدين بإرسال شيركوه فى مهمته الثالثة إلي مصر وفى صحبته صلاح الدين[4].

ولم يستطع عمورى الصمود طويلاً أمام جيش شيركوه مما اضطره للانسحاب والعودة خائباً ، وهنا أصبحت مقاليد الأمور فى أيدى

---

(1) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص236 ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج1 ، ص148.

(2) أبو شامة ، الروضتين ، ج1 ، ص168.

(3) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج5 ، بيروت 1992، ص350.

(4) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص254.

شيركوه وجيش نور الدين ، وكان أول ما فكر فيه هو التخلص من شاور الذى تنكر لوعوده ولاستعانته الدائمة بالصليبيين ، وحانت لحظة القصاص من شاور الذي حنث بوعوده كثيرا واتفقت الأطراف علي قتله جزاءا وفاقا له وبارك العاضد هذا العمل وبالفعل تم قتله والتخلص منه ، خلع العاضد الفاطمي علي شيركوه بخلعة الوزارة وفوض إليه أمر الجيوش ولقب بالملك المنصور وكتب له تقليدا بذلك المنصب واستعان شيركوه بابن أخيه صلاح الدين في تصريف شئون البلاد ، علي أن شيركوه لم يلبث أن قضي نحبه ولم تتجاوز مدة وزارته شهرين فمهد الطريق بذلك لصلاح الدين الذي لم يلبث أن تولي الوزارة علي الرغم من معارضة بعض أمراء الجيش النوري وحقدهم عليه لكونه كرديا ليس منهم ، وتذكر المصادر العربية التقليد الذي تولي بمقتضاه صلاح الدين الوزارة وتلقب فيه بالملك الناصر حسبما درج عليه الخلفاء الفاطميين من منح وزرائهم لقب "الملك" وكتب هذا التقليد القاضي الفاضل ، ولم يكن بدعا أن يتولي أحد السنيين الوزارة للخليفة الفاطمي الشيعي لكون ذلك حدث بالفعل زمن الفاطميين الأوائل الذين وزروا وزراء سنيين من حين لأخر ، وكان عمر صلاح الدين وقتذاك لم يتجاوز الثانية والثلاثين حين ولي الوزارة وقيادة الجيش النوري ونائب نور الدين بمصر[1].

وكانت أول مهمة ملقاة على عاتقه هى مواجهة المشاكل التى برزت نتيجة توليه المنصب فى مصر ، والواقع أنه على الرغم من تعيينه وزيراً بصفة رسمية من قبل الخليفة العاضد إلا أنه كان السلطان ، وكانوا – بوجه عام – ينادونه بهذا اللقب ، كما كانوا ينادون قاضيه الفاضل بالوزير. وكان وجود وزير سنى لخليفة فاطمى يشكل وصفاً غريباً ، ولكنه لم يكن جديداً ، إذ كان هناك وزراء سنيون طوال قرن من الزمان تقريباً على فترات مختلفة فى مصر . ولم تكن مناصرة الطائفة السنية تعنى

(1) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج1 ، ص160.

بالضرورة اعترافاً سياسياً بالعباسيين ، إلا أن وجود الخليفة العباسى على رأس السلطة السنية ، واستظلال حركة الجهاد الإسلامية فى بلاد الشام برايته ، جعلت صلاح الدين يدرك أنه لا سبيل لتحقيق وحدة إسلامية فعالة مع مصر إلا وفق هذه الشروط . لذلك كان عليه أن يعيد مصر إلي ولائها للعباسيين ، غير أنه كان يتحتم عليه التمهيد لهذا التغيير[1].

ولم يكن صلاح الدين أقل تحمساً للمذهب السنى والقضاء على المذهب الشيعى متمثلاً فى الخلافة الفاطمية لأنه كان سنياً شافعياً مخلصاً . لكن فطنة صلاح الدين وبعد نظره جعلته لا يستجيب سريعاً لرغبة نور الدين والخليفة العباسى ؛ إذ آثر أولاً أن يرى رد فعل كبار رجال الدولة فى مصر فى هذه الخطوة خوفاً من حدوث ما لا يحمد عقباه فى ظل انتشار المذهب الشيعى وارتباط الكثير من رجال الدولة بالخلافة الفاطمية[2]. كما كان صلاح الدين يتوجس خيفة من نوايا نور الدين ، إذ بدا له أن الأخير قد تغير شعوره نحوه ، وبات يحسده على المكانة التى وصل إليها ، والنفوذ الذى حققه فى مصر. لذلك رأى صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية فى صورتها الشكلية ليستطيع أن يستغلها عند الحاجة ، إذا تأزم الموقف بينه وبين نور الدين.

لكن صلاح الدين سرعان ما أدرك أن القضاء على الخلافة الفاطمية صار ضرورة حتمية خاصة فى ظل توتر العلاقات مع سيده نور الدين ، لكنه تريث فى الأمر وقرر أن تكون هذه الخطوة تدريجية تلافياً لأية نتائج سلبية تنجم عنها . وقد ذهب فكره أن يكون الأمر فى اتجاهين متوازيين يحققان له بغيته فى النهاية ؛ الاتجاه الأول القضاء على المذهب الشيعى تدريجياً وتشجيع المذهب السنى. والاتجاه الثانى توجيه الضربات المتلاحقة للخلافة الفاطمية ممثلة فى الخليفة الفاطمي وحاشيته وبقايا

---

(1) هاملتون جب ، ظهور صلاح الدين ، ص223.

(2) عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص63.

الجيش الفاطمى. وكان نجاح هذان الاتجاهان كفيلان بالقضاء نهائياً على النفوذ الفاطمى فى مصر على النطاقين المذهبى والسياسى[1].

وقد بدأ صلاح الدين خطته بمحاربة الدعوة الفاطمية ، وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة معاً ؛ إذ كان من ألقابه كوزير تفويض للخليفة الفاطمى العاضد : كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ؛ مما أطلق يده فى هذا الأمر. فقام بعزل قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم وولى بدلاً منهم قضاة على المذهب الشافعى مع أن الأيوبيين أنفسهم كانوا أساساً أشعرية مثل أسيادهم من الزنكيين ؛ حيث أختلط مذهبهم بالفكر الشافعى ، وكانت الأشعرية قد انتشرت بالعراق فشجع صلاح الدين المذهب الشافعى لتقاربه مع الأشعرية ، وبخاصة أن الشافعية كانت مذهب غالبية المصريين قبل مجيء الفاطميين[2]، وربما أراد أن يخالف الفاطميين الذين كانوا يرعون مذهب مالك دون الشافعى.

كذلك قام بتشريد دعاة المذهب الشيعى ، وألغى مجالس دعوتهم ، وكانت الخلافة الفاطمية قد وضعت نظاماً دقيقاً لتحويل المصريين ، وبخاصة موظفى الدولة ، إلى المذهب الشيعى عن طريق هؤلاء الدعاة فقطع بذلك عليهم الطريق لمواصلة الدعوة . كما قام بإزالة أصول المذهب الشيعى مثل صيغة الآذان الشيعى التى تستبدل عبارة (حى على الفلاح) بعبارة أخرى هى (حى على خير العمل) ، وحذف من العملة النقش الدينى الذى يحمل صيغة العقيدة الشيعية (على ولى الله). كما أخذ فى التشكيك فى نسب الفاطميين ، وهو الأمر الذى سبقته إليه الخلافة العباسية ، وأنهم من نسل اليهود أو المجوس ، وأنهم لا ينتمون لبيت النبى. كما منع صلاة الجمع بالجامع الأزهر الذى كان بؤرة تعليم المذهب الشيعى لمدة مائة عام

---

(1) محمد نصر عبد الرحمن ، العلاقات بين الشرق والغرب ، أضواء على تاريخ الحروب الصليبية ، القاهرة 2007 ، ص108.

(2) عبد المنعم ماجد ، الدولة الأيوبية ، ص84.

وحرمه من موارده المالية بحث خبا دوره بعد أن كان أهم مساجد مصر خلال العصر الفاطمى ، وامتدت هذه السياسة أيضاً إلي جامع الحاكم بأمر الله[1].

وفى نفس الاتجاه أخذ على عاتقه تشجيع المذهب السنى وإحياء وجوده من جديد بين المصريين ، ولم يجد صلاح الدين أفضل من التعليم الدينى لتحقيق هذا الهدف ، فقرر عام 572هـ/ 1176م إنشاء مدرستين لتعليم المذاهب السنية ، واحدة للمذهب الشافعى ، والأخرى للمالكى ، ثم تبع ذلك بإنشاء مدرسة للمذهب الحنفى عام 578هـ/1182م[2]. ويبدو أن صلاح الدين نجح فى تحقيق بغيته ولو بشكل جزئى ، ولا أدل على ذلك مما ذكره المقريزى[3] من أن الناس بدأوا يقبلون على المذهبين المالكى والشافعى ، واختفى المذهب الشيعى.

على الجانب الآخر كان صلاح الدين يستعد لتوجيه أولى الضربات الموجعة لجسد الخلافة الفاطمية المريض ، وتحديداً نحو حاشية القصر الفاطمى التى بلغ نفوذها حداً بعيدا خلال العصر الفاطمى حتى أن الدولة الفاطمية أحياناً ما كانت تنسب إليهم فتسمى الدولة القصرية. وكان نفوذ الحاشية قد زاد بشكل واضح فى عهد آخر الخلفاء الفاطميين العاضد ، حيث صارت تتدخل فى شئون السياسة بحيث تمكنت من قتل الوزير طلائع بن رزيك ، وساعدها على ذلك تضخم أعدادها حتى بلغت 18 ألف من مختلف الموظفين من كل نوع ولون ودين يقومون بأعمال القصر[4].

(1) أبو شامة ، الروضتين ، ج1 ، ص201 ؛ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ص66.

(2) ابن شداد ، النوادر السلطانية النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، سيرة صلاح الدين ، ج2 ، القاهرة 1317هـ ، ص7.

(3) الخطط المقريزية ، ج2 ، ص175.

(1) عبد المنعم ماجد ، الدولة الأيوبية ، ص85.

وقد اتجه صلاح الدين للتضييق على هذه الفئة ، خاصة وأن البلاط الفاطمى بات مسرحاً لكثير من الفتن والمؤامرات ، ولم يتورع رجاله عن الاستعانة بالصليبيين فى سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة ، ومن ذلك أن رئيس البلاط الفاطمى ويدعى مؤتمن الخلافة جوهر وكان خصياً نوبياً أسود ، قد استاء من تدخل صلاح الدين فى شئون القصر فدبر مؤامرة للخلاص منه ، وسار على خطى شاور وحاول أن يتصل بعمورى الأول والصليبيين للحصول على مساعدتهم ، لكن سوء حظه جعل رسالته لعمورى تقع فى يد صلاح الدين[1].

ولم يدع صلاح الدين هذه الفرصة تضيع سدى فأهتبلها من فوره وقام بقتل جوهر بتهمة الخيانة والتآمر عليه ، وعين بدلاً منه خصياً آخر أبيض اللون من أتباعه ويدعى بهاء الدين قراقوش مشرفاً على القصر الفاطمى ، بحيث أصبح لا يجرى صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين[2]. وبتلك الخطوة سيطر صلاح الدين تماماً على البلاط الفاطمى.

ثم واصل صلاح الدين سياسته فى تضييق الخناق على الخلافة الفاطمية فصادر المخصصات المالية للخليفة العاضد. كما منع رسوم الخلافة – وهى حفلاتها الرسمية فى الأعياد وغيرها – من ركوب فى المواكب ، وجلوس عام فى القصر الكبير ، وحبس الخليفة وحجبه عن الناس تمهيداً لإزالة مكانته بينهم وعزله. كما ألغى من العملة كلمة المعزية التى تشير إلي الخليفة الفاطمى المعز لدين الله الفاطمى[3]. وظهر قسوة ما أتبعه صلاح الدين تجاه الخليفة الفاطمى فيما ذكره عمارة اليمنى من أن صلاح الدين فعل بالفاطميين أكثر مما فعله الفرنجة[4].

---

(2) أبو شامة ، الروضتين ، ص178.

(3) عبد المنعم ماجد ، صلاح الدين ، ص68.

(4) المقريزى ، الخطط المقريزية ، ج2 ، ص175 وما بعدها.

(1) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج1 ، ص213.

وبعد أن ضيق الخناق على العاضد ، وقضى على نفوذ حاشيته ، لم يتبق أمامه للإجهاز نهائياً على الخلافة الفاطمية سوى القضاء على ما تبقى لها من قوة حربية ممثلة فى بقايا الجيش الفاطمى. وكان الجيش الفاطمى فى بدايته يتكون من المغاربة البربر ، والمشارقة الترك والديلم ، لكن سرعان ما تغيرت طبيعة الجيش الفاطمى واختفى هذان العنصران ، فلم يعد للفاطميين ثقة بالمغاربة بعد انفصال المغرب عن طاعتهم فى عهد المستنصر. أما المشارقة من الترك والديلم فقد استبعدوا من الجيش الفاطمى بعد ظهور السلاجقة الأتراك وقدومهم إلي الشام ومناطحتهم للفاطميين. لذلك كان عماد الجيش الفاطمى من السودانيين ومعظمهم من النوبيين الذين كثروا فى عهد الخليفة المستنصر ، وبلغ عددهم أيام الخليفة العاضد 50 ألف ، وكان ولائهم الأول للخلافة الفاطمية وكانوا يقيمون فى حارات كثيرة بالقاهرة ، حيث اشتهرت منهم طوائف قوية مثل : الفرحية والريحانية والميمونية والحسينية والمنصورية[1].

وقد ظهرت قوة السودانيين فى عهد العاضد ، فسيطروا على الجيش والدولة والقصر ، وكانوا إذا ثاروا على وزير قتلوه ، لذلك تصدوا بقوة لصلاح الدين بعد أن قتل مؤتمن الخلافة جوهر وهددوه ، فوجه إليهم أخاه توران شاه مع جيش من الأتراك ، وفى البداية كانت الغلبة للسودانيين لكن تدخل صلاح الدين فى الأمر وإحراق مساكنهم أدى لهزيمتهم وفرارهم إلي الصعيد[2].

وبعد أن تخلص من شوكة السودانيين اتجه إلي قادة الجيش الفاطمى ، وكان قد استمالهم فى البداية بالمال فأحبوه وأطاعوه ، فلما

---

(2) المقريزى ، الخطط المقريزية ، ج3 ، ص2 ؛ عبد المنعم ماجد ، صلاح الدين ، ص69 ، 70.

(1) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج1 ، ص176 ؛ سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، ص293.

استتبت له الأمور أنقلب عليهم وصادر اقطاعاتهم ومنحها لقادتـه ، ثـم قبض عليهم فى ليلة واحدة وأنزل قادة جيشه فى قصورهم ودورهم حتى أن أى رجل منهم إذا أعجبته دار أخرج أهلها منها ونزل فيها.

وخلال تلك الآونة هاجمت مصر حملـة صـليبية مشـتركة مـع البيزنطيين عام 565هـ/ 1169م ، وقد تحركت الحملـة مـن عسـقلان ووصلت الفرما ومنها تحركت صوب دمياط يدعمها أسطول بيزنطى صقلى وعلى الفور تحرك صلاح الدين لمواجهتها فأرسل ابن أخيه تقـى الـدين عمر لتحصين مدينة دمياط ، وفى الوقت نفسه أرسل إلي نور الدين يطلعه على الأمور ، وقام الأخير بممارسة سياسته المعتادة بالإغارة على بعـض الإمارات الصليبية ببلاد الشام ، وأتت هذه السياسة أكلها ، إذ سرعان ما خف الحصار عن المدينة ورحلت تلك الحملة تجر أذيال الخيبة بعد أن لقيت الفشل الذريع[1].

أصبح الشغل الشاغل لنور الدين محمود لـيس الضـربات التـي يلحقها صلاح الدين بالصليبيين بل كان متمثلا في وجوب إعلان الخلافـة العباسية في مصر ، ولم يعد يحتمل مماطلة صلاح الدين فأرسل له إنذاراً نهائياً فى صيف عام 566هـ/ 1171م يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسى المستضئ بدلا من الخليفة الفاطمى العاضد فى خطبة الجمعة. وفى هـذه المرة قام صلاح الدين بتنفيذ الأمر وقام بإلغاء الخلافة الفاطمية فـى أول محرم عام 567هـ/1171م ، وأرجع الخطبة للخليفة العباسى المستضـئ بأمر الله ، الذى تولى بعد أبيه المستنجد بالله[2].

وقد بعث صلاح الدين ببشارة الإلغاء إلي نور الدين محمود ، كما أرسل إلي الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله بالبشارة. ومن وقتها أصبح

---

(2) أبو شامة ، الروضتين ، ج1 ، ص181 ؛ ابن الأثير ، التاريخ البـاهر ، ص 259 .260

(1) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج5 ، ص357.

صلاح الدين يلقب بقسيم أمير المؤمنين ، أى أنه يشارك الخليفة فى لقبه الخلافى ، بحكم أنه أصبح يحكم فى مصر باسمه . كما وصل إلــي نــور الدين محمود التشريف من الخليفة العباسي وتقلد بالسيفين إشــارة إلــي تقليده الإقليمين الشام ومصر ، وأصبحت مصر منذاك تدين بالمذهب السني علي الرغم من وجود بعض الجيوب الشيعية متناثرة فــي صــعيد مصــر شكلت تهديدات واضحة منذ إعلان قيام الدولة الأيوبية[1].

وقد ترتب على إنهاء صلاح الدين للخلافة الفاطمية رنة فرح كبيرة بين السنيين ، الذين وصفوها بدولة الرافضة ، أى التى رفضــت الــدين الإسلامى وخرجت عليه. فزينت بغــداد ، وغلقــت الأســواق ، وأقيمــت الاحتفالات ؛ لاستقبال رسول نور الدين ، وأسرع الخليفة العباسى بإرسال الخلع وغيرها لنور الدين ، ومثلها فى العدد والقيمة لصلاح الــدين لأنــه نائب نور الدين ، وكلها سوداء شعار العباسيين ، بدلاً من البياض شــعار الفاطميين[2].

وفى مصر احتفل صلاح الدين رســمياً بوصــول خلعــة الخليفــة العباسى إليه فلبسها وطاف بها حارات القاهرة ، وفى صلاة الجمعة التالية للإلغاء نصبت على المنابر فى مصر والقاهرة الأعلام الســوداء ، ولــبس الخطباء ثياباً سوداء أرسل بها من بغداد ، وأجبر على الحضــور رجــال الدولة وأعيان المصريين وهدد من تأخر منهم بالعقاب. وأصــبح يخطــب لصلاح الدين على منابر مصر بعد الخليفة العباسى ونور الدين محمــود ،

---

(2) عبد المنعم ماجد ، الدولة الأيوبية ، ص87.

(3) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج1 ، تحقيق محمد مصــطفى زيــادة ، القاهرة 1956 ، ص46 ؛ سعيد عاشــور ، مصــر فــى العصــور الوســطى ، ص298.

كذلك تم تغيير العملة المصرية فأصبح يكتب على أحد وجهيها اسم المستضئ بأمر الله ، والوجه الآخر اسم الملك العادل نور الدين[1].

أما عن موقف المصريين من سقوط الخلافة الفاطمية ، فكما تذكر المصادر أن الأسى والحزن كان المناخ العام الذى ساد الأوساط الشعبية عقب إزالة الخلافة الفاطمية ، ويبدو هذا أمراً طبيعيا ؛ فقد جعل الفاطميون من مصر دولة مستقلة استقلالاً تاماً وليست مجرد ولاية عباسية يحكمها ولاة معينون من قبل الخليفة العباسى. كذلك كانت الخلافة الفاطمية تعتمد فى دواوينها على المصريين الذين تولوا أعلى مناصبها بما فيها الوزارة. وأخيراً فإن أيام الخلافة الفاطمية فى مصر ، كانت أعياداً متواصلة مما لم يعرف له مثيل من قبل ، ليست فقط للمسلمين من أهلها وإنما أيضاً للقبط بحيث أنها فى أعياد القبط كانت تطلق المأكولات والأموال والملابس للموظفين القبط والمسلمين ليكون الابتهاج عاماً ، لذلك اعتبرها المسلمون دولتهم ، حتى أن معظم المؤرخين أجمعوا على تسميتها : دولة المصريين[2].

الفصل الخامس

بعض مظاهر الحضارة والنظم

الفصل الخامس
بعض مظاهر النظم والحضارة

النظام الإداري :

كانت الإدارة والسلطة التنفيذية فى مصر إبان عهد أحمد بن طولون فى يده ، لم يطغ على نفوذه شخص من رجال البلاط أو الجيش أو الإدارة ، وكان ابن طولون يعين من يشاء فى الوظائف العامة ، ولكنهم

(1) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج5 ، ص357.

(2) عبد المنعم ماجد ، الدولة الأيوبية ، ص87.

كانوا تحت رحمته ومسئولين أمامه ، فمن أحسن فله الشكر والصواب ، ومن أساء فعليه الغضب وله شديد العقاب .

1. إدارة الكور :

كان الوجه البحرى فى هذا العصر مقسم لثلاث أقسام وهى الحوف الشرقى وقاعدته مدينة بلبيس ويتكون من 11 كورة ، وبطن الريف ويتكون من 20 كورة ، والحوف الشرقى ويتكون من 15 كورة وقاعدته مدينة الإسكندرية ، إذا مجموع الكور فى الوجة البحرى 46 كورة ، وكان فى الصعيد 30 كورة ، ليصبح مجموع الكور 76 كورة فى مصر دون توابعها [1] .

والكورة هى الصقع والبقعة التى تقع عليها القرى والمحال ، والتى تقابل فى النظام الحاضر المراكز ، وكانت كور مصر منسوبة إلى مدنها ، لأن لكل كورة مدينة مخصوصة بأمر من الأمور ، نذكر منهم تنيس التى كان يصنع بها الكتان الدبيقى والمقصور ، ودمياط التى أشتهرت بالقصب البلخى ، والفرما صاحبة البسر الفرماوى والرطب والتمر ، وهناك أيضاً العريش وكانت مشهورة بالطيور الجارحة ، وفى الصعيد مدينة بوصير كوريدس ودلاص وإليها ينسب اللجم الدلاصية ، ومن المدن الشهيرة أيضاً مدينة الفيوم التى كان بها القمح الموصوف وبها يعقل الخيش ، وغيرهم من الكور والمدن [2] .

وكان على رأس كل كورة من هذه الكور حاكم يسمى (صاحب الكورة) ، تعهد إليه إمامة الناس عند الصلاة فى المساجد الرئيسية فى

---

(1) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة 1987 ، ص 323.

(2) ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، ليدن 1893 ، ص 331 ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق : مصطفى السقا ، القاهرة 1969 ، ص 53 – 54 – 55.

مركز الكورة [1] ، أضف إلى ذلك أنه كان مسئول عــن جمــع الضــرائب المقرره على الكورة ، أما القرى التى كانت بداخل الكورة فكــان يحكمهــا مشايخ ورؤساء يعرفون بأسم مازوت ، كما اطلق عليهم العميد ، وأكبــر الظن أن صاحب الكورة كان يعتمد علــى قــوات مــن الشــرطة لإقــرار النظام [2].

(1) على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، الإسكندرية 1947 ، ص 167.

(2) كاشف ، ابن طولون ، ص 168.

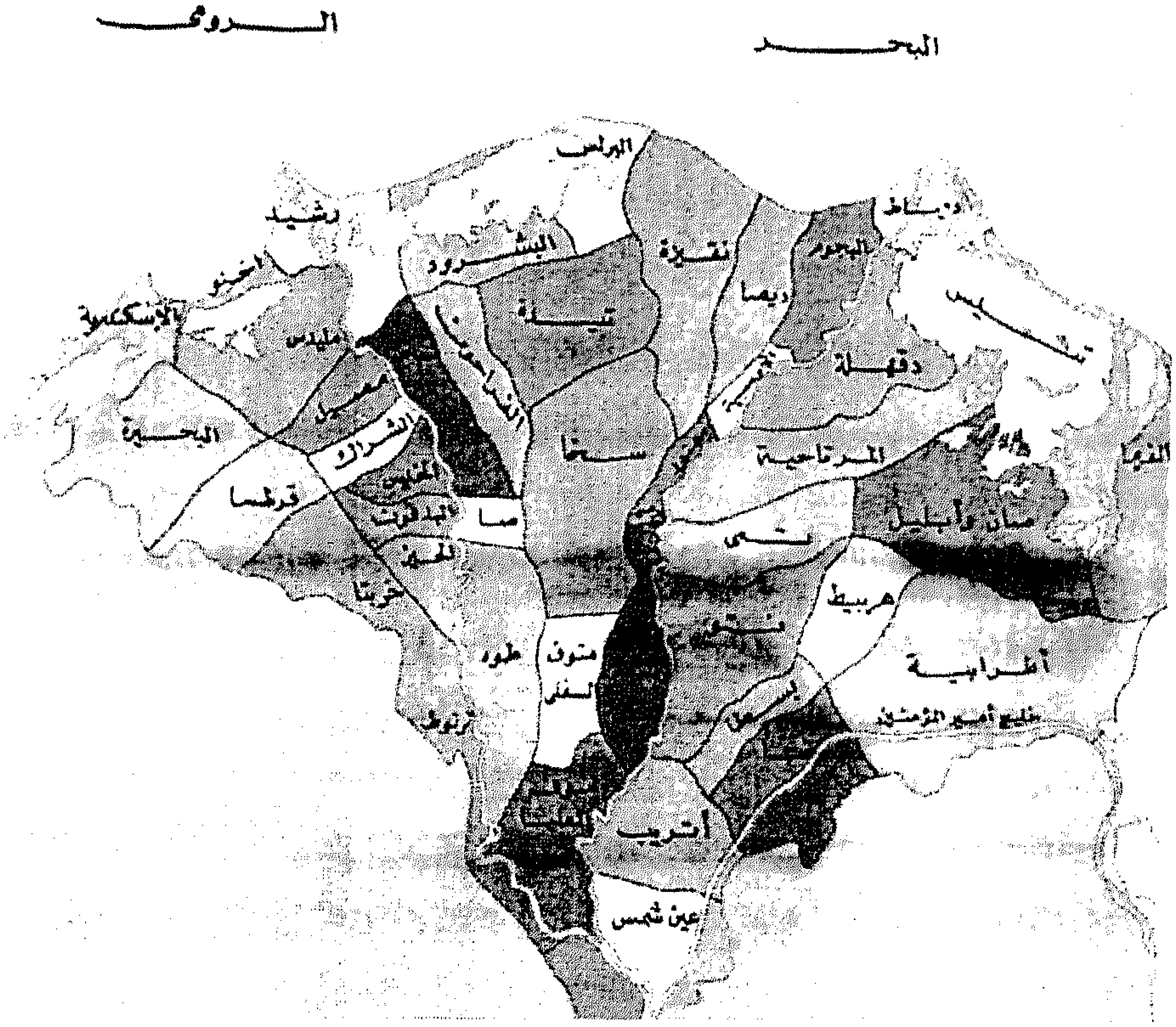

كور الدلتا (الكور الصغرى)

ولا يوجد لدينا دليل أو نص يبين لنا مرتبات وعطايا أصحاب الكور، وربما لأن الحكومة كانت تعتمد عليهم فى إقرار النظام وجمع الضرائب ، فمن المحتمل أنهم كانوا يحصلون على مرتبات ومبالغ معقولة لإدارة كوراتهم (1) ، ويجب أن نشير إلى أن أحمد بن طولون كان كثيراً ما يقوم بالتفتيش بنفسه على تلك الأقسام الإدارية لاستطلاع ومعرفة أحوال الأمن ، وحث أصحاب الكور على العناية بأقاليمهم (2) .

(1) كاشف ، ابن طولون ، ص 169.

(2) على إبراهيم : مصر ، ص147.

2. الشرطة :

كان هناك بالدولة الطولونية شرطتان : الفوقانية والسفلانية ، كان مقرهم العاصمة ، وكانت الشرطة الفوقانية تختص بالنظر في أحوال الطبقة العليا من القواد والعلماء والعظماء ، أما الشرطة السفلانية فكانت خاصة بإقامة العدل وتوطيد الأمن بين العامة وأواسط الناس ، وكان يرأسهم شخص يسمى (صاحب الشرطة) من مهامة تطبيق القوانين وتنفيذ العقوبات ونشر الأمن فى البلاد ومنع الجرائم (1) .

وكان أحمد بن طولون يوصى صاحب الشرطة السفلانية فيقول له : " أرفق بالرعية ، وأنشر العدل عليهم ، وأقضى حوائجهم ، وأظهر إكرامهم وصيانتهم ، وتفقد مصالحهم ، فإنى أسير بالليل فى محالهم فكل موضع أمر به ، لا يخلون من قارئ أو متهجد أو داعٍ أو ذاكر لله عز وجل ، فوفر علينا دعاءهم لنا ، وأحرسنا من أن يكون دعاؤهم علينا " .

ويقول لمن يقلده الشرطة الفوقانية : " تشدد عليهم وأرهبهم منك، ولا تلن لهم وأغلظ عليهم ، فإنى أسير فى محالهم فما أمر بموضع فأسمع فيه إلا غناء أو سكران أو معربداً ، قد أخرجته عربدته إلى الوثوب والكفر " (2) .

وكان صاحب الشرطة عند مجئ أحمد بن طولون هو بوليغا الذى سرعان ما صرفه أحمد وعين بدل منه شخص آخر يدعى بوزان ، ثم حل محلة موسى بن طولون وبقى بهذا المنصب فترة حتى رحل إلى العراق ، فخلفه موسى بن طونيق ، ولكن أحمد عزله بعد قليل وولى مكانه أخيه موسى مرة أخرى ، ثم عزله وعين بدل منه طغلغ ، وكان لطغلغ

(1) عبد المقصود عبد الحميد باشا ، موسوعة سفير للتاريخ الإسلامى ، القاهرة 1996 ، ص 15 ؛ إدوارد بروى ، تاريخ الحضارات العام ، ترجمة : يوسف أسعد داغر ، بيروت 1994 ، ص 209.

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 205.

مساعد يسمى طخشى بن يلبرد ، خلفه فى هذا المنصب إلى أن ولاه أحمد بن طولون طرسوس ، فخلفه أخيه إبراهيم بن يلبرد على الشـرطة ، ثـم صرفه أحمد وعين بدلاً منه السرى بن سهل الذى بقى بهذا المنصب حتى سنة 272 هـ [1] .

3. البريد :

بعد أن تخلص ابن طولون من شقير الخادم ، أتخذ لنفسه عامـل بريد مهمته الرئيسية دراسة أحوال الأقاليم وتقديم تقريـر دورى إليـه ، وهذا العامل هو الحسن بن محمد بن أبى المهاجر ، الذى كان يعمل هـو وأخوته من قبل عند الحسين الخادم المعروف بعرق الموت ، فلمـا جـاء أحمد إلى مصر طلب منه أن يدله على من يستخدمه لهذه الوظيفة ، فأشار إلى بنى المهاجر [2] .

وكانت مهنة صاحب البريد شاقه ومكروهه لأنهـا تعتمـد علـى التجسس على الناس ، فيقال أن أعرابية دخلت على أحمد بـن طولـون وسألته أن يعين أبنها فى إحدى الوظائف لتعـود عليه بالنفع والـرزق ، فأمر ابن المهاجر بالنظر فى عمل لأبنها ، فقلده ابن المهاجر بريد ناحيـة من النواحى براتب مقداره عشرة دنانير شهرياً ، فجاءت الأعرابية مـرة أخرى وهى غاضبه ، فلما سألها عن السبب قالـت : " وكلـه بالنميمـة يحصيها على المسترسل ، ويهتك بها المسـتتر ، فقـد تحامـاه النـاس وتناذروه فإذا لم يكن غير هذا تركته ، ولم أتعرض لما فيه مقت الله عـز وجل وسب عباده " ، فضحك أحمد بن طولون وأمر ابن المهاجر أن يعطى أبنها العشرة دنانير شهرياً وأن يعفيه من البريد [3] .

(1) كاشف ، ابن طولون ، ص 164 – 165 – 166.

(2) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، تحقيق : مصطفى السقا ، القاهرة 1938 ، ص 82 – 83.

(3) البلوى ، ابن طولون ، ص 209 – 210.

4. ديوان الإنشاء والمراسلات :

كان أحمد بن طولون هو أول من أسس ديوان الإنشاء فى مصر ، فقد أتسعت دائرة أعماله واضطر إلى أن يصطنع عدد كبير من الكتاب لكى يساعدوه فى القيام بهذا العبء [1] ، فكانت مهمة (كاتب الإنشاء والمراسلات) تحرير الكتب التى يرسلها ابن طولون إلى غيره من الملوك والأمراء ، وما يترتب على ذلك من تبادل الرسائل منه وبينهم .

وأول من تولى منصب كاتب الإنشاء والمراسلات هو أبو جعفر محمد بن أحمد ابن مودود المعروف بابن عبدكان ، وفى الحقيقة لا نعرف الكثير عن حياة ابن عبدكان حيث أن كل ما وصلنا عنه هو مدح له ولبلاغته فى الكتابة ، فقد كان بليغاً مترسلاً فصيحاً ، وروى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبدكان الكاتب ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما [2] .

5. كاتب السر :

لم تكن دار أحمد بن طولون خاليه فى يوم من الأيام من كاتب خفى موثوق فيه ، يقوم بتسجيل كل ما يجرى فى حضرته ، فيدون هذا الكاتب محضر الجلسة حين تأتى الوفود أو حين يحظى ذوى السلطة أو بعض المتظلمين بمقابلة أحمد ، وكانت هذه الوظيفة تستدعى السرعة والدقة

(1) القلقشندى ، صبح الأعشى فى كتاب الإنشا ، الجزء الحادى عشر ، تحقيق : عبد القادر نكار ، دمشق 1983 ، ص 28 ؛ محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية ، القاهرة 1961 ، ص 277 ؛ حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، القاهرة 1989 ، ص 16.

(2) محمد كامل حسين ، أدب مصر الإسلامية ، القاهرة 1988.

التامة والنشاط واليقظة ، وفى نهاية كل يوم يعرض على أحمد كل ما دون لكى يرى ما يحتاج إلى تغيير أو زيادة فى أفعاله ونشطاته الحكومية (1) .

6. الوزارة والحجابة :

لا توجد دلائل تشير إلى وجود نظام الوزارة فى عهد أحمد بن طولون ، ويبدو أن ذلك راجعاً إلى شخصية أحمد نفسها التى لم تكن لتسمح بوجود شخص ذو سلطان مثل الوزير ، وكان أحمد بن محمد الواسطى صديق ابن طولون يقوم بالكثير من الأعباء والأعمال وكان له شأن عظيم عنده ، ورغم ذلك لم يلقب بوزير إلا فى مناسبة واحدة ، وهى عندما سافر ابن طولون إلى الشام واستخلف على مصر أبنه العباس وجعل له الواسطى ناصحاً ووزيراً (2) .

كما وجد نظام الحجابة فى بلاط ابن طولون ، وكان هناك العديد من الأشخاص يحملون هذا اللقب فى آن واحد ، ولكن لم يتول أحد منهم وظيفة (كبير الحجاب) ، حيث أن وظيفة كبير الحجاب كانت على درجة كبيرة من الخطورة فى هذا العصر مما منع ابن طولون من اتخاذ مثل هذا الشخص فى بلاطه ، وكانت مهمة الحاجب هى تنظيم الدخول والخروج على ابن طولون ، وكان يعد همزة الوصل بينه وبين الرعية ، ويخيل إلينا أن وظيفة كبير الحجاب كانت فى يد نسيم الخادم وإن لم يلقب رسمياً بها اللقب (3) .

7. إدارة دار صناعة السفن :

بلغ من أهتمام أحمد بن طولون بشأن الأسطول أن أسند مهمة الإشراف على عملية بناء السفن وتجهيزها إلى شخص كبير يسمى

---

(1) البلوى ، ابن طولون ، ص 210.

(2) كاشف ، ابن طولون ، ص 161 ؛ جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة 2003 ، ص 39.

(3) علىٰ إبراهيم ، مصر ، ص 299.

(متولى دار الصناعة) ، كان من واجباته أن يقوم باختيار العمال والصناع والنفاطين والنواتية من ذوى الفطنة والذكاء والحذق والمهارة الفائقة ، أضف إلى ذلك مهمته فى النظر فى صناعة المراكب نظراً يستكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمشاقة والزفت وغيره ، حتى يحكها ويجيد بناء المراكب وتأليفها وقلفطتها وتركيبها ، ويستجيد التقانيف ويجيرها ، وينتقى الصوارى والقلوع ، وينتخبها ويميز النواتية ، ويعتمد من له الحذق والدربة منهم والحنكة والتجربة من جميعهم حتى لا يدخل فيهم من لا يصلح دخوله ، ولا يخلط بهم من يكون غيره أحق بالعمل منه [1].

وكان مشرف دار صناعة السفن هو كامل بن شجاع بن أسلم الحاجب ، ويبدوا أن ابن طولون كان قد سجنه قبل أن يطلق سراحه ويعينه مشرفاً لدار الصناعة ، وكان أحد علماء الهندسة البارزين فى عصره كما كان فنياً فى مهنته .

8. الجاسوسية :

كان لنظام الجاسوسية شأن كبير عند أحمد بن طولون ، سواء أكان خارجياً للتجسس على الموفق عدوه اللدود ، أو داخل البلاد للتجسس على قواده المشكوك فيهم وعلى معارضيه ، وكان لدى أحمد جهاز ضخم من الجواسيس ساعده على رصد محاولات اغتياله ومعارضة حكمه ، فعمل على إحباطها وكبتها فى المهد .

أما عن التجسس الخارجى ، فكان القائمون به من ثقاة الطولونيين ، يعيشون على مقربة من خصوم أحمد بن طولون فى العراق وغيره ، ومن أشهر هؤلاء الجواسيس هما طيفور وخادم بن جوارى ، ويبدو أنهما كانا يمثلان ابن طولون عند الحكومة المركزية وكان فى الوقت نفسه

(1) ابو سديرة ، الحرف والصناعات ، ص 227.

يعملان مع أعوانهم على كشف أعداء بنى طولون ثم التخلص منهم أو كسبهم أو التأثير عليهم (1) .

وكان أحمد بن طولون ماهراً فى كشف الجواسيس الذين يرسلهم الموفق للتجسس عليه ، فيحكى أن أحمد بن طولون عبر من أحد الشوارع وكان بها داراً تبنى فوقعت عينيه على أحد عمال البناء فأمر بالقبض عليه، فتعجب أصحاب أحمد بن طولون من ذلك وقبضوا على العامل ، فلما عاد ابن طولون إلى قصره أمر بإحضار هذا العامل وشده لكى يضرب بالسياط، لكن العامل ترجاه أن يسمع منه ، فوافق أحمد على رحمته إذا قال له الصدق ، فأعترف العامل أنه جاسوساً للموفق وتنكر بهذه المهنة ليكون بين الناس ويعلم أخباره ، وأن له مساعدين فى المدينة ، فعفا عنه لصدقه وقبض على بقية الجواسيس بعد أن قال العامل له عن أماكنهم ، فقتلهم جميعاً ، وبعد أن أنتهى ابن طولون من أمر الجواسيس سأله صديقه موسى بن طونيق عن كيفية معرفته بهذا الجاسوس ، فقال له أحمد أنه رأه على السقاله وهو يرتدى ملابس أرمنية ، فأدرك أنه جاسوس لأن عمال البناء يرتدون الملابس الكتانية (2) .

وروى أيضاً أن الموفق أراد أن يشغل قلب أحمد بن طولون بهدف تعريفه بأن أدق أفعاله تكون دائماً على مائدة الخلافة فى بغداد ، فقام ابن طولون بدس من سرق نعل الموفق من بيت حظية لا يدخلها إلا ثقاته ثم بعثها إليه وقال له : " من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذى تعرفه أليس بقادر على أخذ روحك ؟ " .

وأما عن التجسس الداخلى ، فقد كان هناك قوم يكتسبون أرزاقهم من مهمة التجسس بمصر ، وأستخدم أحمد التجسس الداخلى بغرض مراقبة أفعال قواده ، وكشف كبار زعماء المعارضة الحكومية

---

(1) كاشف ، ابن طولون ، ص 173 – 174.

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 124 – 125.

والتخلص منهم ، ونذكر على سبيل المثال ، أن أحمد بن طولون غاب عنه أمر أحد قواده من الأتراك ، فأمر ساعى من السعاة أن يعرف خبره ، فلما عاينه الساعى وجده يركب إلى دار أحمد بن طولون كل يوم ويؤخذ له حوائج مطبخه ، ثم يعود إلى البيت ويبقى به ولا يخرج ، فأمر ابن طولون هذا الساعى بأن يعرف ما يفعل فى داره طوال اليوم ، فقام الساعى بشراء دار تلاصق دار هذا التركى ، وأخذ يتجسس عليه فوجده يشرب إلى السكر ، وتجلس معه جارية وليس معهما ثالث ، فيقول لهذه الجارية وهو سكران : " إن عزمى أن أضرب أحمد بن طولون فى مقتله بخنجر ، ولا أبالى أن أقتل بعده " ، فدون الساعى ذلك وذهب إلى ابن طولون وأعطاه المكتوب ، فلما قرأها ضحك ساعة وتغيظ أخرى ، ثم أحضر هذا التركى ونفاه إلى طرسوس [1] .

والأكثر من هذا أن أحمد بن طولون كان مغرم بالتجسس على الناس ، حتى قيل أنه أمر أحد أتباعه بإحضار شاب يثق فيه يكون زكى الروح صادق اللهجه ، فقام هذا التابع بإحضار شاب يعرفه به هذه الصفات ، فنظر إليه ابن طولون وطلب منه التقدم إليه ثم حدثه بكلام لا يسمعه غيره ، وإذ بأحمد بن طولون يغضب ويأمر بجلد هذا الشاب عشرين جلدة وإدخاله إلى السجن ، فتعجب تابعه من ذلك أشد التعجب ، وبعد فترة أمره أحمد بن طولون أن يذهب إلى عين شمس لكى يلقى هذا الشاب الذى سجنه ، وعندما ذهب هذا التابع وجد الشاب راكباً على خيل جميل ويبدو عليه الثراء ، فتعجب وسأله عن الأمر ، فقص له الشاب أنه عندما حدثه أحمد بن طولون بصوت منخفض ، طلب منه أن يتجسس على من بالسجن ، وأنه سيظهر للحاضرين غضبه عليه ، ويأمرهم بإدخاله

(1) المقريزى ، المقفى الكبير ، الجزء الأول ، تحقيق : محمد اليعلاوى ، بيروت 1995 ، ص 441 – 445.

السجن ، فوافق على ذلك ودخل السجن ، وبعد أن عرف جميع أخبار المسجونين وما يدور بينهم ، أخرجه ابن طولون وأعطاه ألفى دينار وعشرة آلاف درهم ، والكثير من المتاع والملابس [1] .

9. القضاء :

كان بكار بن قتيبة هو قاضى مصر عند قدوم أحمد بن طولون ، وكان من العلماء والمحدثين ، وكان من أبناء الطبقة الرابعة فى الحديث ، وكان يحكم بين الناس بمذهب ابى حنيفة رضى الله عنه ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها جميع ما كان يحكم به ويبكى ويقول منتحباً : " يا بكار قدم إليك رجلان ، حكمت بينهما فما جوابك غداً إذا وقفت بين يدى الله سبحانه وتعالى ؟ " [2] .

وكان الخليفة المتوكل هو الذى عينه قاضى القضاة فى مصر ، وظل فيه حتى قدوم أحمد بن طولون ، وكان بكار شديد الحزم فى قضاءه ، فيذكر أن رجلاً مات وعليه مال لابن طولون وله أطفال ، فطلب عامل الخراج من أحمد بن طولون أن يأمر القاضى ببيع داره لتسديد ما عليه ، فأرسل ابن طولون إلى بكار فى ذلك ، فقال : حتى يثبت عليه الدين ، فأثبتوه وسألوه البيع ، فقال : حتى يثبت عندى أنه ملكه ، فأثبتوه ثم سألوه البيع ، فقال : حتى يحلف من له الدين ، فحلف ابن طولون ، فقال بكار : أما الآن فقد أمرت بالبيع [3] .

وكان بكار حاضراً فى مجلس أحمد بن طولون إحدى المرات ، فتخاصم رجلان فى المجلس فقال له ابن طولون أحكم بينهما ، فنظر فى القضية وطلب من الرجلين حلفان اليمين ، فحلف أحدهما ، فلما فرغ قال

---

(1) البلوى ، ابن طولون ، ص 115 – 116 – 117.

(2) سامح كريم ، أعلام فى التاريخ الإسلامى فى مصر ، القاهرة 1995 ، ص 187.

(3) ابن حجر العسقلانى ، رف الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق : حامد عبد الحميد ، القاهرة 1957 ، ص 146.

له الخصم ، استحلفه أيها القاضى برأس الأمير ، فقال له بكار : يا هذا قد حلف بالله الذى هو أعظم من الأمير . فقال : بل استحلفه برأس الأميـر ، فقال له بكار ، تحلف برأسه ؟ قال : لا فقال لـه بكار : يـا عـدو الله ، تحلف بالله خالق السموات والأرض ، وتمتنع أن تحلف بـرأس مخلـوق مثلك ، فاعجب به أحمد بن طولون من تلك اللحظة وقربه إليه [1] .

ولكن لم تستمر الموده بين الرجلين ، فعندما نشبت الحرب بين ابن طولون والموفق طلحة اخى المعتمد ، عقد ابن طولون مجمعاً فى دمشـق حضره كبار القضاة والفقهاء ، فصرح أحمد بخلع الموفق من ولاية العهد وأمر بلعنه ، ففعل كل الحاضرين عدا بكار الذى أمتنع ، فألح عليـه ابـن طولون ، فأصر فى الأمتناع حتى أغضبه ، فقام أحمد بن طولون بإلقـاءه فى السجن ، وكان من قبل يمده كل سنة بألف دينار ، فلما غضب عليه ، قال له أين جوائزى ، فقال له موجوده على حالها ، وأرشده إلى مكانها ، فلما وجدها ابن طولون فى منزله وجدها بخواتيمها لم ينقص منها شيئاً .

وبذلك أصبح كرسى القضاء خاليـاً فـى مصـر ولمـدة ثمـانى سنوات[2]، إلا أن ابن حجر العسقلانى قال : " لما قبض أحمد بن طولـون يد بكار عن الحكم وسجنه ، أمره أن يسلم القضاء لمحمـد بـن شـاذان الجوهرى كالخليفة له ففعل " [3] ، مما يدل على وجود قاضى بعـد سـجن بكار بن قتيبة ، ويبدو أنه لم يكن بنفس قوة بكار مما جعل بعض الباحثين يعتقدون أن وظيفة القاضى كانت خالية .

كان أحمد بن طولون يجلس للنظر فى المظالم يومين فى الأسبوع ، حتى استغنى الناس عن الشرطة والقضاء ، لدرجة أن القاضى بكار قبل

---

(1) ابن حجر العسقلانى ، رفع الإصر ، ص 151.

(2) كارل بروكلمان ، الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها ، ترجمة : نبيه أمين فارس ، بيروت 1961 ، ص 64.

(3) رفع الإصر ، ص 154.

أن يسجن ، كان يجلس أحيانا ليقضى بين الناس فلا يأتيه أحد فينعس فى مجلسه ، وبعد أن سجنه أحمد كان يُحضر بكار من السجن ليقضى المظالم، ثم يعاد به إلى السجن [1] .

ولما طال حبس بكار طلب أصحاب الحديث إلى أحمد بن طولون أن يأذن لهم فى السماع منه ، فأذن لهم ، فكان يحدثهم من نافذة فى السجن ، ثم نقله ابن طولون بعد ذلك إلى دار عند درب المصلقى فأقام فيها حتى مات [2] .

10. السجون :

رغم أن أحمد بن طولون كان ملكاً عادلاً بين الناس ، إلا أنه لم يكن يعرف الرحمة مع من يعصوه أو يخرجون على طاعته أو يعارضون حكمه ، فكانت بداخله عاطفتان جياشتان ، أولهما حب للشعب لا يُصدق ، وثانيهما غضب لا يُعقل ، فلما لم يكن يستطيع إطعام أحدهما يطلق العنان للاخرى ، فمن يطعه يجعله كنجم فى السماء ، ومن يعصاه يرميه فى المطبق للبقية الباقية من عمره .

وفى الواقع هذا هو حال جميع حكام مصر منذ أن أوجدها الله على وجه الأرض ، لا ترى سوى الطغاه الجبابره الذين لا يسمحون لأحد أن يعارضهم حتى ولو بالكلام ، وقد احصى من قتل صبراً أو مات فى سجن أحمد بن طولون فبلغوا 18 ألفاً [3].

(1) هويدا عبد العظيم رمضان ، المجتمع فى مصر الإسلامية ، الجزء الأول ، القاهرة 1994 ، ص 329 ؛ نبيلة حسن محمد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، الإسكندرية 2003. ص 82.

(2) ابن حجر العسقلانى ، رفع الإصر ، ص 154.

(3) الذهبى ، نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ، تحقيق : محمد حسين عقيل موسى ، جدة 1999 ، ص 944.

ولم يكن جميع من يسجن فى عهده يسجن لأسباب سياسية ، وإنما أختلفت أسباب حبسهم ، كما يجب أن نذكر أن رغم كبر عدد المسجونين فى عهده ، إلا أنه أختلفت طريقة سجنهم ، فهناك نوع من الحبس يؤمر فيه المسجون بأن يلزم داره فلا يخرج منها ، كما كان هناك المطبق الذى ينقل إليه أصحاب الجرائم عقب صدور الحكم عليهم [1].

وكان أحمد بن طولون يراعى أحوال المحبوسين بل ويتجسس عليهم كما سبق وأن ذكرنا ، وكان يقول لمدير السجون سراً : " إذا تبينت من رجل براءة ساحته ، فسهل عليه واستأمرنى ، فانى استعمل التشدد للضرورة إليه " ، ومن أشهر مسجونين أحمد بن طولون هو بكار بن قتيبة الذى سبق ذكر أمره ، وأيضاً أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع الذى ولاه أمور الخراج بعد ابن المدبر ، فنكبه وأصطفى أمواله سنة 266هـ[2].

أما عن مدير السجون فى عهد ابن طولون فكان أبو مصلح موسى، ولكنه لم يكن مثالاً للنزاهة بل كان شخصاً مرتشياً ، فيُذكر أن جماعة من المسجونين رشوه بمائة دينار نظير أن يطلق سراح واحداً منهم ويحل آخر محله ، كما أنه أطلق صراح مسجون آخر ثلاثة أيام بدون علم ابن طولون ، لكى يبحث عن شخص يسعى عند ابن طولون للإفراج عنه [3] .

الجيش :-

علي أية حال يعتبر الجيش هو عدة الإخشيد الأكبر في دخول مصر والتمكين لنفسه فيها بالقضاء علي سلطان المعارضين لإمارته ، كما أمسي

(1) هويدا ، المجتمع ، ج 1 ، ص 346.
(2) هويدا ، المجتمع ، ج 1 ، ص 347.
(3) كاشف ، ابن طولون ، ص 175.

في نفس الوقت عدته في صد غزوات أعدائه كابن رائق وسيف الدولة الحمداني والفاطميين .

علي أنه من الصعوبة بمكان رصد كل ما يتعلق بالجيش الإخشيدي نظراً لشحة المصادر المعاصرة لتلك الفترة ؛فالحديث عن نظام الجيش وعدده ورواتب قواده وعتاده وأسلحته وما إلي ذلك جد عسير-في ظل ندرة النصوص التي تنتمي لتلك الفترة ، وما وجد من النصوص ألقي الضوء إلي حد كبير عن طبيعة الجيش في مصر في العصر الإخشيدي .

فالثابت أن الجيش المصري في حال قدوم الإخشيد إلي مصر كان منقسماً إلي طائفتين : أهل الشرق أو المشارقة وعلي رأسهم قائد يسمي حبكويه ؛ والمغاربة وعلي رأسهم حبشي بن أحمد ، وكانت المنازعات دائرة بين الطرفين علي قدم وساق [1] ،والمرجح أن أساس تلك المنازعات تعدد الأجناس والطوائف التي كان يتألف منها الجيش وقتذاك .

أضف-إلي ما سبق وجود عناصر أخري متباينة داخل صفوف الجيش في مصر في العصر الإخشيدي فقد وجدت عناصر من الترك والسودانيين والمغاربة ومماليك من أجناس شتي ، ويقال أن عدد الجيش الإخشيدي بلغ أربعمائة ألف مقاتل في مصر والشام [2] ،بيد أننا لا نستطيع أن نسلم بذلك العدد لأسباب عديدة نظراً لمبالغة المؤرخين المسلمين في تقدير تلك الأرقام لتعظيم قوة الجيش ؛وإن كنا في الوقت ذاته لا نستطيع أن نغفل قوة الجيش الإخشيدي في ذلك الوقت ؛وخير شاهد علي ذلك أنه

([1]) سيدة الكاشف ،مصر في عصر الإخشيديين ، القاهرة 1970، ص 257 .

([2]) ابن تغري بردي، النجوم ، جـ3 ، ص252 ؛ مشرفة ، نظم الحكم ، ص170؛ سيدة الكاشف ، مصر، ص 257 ؛أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية في مصر ،القاهرة 2000، ص662.

حينما استدعي الخليفة العباسي المتقي الإخشيد إلي مدينتي الرقة والرافقة رأي أهل المدينتين من عظم عسكره وحسن عدته ما لم يشاهدوا مثله [1]

وحالما استبد كافور بالأمر ولم يبق لأبناء الإخشيد من الحكم سوي الاسم فقط ؛ضم إلي جيشه عدداً كبيراً من السودانيين ،ويبدو جلياً أن استعانته بهذا العنصر ليكونوا عوناً وعدة له ؛لاسيما وأن فرق الجيش بدأت في الانقسام علي نفسها فبدأنا نسمع عن طوائف الإخشيدية والكافورية داخل صفوف الجيش آنذاك[2] .

وبناء عليه بات حفظ النظام بين الجند في العصر الإخشيدي أمراً صعباً للغاية في ظل كثرة العناصر التي يتألف منها الجيش ،بيد أن قوة بأس الإخشيد وشدة حزمه وبعد نظره وما تهيأ له من صفات القيادة جعلته يتصدي لتلك المشكلة عن طريق الحنكة والخبرة العسكرية ؛لذا عمد إلي سياسة إغداق الرواتب والمنح والعطايا علي القواد والجند والتي كان لها وقعاً طيباً في كسب رضاء الجيش وبث الطاعة والإخلاص بين صفوفه ،فضلاً عن أن الحروب المتصلة والأخطار التي تعرضت لها الدولة وحدت أهداف الجيش في ضرورة التغلب علي الأخطار المحدقة بتخوم الدولة ،ولن يتأتي هذا إلا بنظام يعينهم في هذا السبيل[3] .

بيد أن حالة الوفاق والود لم تكن لتستمر طويلاً رغم خبرة الإخشيد من قبل ،وكافور من بعد ، إذ سرعان ما يطفو علي السطح فريق من الحاقدين علي استئثار بالزعامة فيعملون علي تأليب وانقسام الجيش إلي فرق ؛ومن هنا ظهرت فرقة موالية لأبناء الإخشيد وأخري مناصرة لكافور ؛ واستمر كافور في سياسته القائمة علي بذل الأموال لقواد جيشه وجنوده

([1]) سيدة الكاشف ، مصر ، ص257 .

([2]) المقريزي ،الخطط ،جـ1 ، ص94 ؛ مشرفة ، نظم الحكم ، ص 170؛ سيدة الكاشف ، مصر ، ص245، 246؛ أيمن فؤاد ،الدولة الفاطمية ، ص662.

([3]) سيدة الكاشف ، مصر ، ص258 .

حتى قيل أن القواد كانوا يجتمعون في داره فيخلع عليهم ويمنحهم الهبات الكثيرة ،بل روي أنه أمر لأحد القواد من أنصار أولاد الإخشيد بأربعة عشر ألف دينار في يوم واحد فظل هذا القائد عبداً له حتى مات [1] .

أما بعد وفاة كافور فقد دبت الفوضى إلي صفوف الجيش وثار كثير من الجند علي رؤسائهم وطالبوا بأرزاقهم ،وكان هذا كله من الأسباب التي أدت إلي انهيار الدولة الإخشيدية ونجاح الغزو الفاطمي ؛ وذلك أن تدبير أمور الجند بعد وفاة كافور أصبح لسمول الإخشيدي بيد أنه لم يكن موفقاً في قيادته خاصة بعد أن تعود الجند أن يشتري الأمراء طاعتهم بالمال والعطايا ،لذا ليس بغريب أنه عندما طلبوا من الوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات من الأموال ما لم يستطع دفعه ،نهبوا داره ودور نفر من أتباعه وكتب فريق منهم إلي الخليفة الفاطمي يزينون له فتح مصر بعد أن تحول ولائهم كلية إلي الأموال والعطايا [2]، لذا ليس بغريب أنه بمجرد أن دانت مصر لجوهر الصقلبي قام بإلقاء القبض علي ثلاثة عشر من رؤساء الكافورية والإخشيدية بعد أن بلغه تآمرهم ضد النظام الجديد ،كما أن الفاطميين لم يعملوا علي دمج بقية فرق الإخشيدية والكافورية كعناصر نظامية في الجيش الفاطمي مثلما فعلوا في شمال أفريقيا عندما أدمجوا بقايا الجيش الأغلبي في جيشهم [3].

أيضاً من النصوص الواردة عن الجيش في مصر في العصر الإخشيدي هناك ما يفيد بعرض للجيش في أيام الأعياد وبعض المناسبات الأخري أسوة بما كان يفعله ابن طولون من قبل ،وفيه كان قواد الجيش

---

(1) المقريزي ، الخطط ، جـ2 ، ص27 ؛ سيدة الكاشف ، مصر ، ص 258 .

(2) ابن تغري بردي ، النجوم ،جـ4 ، ص26 ،سيدة الكاشف، مصر، ص259 .

(3) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص662 .

يشتركون مع أعيان البلاد في التشاور بشأن تولية الأمراء وإعلان الولاء لهم [1].

والثابت أن محمد بن طغج الإخشيد وكافور كانا يخرجـان أحيانـاً علي رأس الجيش في المعارك الحربية المختلفة ،غير أن الإخشيد أنـاب عنه بعض القواد في قيادة الجيش المتوجه صوب بلاد الشام ، ونادراً مـا كان يرسل بعض أخوته علي رأس الجيش في المعارك الحربية [2] .

وجرت العادة في حال انتهاء المعارك الحربية التي يكون الجـيش الإخشيدي طرفاً فيها أن يقوم الجنود بإرسال الأسري إلي حاضرة الدولـة ومعهم رؤوس الجند القتلى للدلالة علي ما أحرزوه من النصـر والظفـر ولتطمئن النفوس ،وذلك أن ورود أي أخبار غير مطمئنة من ميدان القتال كان من شأنه أن يثير الذعر بين الناس حتى أن أولي الأمر يضطرون إلي الطواف في العاصمة لتهدئة الخواطر ومنع السكان من مغادرة المدينة [3].

أما الفاطميون فقد أحاطوا أنفسهم بهالة من التقـديس والاحتـرام [4]،فكان الخليفة يجمع في يده جميع السلطات [5]،ويشـرف علـي جوانـب النشاط المختلفة في دولته [6] من خلال وزرائه ،فقد اعتمد الفاطميون كثيراً علـي الـوزراء الـذين بـدأ اتخـاذهم فـي خلافـة العزيـز بـالله

(1) ابن تغري بردي ، النجوم ، جـ3، ص327 ؛ سيدة الكاشف ، مصر ، ص259 .

(2) الكندي، الولاة والقضاة ، ص 291،292 ؛ سيدة الكاشف ، مصر ، ص259 .

(3) سيدة الكاشف ، مصر في عصر الإخشيديين ، ص 260 .

(4) الشيرازي ، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ، تحقيق :محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري 1949، ص85-86 ؛سرور ، الدولة، ص 140 .

(5) المقريزي ، إتعاظ الحنفا ،جـ2،، ص62 ،86، 102 ؛الخطط المقريزية ، جـــ1 ، ص426 ؛ابن تغري بردي، النجوم ، جـ4، ص180 ؛ حسن إبراهيم ، طه شـرف ، المعز لدين الله، القاهرة 1963، ص135 ؛ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ1، ص95 .

(6) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشـق ، ص93 ، 94 ، 101 ، 107 ؛ المقريـزي ، إتعاظ ، جـ2، ص7 ، 20 .

سنة(368هـ/978م) [1]،وحرصوا علي اختيارهم من المختصين في تدبير الأموال وكانوا يمنحونهم صلاحيات واسعة في تعيين الولاة والعمال والقضاة في جميع ولايات الدولة [2]،وكثيراً ما كانوا يختارون وزراءهم من بين حكام الولايات إذا توفرت لديهم الكفاءة اللازمة [3]،واطمأن الخلفاء إلي ولائهم للدولة الفاطمية .

فنجد العزيز بالله يعهد لوزيره يعقوب بن كلس تدبير أمور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب وما يتصل بإدارتها في مختلف المجالات ،بل ودون اسمه علي الطراز [4]،كما تمتع اليازوري في خلافة المستنصر بالله بسلطات واسعة [5] .

ولجأ بعض الخلفاء إلي مراقبة عمالهم بأنفسهم ،فالحاكم بأمر الله كان يراقب كل شيء بنفسه ،وجعل بابه مفتوحاً للجميع ،وسمح بأن يلتجيء إليه أي شخص ، ولم يسمح لرجال دولته أن يكونوا حاجزا بينه وبين الرعية [6].

وعلي غرار النظم الإدارية الموجودة بالقاهرة وجد ببلاد الشام وفي المدن الخاضعة لسيطرة الفاطميين جهاز إداري عالي الكفاءة خاضع

([1]) السيوطي ،حسن المحاضرة ، جـ2،، ص129 ؛عطية مصطفي مشرفة ، نظم الحكم بمصر ،ص98 .

([2]) المقريزي ،الخطط ، جـ1، ص44 ؛ سرور، الدولة ، ص143 .

([3]) ماجد ، نظم ، جـ1 ، ص92 ،93 ؛سرور ، الدولة ،ص141 .

([4]) ابن منجب الصيرفي، الإشارة إلي من نال الوزارة ،تحقيق:عبد الله مخلص،القاهرة 1924، ص19-23 ؛ابن القلانسي ،ذيل تاريخ دمشق ، ص29 ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ7 ، ص155-156 ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام (وفيات 351-380هـ)، ص668-670 ؛ابن كثير ، البداية والنهاية ،جـ11 ، ص308 ؛ابن تغري بردي ، النجوم ، جـ4 ، ص158 ؛محمد حمدي المناوي ، الوزارة والوزراء ، ص 241 .

([5]) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص137 ؛المقريزي ، إتعاظ ، جـ2 ، ص236.

([6]) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ ، ص 74-75 ؛المقريزي ، إتعاظ ، جـ2 ، ص3-7 .

لوالي دمشق الذي يعتبر أكبر موظفي الدولة الفاطمية ببلاد الشام ،إضافة إلي الدواوين التي تشكل عصب الجهاز الإداري من قبيل : ديوان الرسائل وديوان الجيش وديوان النظر وديوان الشرطة وديوان البريد ...إلخ من تلك الدواوين والتي سنتحدث تفصيلاً عن إحداها وهو ديوان الجيش نظراً لأهميته القصوي إبان ذلك العصر .

وسنحاول في تلك الصفحات المعدودات أن نتعرض بالدراسة للجيش الفاطمي في مصر إبان تلك الفترة ،مسلطين الضوء علي عناصره وأسلحته وألويته وأساليبه القتالية وحواشيه المصاحبة له [1] .

فالثابت أن الدولة الفاطمية اهتمت بالجيش اهتماماً كبيراً لتحقيق أهدافها التوسعية ،والدفاع عنها ضد أعدائها ،فاعتمد خلفاؤها الأوائل منذ بداية أمرهم علي قبائل بربرية من المغرب خصوصاً قبيلة كتامة وبعض القبائل الأخري الموالية لهم [2] وقد أعد هذا الجيش بعناية فائقة من ناحية العدة والعتاد حتى أن المفاوضين المصريين الذين تشاوروا مع جوهر الصقلبي الذي قاد تلك الجيوش لفتح مصر سنة 358هـ/968م ، وكتب لهم الأمان وصفوا حجم جيشه بأنه *مثل جمع عرفات كثرة وعدة* " حتى قيل أنه لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر أكثر عددا من جيوش المعز" [3].

ثم دخلت في الجيش جماعات من عناصر مختلفة إضافة إلي البربر ،فاستخدم العزيز بالله الأتراك والديلم ،ثم أكثر من الأتراك

([1]) هذا التقسيم سارت عليه المؤلفات التي تناولت نظم الدولة الإسلامية في العصور الوسطي بصفة عامة ،والتي تحدث عن الجيش بصفة خاصة من قبيل : أحمد عبد الرازق في كتابه" الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي " ، دار الفكر العربي القاهرة 1990 .

([2]) المقريزي ،الخطط، جـ2،ص 8 ؛ سرور، الدولة الفاطمية، ص147 ؛حسن إبراهيم،المعز لدين الله ،ص 176؛علي حسن الخربوطلي ،العزيز بالله ، ص 92 .

([3]) القلقشندي، صبح الأعشي ، جـ3، ص492-493 ؛ماجد ،نظم ، جـ1 ، ص191 .

واستخدمهم في بعض المناصب القيادية وجعلهم خاصته وبطانته بعد المعارك التي خاضها لإنهاء حكم أفتكين لدمشق سنة (364-368هـ/974-978م) [1]، ثم أسقط ابن كلس المغاربة واستخدم المشارقة في سنة 370هـ/980م من الترك والإخشيدية ، ثم عاد نفوذ كتامة لما ولي "ابن عمار" الكتامي "الوساطة" ،فلما ولي "برجوان" الصقلبي أغري الخليفة الحاكم بأمر الله فقتل منهم خلقاً كثيراً [2]قبل أن يستقدم الحاكم جماعات جديدة من السودان في الجيش الفاطمي؛فكانوا يشكلون فرق المشاة (الرجالة) وسلاحهم السيوف والدروع بينما شكل الأتراك فرق الفرسان واستخدموا جميع آلات الحرب التي كان يستخدمها الفرسان؛ناهيك عن بعض العناصر الأخري التي دخلت إلي الجيش في أيام الخليفة الظاهر مثل : الغز والمصامدة-قبيلة من البربر بالمغرب- والتي كانت جميعها تشكل قنبلة موقوتة فحيثما وجد الخليط من الجند ؛وجد التحاسد والتنافس بينهم ،وقامت الفتن والثورات ،ووجد من الخلفاء من يقدم عنصراً علي آخر ويقربه إليه ؛فنسمع أحياناً عن قيام الحرب بين فرق العساكر كما حدث بين الريحانية والجيوشية أيام الخليفة الحافظ ؛كما كانت تحدث تماماً بين المغاربة والأتراك أو بين الأتراك والعبيد عندما يزاد في أرزاق طائفة وتنقص من أرزاق أخري [3].

([1]) ابن منجب الصيرفي ،قانون ديوان الرسائل،نشر:بهجت علي ،القاهرة 1905،المقدمة ص32 ؛ ابن الطوير ،نزهة المقلتين ، ص123 ؛ ابن تغري بردي، النجوم،جـ4 ،ص268،252؛حسين سليمان،الدولة الإسلامية ،ص235 ،268 ؛عطية مشرفة، نظم الحكم ، ص144 .

([2]) مشرفة ، نظم الحكم ، ص171 .

([3]) ناصر خسرو ، سفر نامة، ، ص 109؛ مشرفة ، نظم الحكم ،ص 172 .

كما استخدمت جماعات أخري في خلافة المستنصر بالله [1] فأشرك الأرمن الذين أحضرهم بدر الجمالي أثنــاء ولايتــه علــي بــلاد الشــام سنة(455هــ/1062م) حيث استنجد بهم المستنصر عندما تجددت الفــتن بين الأتراك والسودان في مصر [2] ، وكل طائفة من الطوائف السالفة لهــا قائد يراقبهم ويقوم بترتيبهم في مواقفهم .

وكانت طوائف الجند عديدة ،تنسب كــل منهــا إلــي الخلفــاء أو الوزراء ،فمن طوائف الخلفاء الآمرية والحافظيــة والعاضــدية[3] ،ومــن طوائف الوزراء الوزيرية وترجع في تكوينها إلي الخليفة العزيــز الــذي سمح لوزيره يعقوب بن كلس بتكوين حرس خاص به ينتســب إليه،وقــد ازدادت طوائف جند الوزراء –خاصة في عهد وزراء السيف– لاعتمادهم عليها في بسط نفوذهم ،ونذكر منها "الجيوشية " نسبة إلي أمير الجيــوش بدر الجمالي[4] ،والأفضلية نسبة إلي ابنه الأفضل ،والبرقية –هم جماعة من أهل برقة– وتنسب إلي الوزير طلائع بن رزيك الذي استخدم فرقة منهم[1] .

([1]) ابن ميسر ،المنتقي من أخبار مصر ،تحقيق :أيمن فــؤاد ســيد، القــاهرة1981، النويري، نهاية الأرب ،جــ26،القــاهرة 1985،ص49 ؛ ابــن تغــري بردي،النجــوم ،جــ5،ص19 ،سرور، الدولة الفاطمية،ص147 ،عطية ،نظم الحكم ، ص144 .

([2]) سرور، الدولة الفاطمية ، ص147 .

([3]) طائفة مكونة من السودان ترجع أصولهم فيما يبدو إلي العقد الرابــع مــن القــرن الخامس الهجري ،حيث كان هناك خصي يعرف بعزيز الدولة ريحان كان له نفوذ فــي البلاط الفاطمي انتسبوا إليه وكانوا يقيمون بحارة بهاء الدين بالقرب من باب الفتــوح وجامع الحاكم انظر :أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص691 .

([4]) توجد إشارات خاطئة في بعض المصادر إلي أن الجيوشية كانت طائفة من المشــاة السودانيين ،لكن يبدو أن أصولهم ترجع إلي الحملة التي شنها بدر الجمــالي ضــد طوائف السودان في صعيد مصر ،فقد قطع هذه الحملة هجوم السلاجقة علــي حــدود مصر الشرقية ،ويبدو أن بدر الجمالي توصل إلي نوع من التسوية مع السودان بقدر

كما نسب بعضهم أيضاً إلي قادة الفرق المغربية الذين كانوا في خدمة الخلفاء ،مثل: "اليانسية" نسبة إلي يانس وزير الحافظ ،أو يانس الخادم الذي كان من خدام العزيز والحاكم، "والعطوفية" نسبة إلي عطوف الذي كان في خدمة ست الملك [2]؛ وخير شاهد علي ذلك هو وجود بعض الحارات داخل القاهرة والتي سكنتها بعضاً من تلك الطوائف مثل :حارة المحمودية وحارة الجودرية وحارة المرتاحية وحارة الفرحية وحارة صبيان الطوارق وحارة العدوية وحارة قائد القواد [3].

وغير المغاربة والمشارقة وجدت طوائف أخري في الجيش الفاطمي تحمل طابع الدولة ؛فقد شرع الخلفاء الفاطميون -منذ مجيئهم مصر- في تكوين طوائف من العسكر تكون في قبضة أيديهم وفي غاية الإخلاص لهم ؛ولتكوين هذا الجيش الخاص شرط المعز علي ولاة الأعمال البحث عمن يظهرون مهارة حربية قبل أوانها من بين أولاد الناس ،وأفرد لهم المعز "*حجراً*" في قصره يعلمون فيها الفنون الحربية ،وسموا بسبب سكناهم في هذه الحجر " بصبيان الحجر" أو " غلمان الحجر" [4] .

وكان هؤلاء المجندون يخضعون لنظام دقيق فجعل لكل مائة قائد يسمي *زمام*" وقسموا إلي قسمين " الحجرية الكبار" و "الحجرية والصغار" ولعل هذا التمييز راجع إلي سن المجندين ؛أو إلي التفوق والشجاعة في

ما يحاربون معه السلاجقة وقد ميزوا أنفسهم في هذه الحرب وأصبحوا يعرفون "بالجيوشية" نسبة إليه انظر: أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص691 .

(1) القلقشندي ، صبح الأعشي ،جـ3 ، ص478 ؛ سرور ، الدولة الفاطمية ، ص 147-148 .

(2) ماجد ، نظم ، جـ1 ، ص199 .

(3) ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص 114-115؛ابن عبد الظاهر الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ،تحقيق:أيمن فؤاد سيد، بيروت1996 ، ص21-67 .

(4) ماجد ، نظم ، جـ1 ، ص197 .

التدريب علي الحرب ؛ وكان علي هؤلاء المجندين أن يتعلموا امتطاء صهوة الجواد بمهارة ، ولذلك أعد لهم اصطبل برسم دوابهم يعرف " باصطبل الحجرية" ؛أي أن تلك العناصر كان يجب أن تكون مجهزة للحرب لتخرج عند أول إشارة [1] .

ناهيك عن وجود فرقة من الجنود الفاطميين عرفوا "بالمركزية" أو "بالمقطعين"؛ استخدمتهم الدولة الفاطمية للمحافظة علي الثغور والمراكز الحدودية في الفرما وتنيس والقلزم وأسوان [2]،وكانت تلك الحاميات علي درجة عالية من التسليح لمواجهة أي أخطار خارجية ؛وقد تولي ديوان الجيش مهمة الإنفاق علي تلك الفئة حيث خصص لتلك الطائفة راتباً شهرياً لقضاء حوائجهم المعيشية ؛ففي سنة 509هـ/1115م تكفل بإعاشتهم والي الشرقية لمواجهة خطر بلدوين ملك الفرنج الذي وصل إلي الفرما في تلك السنة [3].

هذا ودأب الفاطميون علي ترك أحد نوابهم بتلك المراكز ؛كانت مهمته إثبات صلاحية هؤلاء الأجناد المستخدمين أمام مجلس الحرب واستمرار خدمتهم وذلك في سجل مفرد يثبت في آخره عدد المستمرين منهم يعتمده متولي الحرب ويرفع بعد ذلك إلي متولي ديوان الرواتب لصرف استحقاقه [4] .

والجدير بالذكر أن الخلفاء الفاطميين شرعوا في تأسيس ثكنات لتلك الحشود الضخمة التي تألف منها الجيش الفاطمي داخل العاصمة الجديدة القاهرة التي شيدت علي أيديهم ؛ وهي عبارة عن منشآت ملكية مماثلة لقطائع أحمد بن طولون تضم حارات"أحياء" لسكن فرق الجند ؛ وكل

([1]) ماجد ، نظم ، جـ1 ، ص198 .

([2]) أيمن فؤاد ،الدولة الفاطمية ، ص691 .

([3]) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص723 .

([4]) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص723 .

حارة تسكنها جماعة من جنس واحد وتتسمي به ،وتتكون من معسكرات العسكر وأسرهم ،ومن دكاكين وأسواق لحاجتهم المعيشية ؛ وكان الغرض من إسكانهم في أماكن معينة ؛منعهم من مضايقة سكان البلاد بالنزول في دارهم[1] .

والثابت لدينا أن الثكنات كانت تضم في أول الأمر حارات كتامة والروم والروم الجوانية وزويلة والباطلية والبرقية وهي العناصر التي صحبت جيش جوهر والتي قدمت بعد ذلك مع المعز في سنة 362هـ/973م ،واعتباراً من خلافة العزيز بالله أضيفت حارتي الأتراك والديلم ،ولم تكن للسودان أية حارة خاصة بهم فلم يبدأ ظهورهم كجزء هام في القوات الفاطمية المترجلة إلا اعتباراً من خلافة الحاكم ثم تضاعفت أعدادهم في عهد المستنصر بالله، الذي كانت أمه سوداء[2] ،وظلت تلك الفرقة تشكل جزءاً عظيماً في الجيش حتى أواخر عهد الدولة إلي أن حلت بدلاً منها عناصر أخري أتت مع وزراء السيوف ؛وعلي الأخص أسد الدين شيركوه وصلاح الدين من قبيل: الأكراد والروم والفرنج والمصريون الذين أصبحوا بالضرورة يشكلون عناصر هامة في الجيش بعد أن أضحت بلادهم مهددة من قبل الصليبيين ؛لذا يظهر من خلال المصادر أن الجيش الفاطمي كان يتكون معظمه من جنود وأمراء من المصريين ؛حيث وجد خلفاء ذلك العصر فيهم منبعاً لا ينضب من الرجال[3] .

وكان الجيش الفاطمي يتألف من عدة أقسام أهمها الفرسان(الأتراك) والمشاة(السودان) [4] ،ولجأ الفاطميون إلي إتباع تقسيم

([1]) ماجد ، نظم ،جـ1 ، ص202 .

([2]) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص663 .

([3]) ماجد ، نظم ،جـ1 ، ص201 .

([4]) ابن منجب ،قانون ديوان الرسائل، المقدمة ص32؛ ماجد ،نظم ، جـ1ـص 193 .

عشري في توزيع المسؤوليات بين الجند[1] ،فجعلوا لكل عشرة أفراد عريفاً ،ولكل عشرة عرفاء نقيب،ولكل عشرة نقباء قائد ، وعلي كل عشرة قواد أمير ، وأطلق علي القائد الأعلي للجيش اسم (الإسفهسلار) وتسمي وظيفته بالإسفهسلارية [2] ، ووصفته المصادر" *بأنه زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم* " [3]، ويأتي ترتيبه بعد *صاحب الباب* " مباشرة وتقف في خدمته الحجاب علي اختلاف طبقاتهم ،أما في الشام فكان قائد الجيش يسمي أمير جيوش الشام [4] ، ولقب أحدهم وهو أنوشتكين الدزبري أمير الأمراء [5] .

ومن نافلة القول أن الخليفة الفاطمي كان يمثل القائد الأعلي للجيش الفاطمي في القرن الفاطمي الأول ؛فقد خرج العزيز بالله علي رأس الجيش الفاطمي لمواجهة أفتكين التركي سنة 368هـ/979م الذي كان قد استولي علي سوريا ، كما قاد الخليفة المستنصر بالله الجيش لمواجهة تغلب الأتراك علي الدولة خلال الثورة التي كادت تعصف بقلب الخلافة الفاطمية [6] .

كذلك كان وزير السيف بسبب سلطته العامة له قيادة الجيش ،كما كان الخليفة –أحياناً – يعهد بالقيادة إلي موظف ليس لوظيفته أي مظهر

([1]) القلقشندي ، صبح ، جـ3 ،ص 551 ؛ مشرفة،نظم الحكم ، ص145 .

([2]) ابن القلانسي ،ذيل تاريخ دمشق ، ص34 ؛ القلقشندي، صبح ،جـ3،ص551؛ ماجد ، نظم ،جـ1،ص 193؛ مشرفة ، نظم الحكم ،ص 173 ؛أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، جـ1 ، ص192 .

([3]) ابن الطوير ، نزهة المقلتين، ص123 ؛ القلقشندي ، صبح، جـ3، ص478 ، 479؛ أيمن فؤاد ،الدولة، ص689 .

([4]) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق،ص 116، 118 ؛ابن عساكر، تاريخ دمشق ، جـ12، ص59؛ المقريزي ، المقفي الكبير، جـ2 ،ص 303 .

([5]) المقريزي ، إتعاظ الحنفا ، جـ2، ص160 .

([6]) ماجد ، نظم ،جـ1 ، ص208 ؛ أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص690 .

حربي ؛كما حدث في إرسال الحملة الحربية إلي العراق بقيادة المؤيد داعي الدعاة [1] .

وغالباً ما كان الأمراء والجنود يتميزون عن بعضهم البعض بعلامات في المواكب الرسمية والأعياد بحسب مراتبهم ؛فالأمراء الكبار وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب في أعناقهم ،ويقود كل منهم ألف جندي ،ويلي هؤلاء فريق من الأمراء يعرفون بأصحاب القضب ؛يحملون في أيديهم قضب الفضة "أي رماح الفضة" ،ويقود كل منهم مائة جندي [2]؛وهناك أدوان الأمراء الذين لم يؤهلوا لحمل القضب "الرماح"،ولكنهم ولا ريب كانوا يحملون سلاحاً من نوع أقل قيمة [3].

هذا ووصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو ترتيب الجند الفاطميين في عهد الخليفة المستنصر بالله ؛فذكر أن الجند كانوا يسيرون في صفوف منتظمة فصيلة تلو فصيلة ؛فيسير في المقدمة البربر ،يليهم المغاربة ،ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين ، ويتبعهم الحجازيون والسودان وكان يطلق عليهم عبيد الشراة ؛أي الأسري الذين كانوا يشترون بالمال [4] .

أساليب القتال:-

أما تعبئة الجيوش وطرق القتال فقد نالوا فيها حظاً عظيماً ؛فبعد أن كانت الطريقة القديمة الكر والفر بلا انتظام ؛أصبحوا يقاتلون صفوفاً

([1]) ماجد ، نظم ،جـ1، ص208 .

([2]) القلقشندي ،صبح ، جـ3،ص476 ؛ سرور، الدولة الفاطمية ، ص 148 ؛حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية، ص301 ؛أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، جـ1 ، 193 .

([3]) القلقشندي ، صبح، جـ3 ، ص476 .

([4]) ناصر ،خسرو ، سفر نامة ، ص 109-110؛ حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة ، ص 301 ؛ محمود الحويزي، مصر في العصور الوسطي ، ص164 .

كالحائط الممتد ؛تسير بهذا الشكل لمقاتلة عدوهم متضامنين ليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه كما يفعلون في الصلاة وفق قوله تعالي "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص"[1].

كما كانوا يقسمون الجيش إلي خمسة أقسام "مقدمة" وتكون أمامه لتبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وهي غالباً من الفرسان،"وقلب" وهو وسط الجيش وفيه يتخذ القائد العام مركزه غالباً حتى يراه جميع الجند لتنفيذ جميع أوامره؛أو في المقدمة ليثير حماسة الجند ويلقي الفزع في نفوس أعدائه ،أو في عريش له علي ربوة يشرف منها علي جيشه [2].

أما الكتيبة الثالثة فتوضع "يمنة" وتسمي "الميمنة" ، كما توضع الرابعة علي يسارها وتسمي "الميسرة" ؛ويطلق عليهما المجنبتان أو الجناحان ،وتوضع الكتيبة الخامسة في الخلف وتسمي "ساقة الجيش " [3].

وكان لكل فرقة من هذه الفرق الخمس أمير يأتمر بأمر القائد ؛يقال له" صاحب الميمنة" أو الميسرة وهكذا ،ولهذا يسمي الجيش خميساً لقسمته إلي خمسة أقسام ،ثم تفننوا في طرق تعبئة الجيوش وكانوا دائماً شديدي المحافظة علي خطوط رجعتهم [4].

وكان والي المدينة يتولي قيادة الجيش الفاطمي في سائر المدن الخاضعة للحكم الفاطمي؛فكان جعفر بن فلاح الكتامي قائداً للجيش الذي

([1]) مشرفة ، نظم الحكم ، ص172 ؛ أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، جـ1 ، ص194 .

([2]) مشرفة ، نظم الحكم ، ص 173 .

([3]) مشرفة ، نظم الحكم ، ص173 .

([4]) مشرفة ، نظم الحكم ، ص173 .

تولي فتح مدينة دمشق بالشام وهو أول أمير لها من قبل الفاطميين [1]، وأبو محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح قائداً علي رأس القوات العسكرية التي خرجت من مصر متوجهة صوب دمشق سنة 363هـ/973م [2] ، وكذا نفس الأمر مع القائد منجوتكين من قبل الخليفة العزيز سنة 381هـ/991م [3]، والقائد أنوشتكين الدزبري من قبل الظاهر لإعزاز دين الله سنة 415هـ/973م [4] .

هذا وجرت العادة أن يرسل الخليفة الفاطمي فرقاً من الجيش الفاطمي المرابط بمصر لمصاحبة ولاة الدولة في سائر البلاد الواقعة تحت سيطرة النفوذ الفاطمي ،مع مراعاة وجود قسمين من تلك الجيوش؛أحدها هو الجيش الثابت المرافق للولاة في حال تعيينهم علي بلد ما [5]، وعدد ها الجيش محدود يترواح ما بين (3-5آلاف)جندي ،ويكون من بينهم عدد غير قليل من الفرسان كان يختلف حسب أهمية الوالي ومنزلته عند

---

(1) بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ2بيروت 1978، ص32؛ ابن كثير ، البداية ، جـ11 ، ص276؛ الدواداري ، الدرة المضيلة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق:صلاح الدين المنجد، القاهرة1961، ، ص128 ؛ المقريزي ، إتعاظ الحنفا ، ص125 .

(2) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص20 .

(3) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ،جـ12 ، ص59 .

(4) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص118 ؛ المقريزي ، إتعاظ الحنفا، جـ2، ص160 ؛المقفي ، جـ2، ص303 .

(5) ابن القلانسي ، يل تاريخ دمشق ، ص68 ، 94 ؛المقريزي، إتعاظ ، جـ2، ص8 ، 43 ، 83 .

الخليفة الفاطمي ،أو حسب أهمية الموقف الذي سيقابله في البلد المتوجه إليها[1] ويصل أحياناً إلي ألفي فارس.

أما القسم الثاني من تلك الجيوش فهو الجيش غير الثابت وهو الذي يستعان به لمواجهة المشاكل والأزمات الطارئة ويتكون –إضافة إلي الحامية العسكرية – من جيوش الولايات التابعة للدولة الفاطمية ، وربما يستعان بعدد آخر من القاهرة تبعاً لتطورات الأحداث السياسية [2].

والثابت لدينا أن الفاطميين اهتموا بتوفير أسباب العيش المناسب لجنودهم ،فقاموا برعاية أسرهم أثناء غيابهم ، وكانت الدولة تمنح الجنود إقطاعات من الأرض مختلفة المساحة لقاء خدماتهم العسكرية وحسب درجاتهم ومراتبهم [3]، فقد أقطع الخليفة العزيز بالله ووزيره يعقوب بن كلس للجنود الفاطميين في مصر وبلاد الشام أراض لاستغلالها والانتفاع بها في حياتهم [4]، وفي حال إخراج الجيش الفاطمي من مصر للقيام باحدي المهام العسكرية في جهة ما كان يقدم لكل جندي عشرين ديناراً ليتجهز بها وينفق علي نفسه خلال رحلته ، كما كانت تقدم لهم الأرزاق والكسوة في الصيف والشتاء .

هذا ودأب بعض خلفاء الدولة الفاطمية علي إثارة حماس جنودهم بشتي الطرق ؛فكان المعز لدين الله يلجأ إلي إثارة حماس جنوده عن طريق

([1]) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ، القاهرة1916، ص226؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص 77 ، 119 ؛المقريزي ، المقفى ، جـ1 ، ص127 ؛جـ2 ، ص303؛عارف تامر ، المستنصر بالله ،دمشق 1980، ص 129 .

([2]) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص 9، 31 ، 41 ، 68 ، 118 ؛ ابن ميسر ، المنتقي من أخبار مصر ، ص 166 ؛ المقريزي ، إتعاظ الحنفا ، جـ2، ص 249 ، 269 ؛ جـ2 ،ص 161 ، 176 ، 178 .

([3]) المقريزي ، الخطط ، جـ1 ، ص 85 ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ1 ، ص114 ، 192-193 .

([4]) المقريزي ، الخطط ، جـ2 ، ص6 ؛ مشرفة ، نظم الحكم ، ص 158 .

إغرائهم بالمال والمناصب أو بتخويفهم من الله سبحانه وتعالي [1] ، وكان العزيز بالله ينفق من الأموال لإعداد الجيوش وتدريبها وتسليحها ومنحها الأعطيات والأرزاق والمكافآت ، فأنفق علي الجيش الفاطمي المتوجه إلي بلاد الشام في احدي المهام العسكرية سنة 381هـ/991م ما ينيف علي المليون دينار[2] .

ومن الأمور الهامة التي كان يقوم بها الخلفاء الفاطميون استعراض الجيش في العاصمة أو ضواحيها ؛وكان ميدان بين القصرين الواقع بين القصر الفاطمي الكبير والقصر الفاطمي الصغير الغربي يستخدم لهذا الغرض ،وكان يتسع لعشرة آلاف جندي بين فارس وراجل [3]؛ وتروي المصادر أن العزيز عرض عساكره في سنة 384هـ/978م في خارج القاهرة عند مكان يسمي "سطح الجب" ،فنصبت له خيمة فخمة وضرب لابنه المنصور خيمة أخري ،ولم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار إلي صلاة المغرب [4].

كما حرص الخلفاء الفاطميون علي توديع الجيوش المتجهة لمحاربة الأعداء خاصة ما كان مرسلاً منها إلي بلاد الشام وفلسطين التي كان أهلها في ثورة متواصلة ضد سلطة الفاطميين الشيعة، ويعود هذا التقليد إلي الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي حرص بنفسه ومعه ولي عهده وكبار رجال دولته لوداع جيش جوهر الذي خرج من رقّادة لفتح مصر؛واستمر هذا التقليد بعد فتح مصر فإذا ما خرج الجيش جلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح لعرض العساكر وتوديعهم ،وفي هذه المنظرة كان

([1]) حسن إبراهيم ،طه شرف ، المعز لدين الله ، ص177 ؛الخربوطلي ، العزيز بالله ، ص 93 .

([2]) ابن ميسر ، المنتقي من أخبار مصر ، ص 170 .

([3]) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص695 .

([4]) ماجد ؛ نظم ،جـ1 ، ص209 .

يؤذن لقائد الجيش بالمثول بين يدي الخليفة فيخلع عليهم خلعة مزركشة بالذهب[1] ؛ أما الصناديق التي تحوي معدات الجيش من أموال وأسلحة ومؤن وغير ذلك، فكانت العادة أن يقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد قوائم تشتمل علي محتويات هذه الصناديق ، وكانت نوافذ المنظرة تفتح ،فإذا رأي الجندي وجه الخليفة خروا له مقبلين الأرض ،ثم يومئ الخليفة للجيوش فتسير ويركب إلي منظرة المقّس [2] .

وبالرغم من عدم توافر معلومات كافية عن أعداد الجنود الفاطميين إلا أن هناك ما يشير إلي حجم القوات الفاطمية التي كانت تتوجه من القاهرة إلي بعض الولايات الشامية بين الحين والآخر ،ففي سنة 363هـ/973م بلغ عدد الجيش الذي قاده أبو محمود إبراهيم بن جعفر إلي دمشق ما يقارب 20 ألف جندي [3].

وفي خلال حربه ضد أفتكين التركي والي دمشق سنة (365-367هـ/975-977م) جمع جوهر الصقلبي جيشاً بلغ تعداده ما ينيف علي العشرين ألفاً من الجنود [4]، وبلغ عدد الجيش الفاطمي المتوجه من القاهرة لدمشق سنة 381هـ/991م حوالي ثلاثة عشر ألف جندي [5]، حيث كانت تلك الجيوش تخرج للقيام بمهام عسكرية ثم تغدو عائدة إلي مقر العاصمة بالقاهرة عقب انتهاء المهمة مع مراعاة الإبقاء علي حامية عسكرية بالبلدان التابعة للخلافة الفاطمية لحمايتها ومساعدة رجال الشرطة في إقرار الأمن والنظام .

---

(1) المقريزي ،الخطط ، جـ1، ص481 .

(2) حسن إبراهيم ،تاريخ الدولة ، ص302 .

(3) ابن ميسر ، المنتقي من أخبار مصر ، ص166 .

(4) المقريزي ، المقفي ، جـ3 ، ص 109 .

(5) ابن القلانسي ، نيل تاريخ دمشق ، ص 69 .

هذا في الوقت الذي ذكر فيه أحد المؤرخين المحدثين[1] أن طائفتي الأتراك والسودان داخل الجيش الفاطمي بلغ تعدادهما حوالي خمسين ألف جندي ،والمغاربة بلغ الفرسان منهم حوالي أربعون ألفاً ،والمشاة ست وثلاثين ألفاً ؛ وقدر المقريزي رواتب طائفة الأتراك وحدها في الجيش الفاطمي بثمان وعشرين ألف دينار شهرياً ؛زادت تدريجياً حتى وصلت أربعمائة ألف دينار شهرياً في عهد المستنصر بالله الفاطمي ؛ ولاشك أنه إذا كانت تلك رواتب طائفة واحدة من الجيش فأغلب الظن أن رواتب الجند تجاوزت المليون دينار سنوياً ،عدا ما كانت تنفقه الدولة على الطعام والملبس والسلاح وغيره .

ومن نافلة القول أن عدد الجيش الفاطمي بدأ في أوائل الدولة بأعداد حاشدة بلغت ما يقارب مائة ألف رجل قيل عنه -كما ذكر مسبقاً- أكبر جيش عرفته مصر منذ الإسكندر الأكبر ؛ أخذت في التزايد تدريجياً – خاصة في عهد المستنصر– ثم أخذ في التضاؤل نسبياً في نهايتها ؛وخير شاهد علي ذلك أن عدة العسكر في عرض ديوان الجيش في أيام الوزير رزيك بن الصالح طلائع سنة 557هـ/1162م بلغت أربعين ألف فارس ونيفاً وثلاثين ألف راجل من السودان ؛ بل أنه خلال الصراع الدائر بين شاور وضرغام سنة559هـ/1164م كان بمصر عشرة آلاف فارس [2].

ويبدو واضحاً أن الفرقة السودانية كانت ما تزال تكون معظم مشاة الجيش الفاطمي ،وكانوا يسكنون في حارة مخصصة لهم خارج باب زويلة علي يمنة الخارج منه تجاه بركة الفيل تعرف بـ"الحارة المنصورية" ،وقد قام هؤلاء السودان -الذين بلغ عددهم خمسين ألفاً- عندما تولي صلاح الدين الوزارة سنة564هـ/1168م بمكاتبة الفرنج يحرضونهم علي محاربة صلاح الدين ،وقد وقع كتابهم هذا في يده الذي قتل رئيسهم مؤتمن

(1) حسن إبراهيم ،تاريخ الدولة ، ص563 .

(2) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية، ص693 .

الخلافة في ذي القعدة من نفس العام ،ثم هاجمهم في الحارة المنصـــورية وأحرقها عليهم وخربها وتتبع فلولهم في الصعيد حتى قضي عليهم تمامـــاً وأصبح أمر السودان كأن لم يكن [1].

والخلاصة أن الجيش المصري وقع علي عاتقة التصدي للأخطـــار الخارجية التي باتت تهدد التخوم المصرية في عهد الـــدولتين الإخشـــيدية والفاطمية ؛كما كان لزاماً عليه مواجهة حركات التمرد والعصيان من قبل نواب تلك الدولتين في بلاد الشام ،ناهيك عن حركات الانقسام داخل الجيش نفسه والتي كانت تحتاج لقائد حازم من قبيل :الإخشيد وكافور من قبـــل ؛ ثم الخلفاء الفاطميين من بعد .

ولا يخفي علينا مدي اهتمام الإخشـــيديين والفـــاطميين بـــالجيش المصري وعناصره وحواشيه وأساليبه القتالية وعدده وعتاده وأســـلحته والطقوس المصاحبة لخروجه في وقت الحرب ؛تلك العناية التي ســـاعدت الفاطميين بصفة خاصة علي بقاء دولتهم زهاء قرنين من الزمان ؛تصدت خلالها للأخطار الخارجية والداخلية علي حد سواء ؛ ويكفي أنـــه بمجـــرد انهيار عصبية الجيش والصراع بين طوائفه وعناصره ؛بات ذلك المسمار الأول في نعش الدولة الفاطمية ؛التي ما لبثت أن سقطت علي يد الأيوبيين الذين طعموا جيشهم بدماء جديدة ؛شكل الأكراد والمصريون النصيب الأكبر فيه ؛لمواجهة خطر الحملات الصليبية التي داهمت مصر وبلاد الشام إبان تلك الفترة .

([1]) أيمن فؤاد ،الدولة الفاطمية، ص693 .

فهرس المحتويات

مقدمة ------------------------- (3-4)

الفصل الأول --------------------(5 -24)

الفصل الثانى --------------------(25 -77)

الفصل الثالث --------------------(78 -133)

الفصل الرابع --------------------(133 -177)

الفصل الخامس ------------------ (177 -211)

الفهرس------------------------- --(212)

Bibliotheca Alexandrina
0655022